

مِنْ نَفْسِ الْقُرْآنِ

مِنْ نَوَافِدِ الْقُرْآنِ

تفسير موضوعي حركي يقتبس من القرآن الكريم
ما يلقي ضوءاً على قضايا عقائدية أو أخلاقية
أو فكرية أو اجتماعية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ محمد اليعقوبي

الجزء الثالث

سورة الأنفال - سورة الحجر

هوية الكتاب

- اسم الكتاب: من نور القرآن
- تأليف : سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)
- الموضوع : التفسير
- الجزء : الثالث
- عدد الصفحات : ٣٧٠
- الطبعة : الرابعة
- التاريخ : ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

طبع ونشر

دار الصادقين للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - النجف الأشرف - شارع الرسول (ص)

هاتف: ٠٠٩٦٤ ٧٨١٠١٩٥٤٨٠



القبس/٦٩

سورة الأنفال: ﴿٦٩﴾

﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾

موضوع القبس: من لا يقدم ما عليه في طاعة الله تعالى يعطي
أكثر منه في معصيته

وردت الآية في سورة الانفال ضمن سياق الحديث عن معركة بدر وملابساتها ونتائجها، وتشير الى حماقة وجهل وسوء عاقبة مشركي قريش الذين كفروا وتمردوا واستكبروا عن الايمان بالله تعالى وطاعته ورفضوا تكاليفها لكنهم أصروا على عبادة الاصنام وأنفقوا اموالاً ضخمةً لتجهيز المقاتلين^(١) للقضاء على النبي (ﷺ) وأصحابه المؤمنين وانهاء دعوته المباركة.

فالأموال التي بخلوا بها ولم ينفقوها في طاعة الله تعالى لم ينتفعوا بها فقد انفقوها في الصد عن سبيل الله تعالى سواءً بالحرب على المؤمنين او بمنع إقامة شريعة الله تعالى او بإبعاد الناس عن الدين ونحو ذلك من اشكال الصد عن سبيل الله تعالى فكانت ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ في الدنيا لأنهم صرفوها في مضرتهم وجلب العار لهم او تركوها لذريتهم ولم تنفعهم إذ غلبوا وهزموا ثم الحسرة الأكبر والعاقبة الأفظع في الاخرة حيث يساقون الى جهنم بكل إهانة وتعذيب.

وظاهر الآية ان كونهم كافرين يدفعهم الى هذا الفعل وكما قالوا ان تعليق الحكم على الوصف يشعر بالعلية، فان كفرهم هذا سبب وعلة تدعوهم الى هذا

(١) في تفسير البرهان: ١٦٤/٤ (وما بقي من عظماء قريش إلا اخرجوا مالا وحملوا ووقروا).

الظلم والفسق ويؤدي بهم الى جهنم التي هي حصاد افعالهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦) والحشر لغةً (إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم الى الحرب ونحوها ولا يقال الحشر إلا في الجماعة)^(١) كما عن الراغب في المفردات.

فتجمّعهم في الدنيا ضد الحق وأهله وخروجهم حاشرين لمحاربة الله ورسوله تجسّم بخروجهم حاشرين الى جهنم افعالهم يوم القيامة. فالآية تكشف عن حقيقة مهمة في حياتنا لو التفطنا اليها بعمق ووعي لأثرت في توجيه الناس نحو الصلاح وخلاصتها ان من يمتنع عن بذل ما يتطلبه الايمان وطاعة الله تعالى فإنه سيضطر الى ان يعطي أزيد من ذلك راعماً في معصية الله تعالى فتجتمع عليه الحسرة والعقوبة لكن هذه الحسرة لا قيمة لها ولا ثمرة فيها لأنها جاءت في غير وقت العمل والتدارك.

هذه الحقيقة القرآنية لا تختص بالكافرين، فقد يبخل المتدين الذي يصلي ويصوم لكنه لا يدفع الحقوق الشرعية فيبتلى بصرف ماله في أمور عبثية أو لهوية او كمالية او ربما محرمة فتكون الحسرة عليه مضاعفة لتقصيره في إداء الواجب عليه من جهة ولإنفاق المال في ما يوجب له حسرة وعقوبة بالنار من جهة أخرى عن الصادق (عليه السلام) قال: ما من رجل يمنع درهماً في حقه إلا أنفق اثنين في غير حقه، وما من رجل يمنع حقاً في ماله إلا طوّقه الله به حية من نار يوم القيامة^(٢)، وعنه (عليه السلام): (من منع حقاً لله عز وجل أنفق في باطل مثليه)^(١).

(١) مفردات غريب القرآن - الأصفهاني: ١١٩.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة، باب ٦/ح ١.

او انه يتركه لورثته فيكون سبباً لحسرتة على نحو اخر، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله عز وجل ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ (البقرة: ١٦٧)، قال (عليه السلام): (هو الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله عز وجل بخلاً ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة الله أو بمعصية الله، فإن عمل فيه بطاعة الله رآه في ميزان غيره فرآه حسرةً وقد كان المال له، وإن كان عمل به في معصية الله قواه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله عز وجل) (٢).

وقد وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) مثل هذا الرجل بقوله: (إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل جمع مالاً بمعصية الله فمات فورثه رجل دخل به الجنة) (٣).

ويُفهم من بعض الروايات ان ما يتعرض له المال احياناً من سرقة او تلف انما هو بسبب عدم اخراج الزكاة والخمس ونحوهما من الحقوق الشرعية، وورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (قد يبتلي الله المؤمن بالبلية في بدنه او ماله او أهله، ثم تلى هذه الآية ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠) (٤).

كما لا تختص هذه الحقيقة بالأموال وانما تتعدها الى ما تتطلبه طاعة الله تعالى من أصغر شيء كالتكاسل عن أداء عمل عبادي معين او حضور في مجلس

(١) نفس الباب، ح ٢.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه، باب ٥/ح ٥.

(٣) نهج البلاغة، باب الحكيم، رقم ٤٢٩.

(٤) تفسير القمي: ٢/٢٧٦.

ذكر أهل البيت (عليهم السلام) أو السعي لقضاء حاجة مؤمن فانه يتلى بإمضاء ذلك الوقت والجهد في غير طاعة الله تعالى في أمور عبثية ومُضيعة للوقت أو ما هو أسوء من ذلك فتجتمع عليه الحسرة في الدنيا لإضاعته فرصة الهداية واكتساب الجنان المتاحة لهم والندامة والعقوبة في الآخرة، وهكذا في كل أمر راجح شرعاً أو عقلاً، خذ مثلاً بعض الأمهات يتناقلن عن ارضاع اولادهن الصغار تكاسلاً أو حفاظاً على رشاقتها ونحو ذلك وتعطيه حليباً صناعياً فيبتلى الطفل بآثار سلبية كالمغص ونحو ذلك ما تتمنى معه الام لو ارضعت طفلها وارتاحت من هذا البلاء. وتمتد تطبيقات هذه الحقيقة الى كل المستويات فعلى صعيد الزعامات والقيادات المتبعة رأينا كثيراً من الناس يتبعون قيادات ما انزل الله بها من سلطان وربما تصل الى مستوى اتباع يزيد والمقبور صدام وأمثالهما من أجل فتات دنيا زائلة وتترك طاعة الله ورسوله والحجج المعبرة والنتيجة خسران الدنيا والآخرة قال تعالى ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٥-١٦٧) فالآية تقول: ليت هؤلاء الذين ظلموا انفسهم ولم يتبعوا الحق وظلموا الحق نفسه إذ خذلوه ولم ينصروه يرون عاقبتهم السيئة والمؤلمة حين يجتمع الاتباع مع القادة الظالمين يوم القيامة حيث يتبرأ هؤلاء القادة من اتباعهم وتنقطع بينهم الاواصر والعلاقات ولا يجدون عندهم نفعاً ولا يدفعون عن انفسهم عذاب جهنم وكل عذاب فضلاً عن اتباعهم فيكتشف الاتباع عجز قادتهم

وزعاماتهم وضلالهم وستصيبهم حسرةٌ بسبب اتباعهم وطاعتهم لقادة مزيفين وسيأتكدون من حقانية ما كان يقوله الله تعالى ورسوله ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ولم يكن لهم إلا تمني العودة الى دار الدنيا للعمل بما اكتشفوه من الحقيقة ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا﴾ (البقرة: ١٦٧) لكنه تمني باطل لا يتحقق لانهم أعطوا الفرصة الكافية في الدنيا وقد كانت هذه الحقيقة ماثلة امامهم بما اخبر به الله تعالى ورسله لكنهم حجبوا بصائرهم عن رؤيتها بغفلتهم وجهلهم واتباع شهواتهم وتضليل شياطين الانس والجن، ومع ذلك فهم غير صادقين في تمنيهم هذا ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (الأنعام: ٢٨).

هذا على صعيد الزعامات والقيادات الباطلة واتباعهم من غير المؤمنين لكن هذه الحقيقة لها مستويات داخل المتدينين ايضاً، فقد يفضل الشخص الرجوع الى الجهة التي تحافظ على راحته ومصالحه وتداهنه او لأنها تعطيه ما يشتهي ويوافق هواه ويدغدغ عواطفه، او لأنها لا تكلفه جهداً أو حركةً، ويترك القيادة الحقبة التي تذكره بالله تعالى وتعمل على إعلاء كلمة الله تعالى وصلاح الأمة والارتقاء بها لأنها تتطلب جهاداً للنفس وحركة وعزيمة، ونتيجة اختياره هذا نسيان ربه شيئاً فشيئاً وميله الى الدنيا والانشغالات التافهة ونقصان وعيه ودينه حتى يتحول الى شكليات وطقوس فارغة من المحتوى فتكون حسرة عليهم لانهم لم يستثمروا فرصاً كانت ستكسبهم درجات عالية في الجنة.

وترتقي تطبيقات الآيه حتى تصل الى مستوى بذل النفس فأن الأمة لما تخاذلت عن نصره أمير المؤمنين (عليه السلام) وتقاعت عن نصره الإمام الحسن (عليه السلام) أبتليت بإمارة معاوية الذي جاء الى الكوفة بعد صلح الإمام الحسن (عليه السلام) فخطب

في أهلها الذين قاتلوه في صفين وأزهقت أرواح عشرات الآلاف من الفريقين فقال في كلامه (والله اني ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا، ولا لتحجوا ولا لتركوا، انكم لتفعلون ذلك، وانما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد اعطاني الله ذلك وانتم له كارهون)^(١).

ولما لم تفي الأمة للإمام الحسين (عليه السلام) بوعود النصرة وبخلت بالنفوس عليه وانقلبت لتقاتله فكتب عليها الذلة والخنوع وتسلبت الأشرار من أمثال يزيد وابن زياد والحجاج وغيرهم من الطواغيت فقتلوا من خيرة ابناءها ما زاد على الثمن الذي كانوا سيدفعونه لو نصرروا الحسين (عليه السلام) وازالوا حكم الطواغيت وتنعموا بعدالة حجة الله تعالى ودولته الكريمة، وقد حذرهم الإمام الحسين (عليه السلام) من هذه النتيجة وألقى الحجة عليهم في خطابه يوم عاشوراء وكان مما قاله (عليه السلام) (فأصبحتم إلباً لأعدائكم على اوليائكم بغير عدلٍ أفشوه فيكم ولا أملٍ أصبح لكم فيهم، أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون؟ ويلكم! أتطلبوني بدم أحد منكم قتلته، أو بمال استملكته، أو بقصاص من جراحات استهلكته)^(٢).

وقال (عليه السلام) (اما والله لا تلبثون بعدها الا كريثما يركب الفرس حتى يدور بكم دور الرحي ويقلق بكم قلق المحور)^(٣) اذن لما امتنعوا عن القيام بواجب النصرة للإمام الحق لم يحصلوا على ما أرادوا من الدعة والراحة وسرعان ما دفعوا الثمن الذي حذرهم منه غالباً.

(١) مقاتل الطالبين - ابو الفرج الإصفهاني: ٤٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٤٢٥ / ٥، ينابيع المودة للقندوزي: ٦٤ / ٣.

(٣) الصحيح من مقتل سيد الشهداء واصحابه: ٦٥٦، ٦٦٤، ٦٦٥.

وقال زهير بن القين في خطبته (فأنكم لا تدركون منهما - يزيد وابن زياد -
 الا بسوء عمر سلطانهما كله ليسملان اعينكم ويقطعان ايديكم وارجلكم، ويمثلان
 بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان امثالكم وقراء كم أمثال حجر ابن
 عدي واصحابه وهاني ابن عروة واشباهه).

لاحظ كيف تحول بخلهم بالتضحية الواجبة في سبيل الله الى نصرة للأشرار
 وسقوط مربع في تلك الجريمة البشعة والعاقبة المرعبة.

وخذ مثالا نعيشه اليوم وهو التصدي البطولي للمجاهدين والمتطوعين لصد
 الهجمة الهمجية للدواعش والإرهابيين الذين أعلنوا بصراحة انهم قادمون لنقض
 العتبات المقدسة في النجف و كربلاء واحتلالها وغرهم سقوط الموصل وتكريت
 في يومين بأيديهم، فنهض المؤمنون الغياري في وجوههم واسترجعوا منهم ما
 اغتصبوه وطهروا الأرض من رجس وجودهم وكلفنا ذلك شهداء كرام وجرحى
 اعزاء لكن الثمن سيكون اضعافه لو تقاعسنا ولم نقم بهذا الواجب.

والآية أيضا بصيغة المضارع الذي يعني استمرارية الحالة أي ان الذين
 كفروا وأعداء الإسلام من الطواغيت والقوى المستكبرة وذيولهم واتباعهم
 ومنفذي خططهم سيستمرون في انفاق أموالهم للصد عن سبيل الله بكل الأساليب
 التي اشرنا لها اختصارا، وشواهد كثيرة في زماننا لكن النتيجة تكون واحدة دائما
 وقطعية وهي الخسارة والحسرة ونشاهد هزيمتهم باستمرار بأذن الله تعالى.

كما ان هذه الحقيقة التي استفدناها من الآية جارية مدى الزمان فلا يقصر
 احد في القيام باي عمل راجح شرعاً او عقلاً وليس فقط فعل الواجبات وترك
 المعاصي، بل المستحبات أيضا وكل عمل انساني، لأنه ان قصرَ خسر هذه الفرصة
 للكمال والسمو والفلاح وسوف لا يحصل على النتيجة التي أرادها بل يقع في

عكس ما كان يريدُهُ، هذه النتيجة اخبر عنها الإمام الحسين (عليه السلام) بقوله: (مَنْ حَاوَلَ أَمْرًا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ أَفْوَتَ لِمَا يَرْجُو، وَأَسْرَعَ لِمَجِيءِ مَا يَحْذَرُ)^(١).
وبالعكس فأن من يجاهد نفسه ويتخلى عن مشتيتها وما تمنيه به من السعادة والراحة الموهومة فان الله تعالى يعوضه عن صبره ومجاهدته بما يُقر عينه حقيقةً وليس زيفاً كالذي ورد في النظر الى المحرمات، روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) وهو يحدث عن ربه (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها من مخافتي أبدلته ايماناً يجد حلاوته في قلبه)^(٢) فلاحظ التعبير بالابدال الذي يعني الحقيقة التي ذكرناها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾
(ق: ٣٦)، ﴿وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَاَعْيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٣).

(١) الكافي: ٢/ ٣٧٣/ ٣، تحف العقول: ١٧٧، بحار الأنوار: ١٢٠/ ٧٨/ ١٩، وفيهما اسرع لما يحذر و٣/ ٧٣/ ٣٩٢/ ٣، معادن الحكمة: ٢/ ٤٥/ ١٠١، وسائل الشيعة: ١١/ ٤٢١/ ٣.
(٢) ميزان الحكمة: ٤/ ٩.

القبس/٧٠

سورة الأنفال: ﴿٥١﴾

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ﴾

موضوع القبس: إخراج الحقوق الشرعية: الوجوب والإشكالات^(١)

الآية ظاهرة بل صريحة في وجوب إخراج الخمس من الغنائم، وقد ذكرت العناوين التي يصرف فيها الخمس وهي ستة، لله ولرسوله والذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وقد دلت روايات مفصلة عن الإمام الكاظم (عَلَيْهِ السَّلَام) أن الاسهم الثلاثة الأولى تكون لولي الأمر يصرفها في مصالح المسلمين وتقوية الإسلام ونشره، اما الثلاثة الأخرى فهي للمحتاجين من ذرية رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ولذلك سمي النصف الأول (حق الإمام) وسمي الثاني (حق السادة) عوضاً لهم عن الزكاة التي لا تحل لهم من سائر الناس فأباح الشارع المقدس لهم من الخمس (ما يستغنون به في سنتهم، فإن فضل عنهم شيء فهو للوالي وأن عجزوا أو نقص عن استغنائهم كان على الوالي أن ينفق من عنده بقدر ما يستغنون به، وإنما صار عليه ان يمونهم لان له ما فضل له ما فضل عنه)^(٢)

(١) محاضرة أقيمت على حشد كبير من فضلاء وطلبة الحوزة العلمية غصَّ بهم مسجد الرأس الشريف المجاور لمقر أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام) في مناسبة دينية بعد ذكرى ولادة أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام) في ١٣/رجب/١٤٢٣ هـ الموافق ٢٠/٩/٢٠٠٢ م، وكانت هذه المحاضرات والحشود الحاضرة ترعب النظام الصدامي المقبور (راجع تأريخ تلك الفترة في مقدمة المجلد الأول من موسوعة خطاب المرحلة وكتاب (جهاد واجتهاد).

(٢) الكافي: ٤٥٣/١، ح ٤.

والآية وأن وقعت في سياق ما حصل في معركة بدر من خلاف على الغنائم إلا أن من المعلوم أن الآيات القرآنية لا تُقيد بمورد النزول والآن أصبح كتابا للماضي وليس خالدا لكل الاجيال، لذا فالآية عامة شاملة.

و(الغنم) في الأصل ((إصابة الغنم والظفر به ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم)) كما في مفردات الراغب^(١)، فيجب الخمس في كل غنيمة يظفر بها الانسان سواء في الحرب وغيرها ولا وجه لتخصيص الوجوب بغنائم الحرب، وقد وردت عشرات الروايات التي تذكر موارد وجوب الخمس وشروطه ونحو ذلك مما ذكر في الرسائل العملية للفقهاء ويكفي ان نذكر رواية واحدة معتبرة، في الكافي بسنده عن سماعة قال (سالت أبا الحسن (عليه السلام) عن الخمس فقال: في كل ما افاد الناس من قليل او كثير)^(٢) وقد بحثنا مفصلا ادلة وجوب الخمس ومستحقه في موسوعة فقه الخلاف^(٣)، وسيأتي شيء من ذلك ان شاء الله تعالى.

والنور الذي نريد اقتباسه من الآية هو شكوى الائمة (عليهم السلام) من عزوف الناس عن دفع ما بذمتهم من حقوق شرعية الى مستحقيها، وما يصيب الامة من عاقبة سيئة في الدنيا والاخرة اذا امتنعوا عن ذلك وكيف تقنع الناس بامثال الواجب الشرعي.

(١) مفردات غريب القرآن - الأصفهاني: ٣٦٦.

(٢) الكافي: ٤٥٧/١، ح ١١.

(٣) فقه الخلاف: ٩/٣، ط. الأولى.

ومن تلك الشكاوى ما جاء في الرسالة الثانية التي وجهها الإمام المهدي (عليه السلام) إلى الشيخ المفيد (رحمته الله)، والمؤرخة غرة شوال سنة اثني عشر وأربعمائة^(١)، أي قبل أكثر من ألف عام: (ونحن نعهد إليك أيها الولي المخلص المجاهد فينا الظالمين^(٢))، أيديك الله بنصره الذي أيده به السلف من أوليائك الصالحين إنه من اتقى ربّه من إخوانك في الدين وأخرج مما عليه إلى مستحقه كان آمناً من الفتنة المبطلّة ومحنها المظلمة المضلّة، ومن بخل منهم بما أعاده الله من نعمته على من أمره بصلته فإنه يكون خاسراً بذلك لأولاه وآخريته، ولو أن أشياعنا وقّعهم الله لطاعته على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجّلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا، فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم، والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل).

أسباب حرمان البشرية من لقاء الحجة :

فالإمام (عليه السلام) يبيّن في هذا المقطع من الرسالة الشريفة أسباب حرمان البشرية وخصوصاً شيعته من طلعتة المباركة وأطاف لقائه السنية، ويخصّ شيعته

(١) تجدها في كتاب الاحتجاج للطبرسي: ٣٢٤ / ٢. والذي يظهر من تأريخ التوقيع الثاني أنه وصل إلى الشيخ قبل وفاته بثمانية أشهر تقريباً حيث كانت وفاته في يوم الجمعة لثلاث خلون من شهر رمضان المبارك سنة ٤١٣هـ وعمره الشريف ٧٥ سنة أو ٧٧ سنة وقبره اليوم في الرواق الكاظمي. وجاء في طرائف المقالات الجزء الثاني عن الشيخ يحيى ابن بطريق الحلبي (إن الإمام الحجة (عليه السلام) كتب إلى الشيخ المفيد (رحمته الله) ثلاث كتب في كل سنة كتاباً).

(٢) لم يجاهد بسيف بل دفع الكثير من الشبهات عن مذهب أهل البيت (عليهم السلام).

بالتأسف لأنهم مستحقون للفوز بلقائه بما يحملون من ولاء ونصرة واعتقاد راسخ بهم (عليه السلام)، إلا إنه يمنعهم من ذلك بعض الموانع، أما غيرهم فهم غير مستحقين أصلاً للتشرف بلقائه، وقد جعل من أهم تلك الأسباب امتناعهم عن أداء الحقوق الشرعية التي فرضها الله تبارك وتعالى في أموالهم وإيصالها إلى مستحقيها.

الأمور المترتبة على عدم دفع الحقوق:

وقد رتب (عليه السلام) على ذلك أمرين:

١- تأخير ظهوره (عليه السلام) وبما يعني استمرار معاناة البشرية من الظلم والاضطهاد والتعسف والانحراف والضلال وكثرة مستحقي النار من البشر.

٢- عدم الأمان من الفتن المضلة، لأن رايات ضلال عديدة تخرج قبل ظهور القائم (عليه السلام) وتخلط الأوراق على الناس، فيتيهون ولا يستطيعون التمييز بين راية الحق وراية الباطل، وقد عبر أحد أصحاب الأئمة (عليه السلام) عن مخاوفه من مثل تلك الفتنة، وسأل عن كيفية النجاة والإصابة في التمييز بين هذه الدعوات المختلطة، فقال (عليه السلام): (والله إن أمرنا لأبين^(١) من الشمس)^(٢)، ومن مقومات هذا

(١) أصول الكافي - الشيخ الكليني: ٣٣٦/١ ح ٣.

(٢) إلا إن هذه الأضاليل تمرر على الذين لم يعدوا أنفسهم الإعداد المطلوب لتحمل أمر الإمام (عليه السلام) (إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان)، أما المؤمن المخلص لله تعالى فسيكون أمر الإمام (عليه السلام) له أوضح من الشمس، وشواهد ذلك في واقعنا المعاصر كثيرة فكم ممن لهم مكانة علمية مرموقة تخفى عليهم أوضح الواضحات وتمرر عليهم الأباطيل، وكم من البسطاء ذوي القلوب النقية تعرف الحقيقة وتهتدي لها بيسر والمعيار في ذلك كله التقوى جاء في نهج البلاغة (واعلموا أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم) أنظر: نهج البلاغة: ١١٢-١٢٩.

الوضوح - بحسب ما أفادته الرسالة الشريفة - أداء الحقوق الشرعية.

كيف يبخل الناس على الله بما رزقهم؟

كما تشير الرسالة ضمناً إلى أن كل ما بأيدي الناس من أموال إنما هو شيء رزقهم الله تعالى إياه، ولو شاء منعهم، فكيف يبخلون عليه تبارك وتعالى بطاعته وتنفيذ أمره في إنفاق البعض اليسير مما رزقهم^(١) لقضاء حوائج المحتاجين الذين ابتلاهم الله بالمنع والفقر كما ابتلى هؤلاء بالعطاء والغنى ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود: ٧).

لماذا نركز حديثنا على الخمس :

وتندرج تحت عنوان الحقوق الشرعية مصاديق عديدة كالزكاة والخمس والكفارات والندور وردود المظالم، أما الإنفاق المستحب فمجالاته واسعة جداً، ونحن نركز في حديثنا هذا عن الخمس لأمرين:

١- إنه من أهم الفرائض المالية، ويشكل اليوم عنصراً مهماً لحفظ التوازن الاقتصادي في المجتمع بعد أن قلّ دور الزكاة عمّا كانت عليه في صدر الإسلام بسبب تغيير نمط الحياة الاقتصادية، فبعد أن كانت عمدة واردات الناس مستندة إلى الزراعة وتربية الحيوانات التي هي موارد وجوب الزكاة أصبحت اليوم

(١) قال تعالى ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِمَّنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِي يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ (إبراهيم: ٣١) و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٤) و﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: ٣).

مستندة إلى التجارة والصناعة والحرف مما يخرجها - بحسب المشهور - عن دائرة وجوب الزكاة، فيشملها الخمس، فيكون تشريعه إلى جنب تشريع الزكاة دليلاً على خلود هذه الرسالة وصلاحيتها لتنظيم حياة البشرية إلى النهاية حيث خطط الشارع المقدس لكل تغيرات الحياة.

٢- توالي هجمات التشكيك في وجوب الخمس وصدّ الناس عن أداء هذه الفريضة بأساليب مختلفة تأتي الإشارة إليها بإذن الله تعالى.

مانع الخمس يستحق النار :

والخمس فريضة واجبة كوجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج في الموارد التي ذكرها الفقهاء (قدس) استناداً إلى القرآن الكريم وسنة النبي العظيم (صلى الله تعالى عليه وعلى وآله الطاهرين) الذين هم عدل الكتاب^(١)، فمن أخلّ بشيء منها فقد ارتكب كبيرة يستحق عليها ﴿نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحریم: ٦) ﴿يَوْمَ تَرُؤْنَهَا تَذهُلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ٢)، وقد عدت بعض الروايات الشريفة بصراحة حبس الحقوق الشرعية من غير عسر من الكبائر، وقرنها الإمام الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ)^(٢) إلى الزنا وشرب الخمر

(١) راجع كتاب (شكوى القرآن) ملحق قيس قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٢) في تفسير من نور القرآن.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، باب ٤٦/ح ٣٣.

واللواط والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم والربا، وكذا في حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) (١).

ما هو الدليل على وجوب الخمس؟

وقد نصّ القرآن على وجوب الخمس بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (الأنفال: ٤١)، ويراد بالغنيمة مطلق ما يستفيده الإنسان، ولا تختص بغنائم الحرب، قاله الراغب (٢)، وأكدته موثقة سماعة، قال سألت أبا الحسن (عليه السلام) عن الخمس، فقال: (في كل ما أفاد الناس من قليل أو كثير) (٣)، وغيرها.

وقد أجمع علماء الفريقين على أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يعمل بها، فيخصّ قرباه من بني هاشم بالخمس حتى وفاته (صلى الله عليه وآله)، ثم منعه القوم على مستحقه من آل الرسول (صلى الله عليه وآله) وجعلوهم كغيرهم (راجع الكشاف في تفسير هذه الآية ومسند أحمد وغيرها من الصحاح) (٤).

وقد عبر الأئمة (عليهم السلام) عن لوعتهم لهذه المخالفة الصريحة للكتاب والسنة،

(١) نفس المصدر ح ٣٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن مادة (غنم). حيث يقول: (والغنم بالضم فالسكون، إصابته والظفر به، ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم ومن ذلك يظهر، أن المقصود بالغنيمة في اللغة، هو كل ما يكسبه الإنسان ويربحه من أي طريق كان. بمشقة أو غير مشقة، في حرب أو في سلم، من دون تقييد).

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الخمس، أبواب ما يجب فيه الخمس، باب ٨/ ح ٦.

(٤) النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي، ص ٥٠.

فمن أبي جعفر الأحول قال: قال أبو عبد الله (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (ما تقول قريش في الخمس؟ قال: قلت: تزعم إنه لها؟ قال: ما أنصفونا والله، لو كان مباحة لتباهلن بنا، ولئن كان مبارزة لتبارزن بنا، ثم يكون هم وعلي سواء)^(١).

هل يسقط الأئمة (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) حقهم بسبب الظروف؟

نعم، قد يسقط الأئمة (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) حقهم في فترة ما بسبب الظروف التي يمرون بها، كما في رواية يونس بن يعقوب قال: (كنت عند أبي عبد الله (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فدخل عليه رجل من القمطين فقال: جعلت فداك، تقع في أيدينا الأموال والأرباح وتجارات نعلم أن حقك فيها ثابت، وإنما عن ذلك مقصرون؟ فقال أبو عبد الله (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ما أنصفناكم إن كلناكم ذلك اليوم)^(٢)، فالسائل كان يعلم بثبوت حق الإمام (عَلَيْهِ السَّلَامُ) في ماله، لكن الإمام (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أكد له أنه قد أسقطه عنه اليوم لا مطلقاً. لكن بعد ثلاثة أجيال يجد الإمام الجواد (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فرصة مناسبة لبيان بعض تشريعات الخمس، فكتب إلى بعض أصحابه: (إن الذي أوجبت في سنتي هذه وهذه سنة عشرين ومائتين لمعنى من المعاني، أكره تفسير المعنى كله خوفاً من الانتشار، وسأفسر لك بعضه إن شاء الله: إن موالي أسأل الله صلاحهم أو بعضهم قصرُوا فيما يجب عليهم، فعلمتُ ذلك، فأحببتُ أن أطهرهم وأزكّيهم بما فعلت من أمر الخمس في عامي هذا، قال الله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَلَمْ

(١) كتاب الخمس، أبواب قسمة الخمس، باب ١/ ح ١٤/ ١٥.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الخمس، أبواب الأنفال وما يختص بالإمام، باب ٤، ح ٦.

يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠٦﴾ وَسُرُّدُونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿التوبة: (١٠٣-١٠٥)﴾ إِلَى أَنْ قَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (فَأَمَّا الْغَنَائِمُ وَالْفَوَائِدُ فَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ عَامٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾^(١). وَيَأْمُرُ شِيعَتَهُ فِي نَهَايَةِ الْكِتَابِ بِإِيصَالِ الْحَقُوقِ إِلَى وَكَلَائِهِ. وَحَرَّمُوا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) التَّصَرُّفَ قَبْلَ دَفْعِ الْحَقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ، فَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَشْتَرِيَ مِنَ الْخُمْسِ شَيْئًا حَتَّى يَصِلَ إِلَيْنَا حَقًّا)^(٢).

وَكَتَبَ رَجُلٌ مِنْ تِجَارِ فَارَسٍ مِنْ مَوَالِي الْإِمَامِ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَسْأَلُهُ الْإِذْنَ فِي الْخُمْسِ، فَكَانَ مِمَّا قَالَ فِي جَوَابِهِ: (إِنَّ الْخُمْسَ عَوْنًا عَلَيَّ دِينِنَا وَعَلَى عِيَالِنَا وَعَلَى مَوَالِينَا، فَلَا تَزُووهُ عَنَّا وَلَا تَحْرَمُوا أَنْفُسَكُمْ دَعَانَا مَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ إِخْرَاجَهُ مِفْتَاحَ رِزْقِكُمْ وَتَمْحِيطِ ذُنُوبِكُمْ وَمَا تَمْهَدُونَ لِأَنْفُسِكُمْ لِيَوْمِ فِاقَتِكُمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ يَفِي بِاللَّهِ بِمَا عَهْدَ إِلَيْهِ)^(٣)، وَسَأَلَهُ جَمَاعَةٌ أَنْ يَجْعَلَهُمْ فِي حَلٍّ مِنَ الْخُمْسِ، فَقَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (مَا أَمَحَلَّ هَذَا! تَمْحِضُونَ الْمَوَدَّةَ بِالْأَسْتِخْمِ وَتَزُوونَ عَنَّا حَقًّا جَعَلَهُ اللَّهُ لَنَا وَجَعَلْنَا لَهُ وَهُوَ الْخُمْسُ، لَا نَجْعَلُ لَا نَجْعَلُ لَا نَجْعَلُ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ فِي حَلٍّ)^(٤)، وَفِي مَكَاتِبَةِ الْإِمَامِ صَاحِبِ الْعَصْرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) إِلَى سَفِيرِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَثْمَانَ

(١) وسائل الشيعة: كتاب الخمس، أبواب ما يجب فيه الخمس، باب ٨، ح ٥.

(٢) أبواب ما يجب فيه الخمس، باب ١/٤ ح ٤.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الخمس، أبواب الأنفال وما يختص بالإمام، باب ٣/٢ ح ٢.

(٤) نفس الباب، ح ٧.

العمرى (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): (لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من استحلَّ من مالنا درهماً^(١)).

الوعيد بحق مانع الزكاة يشمل الخمس أيضا :

جميع ما ورد من التهديد والوعيد لتارك الزكاة ينطبق على تارك الخمس

بوجهين:

١- إن كليهما فريضتان ماليتان، والغرض منهما واحد، بل إن أمر الخمس أخطر لتعلق حق أهل البيت (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) وذرياتهم فيه بعد أن حُرِّمَتْ عليهم الزكاة، قال الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (إن الله لا إله إلا هو لما حرّم علينا الصدقة أبدل لنا الخمس، فالصدقة علينا حرام، والخمس لنا فريضة^(٢))، وإنما صار الاهتمام بالزكاة في صدر الإسلام لما قلناه من أنّ طبيعة الحياة الاقتصادية يومئذٍ كانت مورداً لوجوب الزكاة.

٢- إن كثيراً من موارد ذكر الزكاة أريد بها معناها الأعم، أي مطلق الإنفاق الواجب في سبيل الله تعالى، أي عموم الحقوق الشرعية لا خصوص الزكاة المصطلحة^(٣)، كما قد يعبر عن الزكاة الواجبة بالصدقة^(١) في مثل قوله تعالى:

(١) نفس الباب ح ٧.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب المستحقين للزكاة، باب ٢٩ ح ٧.

(٣) كما انه قد يعبر عن الصدقة بالزكاة كما عبر الله تعالى عن تصدق أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بخاتمه بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥).

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا...﴾ (التوبة: ٥٦)، ومما جاء في مانع الزكاة الشاملة لمانع الخمس بالتقريب المتقدم ما ورد عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (ما من عبدٍ منع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب، وهو قول الله عز وجل: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ٧٥) (يعني ما بخلوا به من الزكاة)^(٢).

ويتخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله) إجراءً في حق مانعي الزكاة بإخراجهم من المسجد، كما ورد عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: بينما رسول الله (صلى الله عليه وآله) في المسجد إذ قال: قم يا فلان، قم يا فلان، حتى أخرج خمسة نفر، فقال: (اخرجوا من مسجدنا لا تصلّوا فيه وأنتم لا تزكّون)^(٣)، وعن أبي عبد الله (عليه السلام): (من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً)^(٤)، وفي وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) قال: (يا علي، كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة، وعدّ منهم مانع الزكاة، ثم قال: يا علي، ثمانية لا يقبل الله منهم الصلاة، وعدّ منهم مانع الزكاة، ثم قال: يا علي، من منع قيراطاً من زكاة ماله فليس بمؤمن ولا بمسلم ولا كرامة، يا علي، تارك الزكاة يسأل الله الرجعة إلى الدنيا، وذلك قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا

(١) قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣).

(٢) وسائل الشيعية: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة، باب ٣/ح ٣.

(٣) نفس الباب ح ٧.

(٤) وسائل الشيعية: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة، باب ٤/ح ٥.

جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ^(١) ﴿٢١﴾ (المؤمنون: ٢١).

لعدم دفع الخمس آثار وضعيتها :

وتكون المشكلة أعظم عندما نعلم إن لعدم دفع الخمس آثاراً وضعية وشرعية ذكرها الفقهاء (قدس الله أرواحهم)، فإن اللقمة غير المُخَمَّسة تكون حراماً ففترك آثاراً سيئة في الذرية التي تتكون منها، والملبس غير المخمس لا يكون مباحاً فلا تصح الصلاة فيه، والماء إذا لم يكن مباحاً فالوضوء به باطل، وبذلك تتراكم هذه الذنوب والمشاكل على مانع الحقوق الشرعية.

علاج مشكلة عدم دفع الناس للخمس :

ولما كان العلم بالشيء والافتناع به هي الركيزة الأساسية للاندفاع نحو العمل والتطبيق، وطالما قلنا^(٣): إن علاج أي مشكلة يجب أن يتوجه أصلاً إلى علل المشكلة وأسبابها ومناشئها، لا معلولاتها وآثارها الظاهرية ونتائجها، فإنه عمل

(١) وتفهم ذلك من خلال قوله تعالى ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون: ١٠) إذا تمتعت جيداً في هذه الآية الكريمة تدرك ما للصدقة من أهمية بالغة فأول شيء يأتي على ذهن العبد بعد الموت هو (الصدقة).

(٢) وسائل الشريعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة، باب ٤/ ح ٧.

(٣) راجع كتاب (شكوى القرآن) ملحق قبس قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠) في تفسير من نور القرآن.

غير حكيم^(١).

فالعلاج يكون على مستويين:

المستوى الأول: عام، بمعنى كيف نحفز الناس على طاعة الله تبارك وتعالى عموماً وليس في الخمس فقط، ونشير فيهم الاستجابة لداعي الله تبارك وتعالى؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢)، ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ • وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الأحقاف: ٣١-٣٢)، وقد فصلنا القول في ذلك في فصل (ما هي الدروس المستفادة من طريقة القرآن في إصلاح البشرية) من كتاب (شكوى القرآن)، وفي محاضرات (فلنرجع إلى الله)^(٢).

وقلنا هناك: إن من الفروق بين الشريعة الإلهية والقوانين الوضعية أن الشرائع الإلهية تربي الإنسان من الداخل أولاً وتبني ذاته، لذا يندفع إلى التطبيق بلا رقابة

(١) بعض مناهج علم الأخلاق تركز على جانب المعلولات ولا تعالج العلة أو السبب لهذه الرذائل فمثلاً عندما يتكلم عن رذيلة من الرذائل فإنه يتناولها من جميع الجهات من حيث معنى الرذيلة ودمها في الأخبار وعلاجها إلا أنه لا يتطرق إلى بيان مناشئ هذه الرذيلة في النفس الإنسانية والنوازع التي تؤدي إلى ظهورها وكيفية إزالة هذه العلل والأسباب واجتناب المرض من أصله (فقد تجد أن سبب الغيبة مثلاً إما الحسد أو الأنانية أو الاستعلاء وكذلك تجد أن الغفلة وراء جميع المعاصي وهكذا) لذا ينبغي عدم الاكتفاء بمعالجة الأعراض الظاهرية للمرض كما أشير إليه بوضوح في كتاب (شكوى القرآن).

(٢) راجع: ملحق قبس قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ (النور: ٣١)، في تفسير من نور القرآن.

من الخارج ولا يحتاج إلى أي ضغط للطاعة والامتثال، بينما القوانين الوضعية تحتاج إلى فرض عقوبات وأجهزة مراقبة وردع، ومع ذلك يحاول الشخص بكل وسيلة التحايل والالتفاف عليها، خذ مثلاً الخمس، فإن المؤمن هو وحده يحاسب نفسه ويخرج ما عليه من حقوق ويأتي بكل سرور ليسلمها إلى الحوزة الشريفة أو يصرفها في مواردها، بينما يتهرب بكل الوسائل من الضرائب التي يفرضها عليه القانون، فهذا هو فرق أساسي بين الإسلام والحضارة المادية.

المحفزات التي تدفع المكلف نحو التطبيق :

وألخص لكم بعض هذه المحفزات التي يستثيرها الدين ليدفع المكلف نحو الاستجابة، مع تطبيقها على ما نحن فيه، وقد قسمتها هناك إلى ثلاث محاور نفسية وعقلية وقلبية باعتبارها مداخل الإنسان المتعددة ومنها:

١- إن نعم الله علينا كثيرة ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (النحل: ١٨)، سواء في أبداننا أو حياتنا والطبيعة التي من حولنا عموماً، ومن شأن كل عاقل أن يرد الجميل بالجميل ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠)، ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٧٧)، ولما كان الله غنياً عن عباده فيكون رد الجميل إليه بطاعته واستعمال نعمه فيما يرضيه تبارك وتعالى، ومن غير الإنصاف والمروءة أن نعصيه بالنعم التي من بها علينا ونبخل عليه بحقه، عن أبي جعفر (عليه السلام): (أن الله تعالى يبعث يوم القيامة ناساً من قبورهم مشدودة أيديهم إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يتناولوا بها قيد أنملة، معهم ملائكة يعيرونهم تعبيراً شديداً يقولون: هؤلاء الذين منعوا خيراً من خير كثير، هؤلاء الذين

أعطاهم الله فمنعوا حق الله في أموالهم^(١).

إن كل واحدٍ منا يحب أن تزيد النعم عليه وهي بيد الله سبحانه المنعم الحقيقي، وقد وعدنا سبحانه ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧)، وفي الحديث: (بالشكر تدوم النعم)^(٢)، ومن أشكال شكر النعمة أن تؤدي حق الله فيها ليزيدها الله تبارك وتعالى، وقال الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ) في حديث: (واستنزلوا الرزق بالصدقة)^(٣)، وعموماً فإن طاعة الله تبارك وتعالى سبب لإفاضة البركات: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦).

٢- إنه إذا أخبرنا إنسانٌ ثقة بأن حيواناً مفترساً في هذه الجهة فإننا نهرب بلا تردد في الاتجاه المعاكس ونحذر منه ونتخذ الإجراءات الواقية من الوقوع في الخطر، فإذا أكد هذا الخبر ثقة آخر ازداد استعدادنا لذلك وكنا أكثر حزمًا، وقد أخبرنا مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ومثلهم من الأوصياء والعلماء وكلهم ثقة أنه سيكون هناك يوم قيامة، يثاب فيه المطيع على طاعته، ويعاقب العاصي على عصيانه بنارٍ وقودها الناس والحجارة، أفلا يوجب هذا البيان المؤكد الحذر والابتعاد عن كل ما يورثنا في هذه النار المتأججة ولو احتمالاً؟ وقد وصفها الله تعالى بمشاهد مرعبة، وأخبرنا أنّ معصية الله سبحانه توقعنا فيها، وأن طاعته تورثنا جنةً عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر

(١) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة ، أبواب ما تجب فيه الزكاة ، باب ٦ ، ح ٤.

(٢) مستدرک الوسائل - الميرزا النوري: ٣٧٠/١٢.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة ، أبواب الصدقة، باب ٣/ ح ١.

على قلب بشر ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧).

٣- أن نسأل أنفسنا سؤالاً: ماذا يخسر الإنسان لو أطاع الله سبحانه واستقام على الشريعة؟ إنه لا يخسر شيئاً، بل على العكس فإنه يعيش ويتمتع بالحياة كما يفعل البعيد عن الله سبحانه، وفوق ذلك له المكاسب الدنيوية والأخروية التي يحققها له الإيمان بالله سبحانه والسير على شريعته، قال تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (النساء: ١٢٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٢)، وقد اتبع هذا الأسلوب الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال لأحداهم: (يا هذا إن كان ما تقول أنت - بأنه لا جنة ولا نار ولا حساب - حقاً فنحن وأنتم سواء، فإننا نأكل كما تأكلون وننكح كما تنكحون، وإن كان الأمر كما نقول - وهو كما نقول - هلكتم ونجونا)^(١)، وهو أسلوب لا يستطيع أن يرفضه أي عاقل، وقد جرّب الكثير ممن بدأوا بإخراج الخمس من أموالهم أن ثروتهم ازدادت، حتى أن بعضاً من غير الملتزمين بطاعة الله يخمسون من أجل زيادة الثروة، فأين الخسارة إذن!؟

٤- أن نلتفت إلى أن الله تعالى مطلع علينا ولا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وقد جعل على كل واحدٍ

(١) قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٢٤)، أصول الكافي - الشيخ الكليني: ٧٨/١، أنظر: قيس قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ﴾ (سورة النساء: ١٢٤) في تفسير من نور القرآن.

منا ملائكة يحصون الأعمال في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، وجعل الشهود على ذلك من أعضائنا التي نمارس بها حياتنا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ وَقَالُوا لَوْلَا جُئِدُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۖ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۖ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۖ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (فصلت: ٢٣-٢٤)، فإذا التفتنا إلى هذه الحقائق فسنكون دقيقين في تصرفاتنا وسنحسب ألف حساب قبل أن نورط أنفسنا في المعصية ومخالفة الشريعة، ومنها حبس الحقوق الشرعية وعدم إخراجها من المال.

٥- إن الإنسان الذي يمتنع عن إعطاء شيء من نفسه أو ماله لطاعة الله تعالى فإنه سيدفع أكثر منها في معصية الله وهو راغم، وستكون عليه حسرة يوم القيامة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦).

وأنقل لكم الحديث التالي عن الإمام الصادق (عليه السلام) وهو حجة دامغة في وجه كل من يمتنع عن أداء الحقوق الشرعية، قال (عليه السلام) في قول الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ (البقرة: ٢٦٧)، قال (عليه السلام): (هو

الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله عز وجل بخلاً - وقد عرفت البخيل قبل قليل - ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة الله أو بمعصية الله، فإن عمل فيه بطاعة الله رآه في ميزان غيره فرآه حسرةً وقد كان المال له، وإن كان عمل به في معصية الله قوّاه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله عز وجل^(١).

وقد وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) مثل هذا الرجل بقوله: (إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل جمع مالاً بمعصية الله فمات فورثه رجل دخل به الجنة)^(٢)، وهذا الحديث كافٍ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق:٣٧)، ﴿وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَاَعْيَتْ﴾ (الحاقة:١٢)، عن الصادق (عليه السلام) قال: (ما من رجل يمنع درهماً في حقه إلا أنفق اثنين في غير حقه، وما من رجل يمنع حقاً في ماله إلا طوّقه الله به حية من نار يوم القيامة)^(٣)، وعنه (عليه السلام) (من منع حقاً لله عز وجل أنفق في باطل مثليه)^(٤).

٦- إن من يطيع الله سبحانه ويتجنب معصيته يعيش لذة الانتصار على أعدى أعدائه، وهي نفسه التي بين جنبيه الأمانة بالسوء، وكلما كانت شهوة النفس واندفاعها للفعل قوياً كلما كان الترك أشد لذة، وكلما كانت رغبة النفس في الترك قوية كان الفعل أكثر لذة، مثلاً تعرض أمامك امرأة متبرجة قد أظهرت مفاتنها أو طالبة جامعية أو زميلة في دائرة تبرعت بإنشاء علاقة عاطفية غير

(١) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه، باب ٥/ح ٥.

(٢) نهج البلاغة، باب الحكم، رقم ٤٢٩.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة، باب ٦/ح ١.

(٤) نفس الباب، ح ٢.

مشروعة معك فتنتصر أنت على نفسك الطموحة إلى ذلك فتعيش لذة الانتصار بشكل لا يوصف، وهو ما أشار إليه الحديث: (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها لله تعالى أبدله الله نوراً وإيماناً يجد حلاوته في قلبه)^(١)، والمال من أقوى ما تتعلق به النفس، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ (آل عمران: ١٤)، وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦)، وقال الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (ما بلى الله عز وجل العباد بشيء أشد عليهم من إخراج الدرهم)^(٢)، لذا كانت لذة الانتصار على هذا العدو عظيمة تستحق أن يبذل المال بإزائها بلطف الله تعالى، عن الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عن آبائه (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) قال: قال رسول الله (ﷺ): إذا أراد الله بعبد خيراً بعث إليه ملكاً من خزائن الجنة فيمسح صدره ويسخى نفسه بالزكاة)^(٣).

المستوى الثاني: خاص، وذلك بدراسة وتحليل الأسباب التي تؤدي بالناس إلى الامتناع عن دفع الحقوق الشرعية ومن ثم وضع العلاج لها.

أسباب عدم دفع الناس الخمس:

ومن تلك الأسباب ما يلي:

١- الجهل بوجوب الخمس، فبعضهم لا يعلم بوجوبه أصلاً، وبعضهم يظن وجوبه على خصوص الموسرين، وقد رسّخت هذا الجهل الأجيال المتعاقبة من

(١) ميزان الحكمة: ٤/٩.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه، باب ٢/ح ١٤.

(٣) المصدر السابق، نفس الباب ح ١٦.

المسلمين بإعراضهم عن امتثال هذه الوظيفة وترفع العلماء عن المطالبة بها خشية سوء الظن بهم^(١).

٢- حملات التشكيك التي يمارسها أعداء الدين والمذهب ويروج لها المرتزقة والجهلة السذج بكل القنوات المتاحة، كالكتب والنشرات والصحف والمجلات وغيرها، فتارة يقولون بعدم وجوبه أصلاً وإنه لم يذكر في القرآن وإنه خاص بغنائم الحرب^(٢)، أو إنه خاص بزمان رسول الله (ﷺ)، وهم قبل غيرهم يعلمون زيف هذه الدعاوى، لكنهم يبتغون بذلك تقويض إحدى الركائز المهمة للدين والمذهب.

٣- سوء تصرف بعض الوسطاء والوكلاء في نقل الحقوق الشرعية، مما يقلل من الثقة بالدفع إليهم، إما لتوسّعهم في أمور المعيشة وترفهم، أو لعدم إيصالها إلى المرجعية المقصودة، أو لعدم نزاهتهم.

٤- النفس الأمّارة بالسوء التي تشحّ بإنفاق المال ومطلق عمل الخير،

(١) أضف إلى عدم وضوح لغة الرسائل العملية بحيث يصعب على المكلف فهم ما يجب عليه وما لا يجب.

(١) إن الذهاب إلى قصر وجوب إخراج الخمس، على خصوص غنائم دار الحرب، لا ينسجم مع خلود الإسلام وبقائه من ناحية عملية، واستمرار الدولة الإسلامية زمن قيامها، في تحمل الأعباء الضخمة، التي تترتب عليها تجاه الأمة وذلك من وجوه عدة أهمها:

أ. إن الحروب قد أغلقت أكثر أبوابها وانحصرت، وانحسر ظلها، فانحسر بذلك ما قد يترتب عليها، في حال انتصار المسلمين من غنائم.

ب. إن نتائج هذه الحروب، ليست مضمونة إلى جانب المسلمين في كثير من الأحيان. بل بالعكس فقد تكون نتائجها في غير صالحهم، فتكون الغنائم من نصيب أعداء الإسلام.

فالكثير من الناس يؤدي الفرائض التي لا تكلفه مالاً، أما التي تحتاج إلى بذل المال فيتردد فيها.

٥- الغفلة عن موارد هذا الحق الشرعي، ولو علم أنها تصرف في قضاء حوائج المؤمنين وتزويج شبابهم لتحسينهم من الحرام ومعالجة مرضاهم وشؤون الحوزة العلمية الشريفة وحفظ كياناتها ومدارسها الدينية التي أنجبت عبر التاريخ آلاف العلماء والمفكرين والكتّاب والخطباء الذين ساهموا في نشر الوعي الديني وحفظ المذهب الشريف والإسلام العظيم طيلة ألف وأربعمائة عام وكأنّ الدين نزل اليوم، ولو علم الإنسان ذلك لأدّى ما عليه من حقوق بكل سرور، إن كان غيوراً على دينه ومجتمعه ومخلصاً في التزامه.

٦- قلة الثقة بما عند الله، مما يجعله متمسكاً بما عنده من متاع زائل^(١).

هذه بعض الأسباب مما خطر في ذهني القاصر.

علاج عدم دفع الناس الخمس :

وإذا عرفت السبب أمكن التفكير في علاجه من خلال نقاط:

١- تصدي الحوزة الشريفة لبيان الأدلة الكافية على وجوب هذه الفريضة العظيمة، وشمولها لكل ما يستفيده المرء من مكسب، فيجعل له يوماً في السنة يحاسب فيه نفسه، فيستثني مؤونته الشخصية من مسكن وملبس ومأكل وأثاث

(١) قال تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقر: ٦٦) و﴿قُلْ أَذْكَاءَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيْرًا﴾ (الفرقان: ٥٥) و﴿وَلَا أُخْرَجُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ (الضحى: ٤).

لائق بشأنه وواسطة نقل، ثم يخمس الزائد إن وجد، وتوجد تفاصيله في الرسائل العملية للفقهاء^(١).

٢- الرد على الشبهات والشكوك التي يُلقِيها المضلّون في أذهان البسطاء والسذج، وإلفات الناس إلى المقصود الأساسي لهؤلاء والذي يموّهون عليه بهذه الشبهات.

٣- أن ينتصر المسلم على نفسه الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوى والانسياق وراء النفس من المرديات، فإنها أعدى أعدائك بميلها لاتباع الشهوات وتمردّها على الطاعة، فالمؤمن الشجاع من ملك زمام نفسه ليقودها إلى ما فيه النجاة ويستعين على قهر نفسه بما ذكرناه آنفاً من المحفزات.

٤- الالتفات إلى موارد صرف الخمس التي ذكرناها قبل قليل وتسليمه إلى الثقات الذين يضعون الحقوق في مواضعها، وإطلاع المكلف بنفسه أو مباشرة الصرف على المحتاجين بإذن الحوزة الشريفة، وسيرى نفسه مسروراً بمساهمته في هذه المصارف الجليلة التي وعد الله تعالى من ينفق ماله فيها الأجر الجزيل، والله يضاعف لمن يشاء.

٥- أن يعلم المكلف أنّ كل ما عنده هو مما رزقه الله تبارك وتعالى، والله غني عن العالمين، وإنما يريد بفرض هذه الواجبات المالية لبيتلي المؤمنين منه بلاءً حسناً، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، وليطهرهم ويزكّيهم ويحررهم من أسر الشهوات والأهواء، حتى يخلصوا الانقياد والطاعة له تبارك وتعالى، قال عز من قائل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

(١) التي ينبغي تبسيطها للمكلفين ليسهل فهمها ومعرفة التكليف الشرعي.

صَلَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿التوبة: ٣٣﴾، قال الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ):
 (إني لآخذ من أحدكم الدرهم وإني لمن أكثر أهل المدينة مالاً، ما أريد بذلك
 إلا أن تطهروا)^(١)، وقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة
 للفقراء، ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً، ولا استغنى بما
 فرض الله له)^(٢).

ومما يحسن الالتفات إليه أن من العوامل المهمة التي حفظت توازن
 مجتمعنا رغم الحصار^(٣) والضييق الذي يمر به منذ أكثر من عشر سنين هو ما
 يصرف على المحتاجين من مليارات الدنانير من الحقوق الشرعية.

٦- أن تتحلى الحوزة الشريفة والوكلاء والوسطاء بالورع والتقوى والثقة
 والأمانة وحسن مواسة الناس في الملابس والمأكل ومستوى المعيشة، خصوصاً في
 زمان العوز والفاقة كالذي نعيش فيه ويتأسوا بأمر المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) الذي رَقَّع
 مدرعته حتى استحيى من راقعها، فقيل له في ذلك وهو رئيس دولة مترامية

(١) وسائل الشيعة: كتاب الخمس، أبواب ما يجب فيه الخمس باب ١، ح ٣.

(٢) كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه، باب ١، ح ٦.

(٣) فرض مجلس الأمن الدولي منذ غزو صدام المقبور للكويت عام ١٩٩٠م قرارات ظالمة على
 العراق وشعبه ومنها الحصار الذي شمل حتى الغذاء والدواء، وتضرر الشعب العراقي بما لا يوصف
 ودفع ثمناً باهظاً واضطر لفعل كل شيء من أجل توفير لقمة العيش وإنهاء الاقتصاد، وارتفعت نسبة
 التضخم إلى أرقام فلكية حتى أصبح الدولار مساوياً لـ ٣٠٠٠ دينار عراقي بعد أن كان الدينار يُصْرَفُ
 بأكثر من ثلاثة دولارات، وبقيت رواتب موظفي الدولة عند ٤-٥ دولارات شهرياً، ولولا بقية من
 دين وأخلاق لأكل الناس بعضهم بعضاً.

الأطراف، قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (لكي لا يتبيخ بالفقير فقره)^(١) أي تضغط عليه الحاجة ولا يجد من يواسيه فيتمرد ويخرج عن طاعة الله تبارك وتعالى.

أن يحسن العبد الظن بالله تبارك وتعالى، فقد وعده أن يخلف عليه، قال رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة)^(٢)، وقال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة)^(٣)، وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ: ٣٦)، وقال الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (من يضمن لي أربعة بأربعة أبيات في الجنة: انفق ولا تخف فقراً، وأنصف الناس من نفسك، وأفش السلام في العالم، واترك المرء وإن كنت محقاً)^(٤).

الآثار الإيجابية المترتبة على دفع الحقوق :

ويضاف إلى كل ذلك ما ذكر من آثار إيجابية في الدنيا والآخرة تترتب على الإنفاق ودفع الحقوق الشرعية ومن نتائج سلبية تترتب على الترك، وأي أجر ذكر للتصدق فهو شامل بالأولوية لدافع الخمس والزكاة، لأن التقرب إلى الله بالفرائض أكثر بما لا يقاس من التقرب بالنوافل والمستحبات، وفي الحديث: (لا قربة للنوافل إذا أضرت بالفرائض)^(٥)، كما إننا ذكرنا أن الصدقة بمعناها العام تشمل الزكاة والخمس وكل إنفاق في سبيل الله.

(١) نهج البلاغة ، باب الحكم رقم ١٣٨.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ٤/٤٣/ح ٣.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه، باب ٢، ح ٩.

(٤) المصدر السابق، نفس الباب، ح ٨.

(٥) نهج البلاغة تحت الرقم ٣٩ من قسم الحكم.

ومن هذه الآثار الإيجابية قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١)، قال رسول الله (ﷺ) (داووا مرضاكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة)^(١)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (ما تلف مال في بر ولا بحر إلا بمنع الزكاة)^(٢)، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (إن الشحيح من منع حق الله وأنفق في غير حق الله)^(٣) وتممها بحديث آخر (حرام على الجنة أن يدخلها شحيح)^(٤) وعن رسول الله (ﷺ): (لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً)^(٥).

وشكى شخص إلى الإمام (عليه السلام) إنه يرى أحلاماً مفزعة في المنام فقال (عليه السلام): (إنك لا تؤدي الزكاة قال بلى أؤديها قال إذن لا تضعها في محلها)^(٦)، وقال الصادق (عليه السلام): (استنزلوا الرزق بالصدقة)^(٧) وقال (عليه السلام): (داووا مرضاكم بالصدقة وما على أحدكم أن يتصدق بقوت يومه، إن ملك الموت يدفع إليه الصك بقبض روح العبد فيتصدق فيقال له: رد عليه الصك)^(٨). وقال (عليه السلام):

(١) المصدر السابق، باب ١/ح ١٤.

(٢) المصدر السابق، باب ٣/ح ٩ من أبواب ما تجب فيه الزكاة.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه، باب ٥/ح ١٢.

(٤) المصدر السابق، نفس الباب ح ١.

(٥) المصدر السابق، نفس الباب ح ١٥.

(٦) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب المستحقين للزكاة باب ٤/ح ١، ٦.

(٧) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، باب ٣/ح ١.

(٨) المصدر السابق، نفس الباب، ح ٢.

(الصدقة باليد تقي ميتة السوء وتدفع سبعين نوعاً من أنواع البلاء)^(١)، وعن رسول الله (ﷺ): (إن الله ليربِّي لأحدكم الصدقة كما يرَّبِّي أحدكم ولده حتى يلقاه يوم القيامة وهو مثل أحد)^(٢)، وقال رسول الله (ﷺ): (صدقة السر تطفئ غضب الرب)^(٣) وعن أبي جعفر (عاشقته) قال: (البر وصدقة السر ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ويدفعان سبعين ميتة سوء)^(٤).

كيف نفهم فلسفة هذه الأحاديث؟

ويمكن فهم فلسفة هذه الأحاديث من ناحية اقتصادية واجتماعية ونفسية فحينما يقول (عاشقته): (استنزلوا الرزق بالصدقة) لأن انتشار الفقر يؤدي إلى ضعف القدرة الشرائية وتوقف عجلة الاقتصاد، فبدفع الحقوق الشرعية تتولد قدرة شرائية عند الناس فتتحرك عجلة الاقتصاد وتنمو الثروة.

وحينما يقول (عاشقته): (حصّنوا أموالكم بالزكاة) لأن الحاجة تدفع إلى السرقة وارتكاب الجرائم وابتزاز الأموال، فإذا قضينا على الفقر بدفع الحقوق الشرعية فسنسدّ باباً عظيماً للجريمة.

وحينما يقول (عاشقته): (داووا مرضاكم بالصدقة) لأن الأمراض والعقد النفسية والاضطراب وفقدان السعادة هي من أهم أسباب الأمراض، ومنشأها الرذائل النفسية كالطمع والحسد والاستئثار وحب الدنيا والحقد والجشع والكبر،

(١) المصدر السابق، باب ٥/ح ١.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، باب ٧، ح ٨.

(٣) المصدر السابق، أبواب الصدقة باب ١٣/ح ١.

(٤) المصدر السابق، أبواب الصدقة، باب ١٣/ح ٩.

فإذا طهر نفسه منها فإنه سيعيش في صحة وسلامة وسيكسب الاطمئنان النفسي الذي هو علاج مهم للأمراض.

ويجوز للمكلف أن يستأذن بصرف حقوقه مباشرة إلى المحتاجين لما في ذلك من إيجابيات كثيرة لأنه أحرص على وضع حقوقه في موضعها، ولما ورد من الثواب في تسليم المال إلى الفقير يداً بيد وأن يقبل المعطي يده بعد العطاء لما ورد من إنها تقع في يد الله تبارك وتعالى قبل أن تقع في يد الفقير وهو قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ٥٤)، وفيه روايات عديدة^(١) ولاستحباب مواساة المؤمنين وقضاء حوائجهم وإدخال السرور عليهم وإغاثة ملهوفهم^(٢) عن محمد بن عجلان قال: كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فدخل رجل فسألني فسألته كيف من خلفت من إخوانك، قال: (فأحسن الشاء وزكى وأطراً فقال له: كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم فقال: قليلة، قال: فكيف مشاهدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال: قليلة، قال فكيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم؟ قال: إنك لتذكر أخلاقاً قلما هي فيمن عندنا، قال: فقال: فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعة)^(٣)، وعن سعيد بن الحسن قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): أجيئ أحدكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه؟ فقلت: ما أعرف ذلك فينا، فقال أبو جعفر (عليه السلام): فلا شيء

(١) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، باب ٢٩.

(٢) راجع محاضرة ١٣ رجب ١٤٢٣ بعنوان (صفات المسلم في منظار أهل البيت (عليه السلام)).

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، باب ٢٧/ح ٣.

دور الحوزة في توعية المجتمع:

وتقع على الحوزة الشريفة مسؤولية عظيمة بأن تكون أهدافهم سامية، وهو نيل رضا الله سبحانه والقربى منه والزلقى لديه والعمل بكل ما يقرب الناس إلى الطاعة ويبعدهم عن المعصية، وأن يكونوا قدوةً حسنة للناس بأخلاقهم وأعمالهم وإن لم يتحدثوا بألسنتهم تطبيقاً للحديث الشريف (كونوا لنا دعاة صامتين)^(٢) وفي حديث آخر (كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً)^(٣)، فهم ورثة الأنبياء وأولى من يتأسى برسول الله (ﷺ) وأمير المؤمنين (عليه السلام) الذي يتأوه ويتضرع إلى الله سبحانه من أي تقصير محتمل في أدائه للمسؤولية ويقول (أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشار كههم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسله شغلها تقمهما)^(٤).

ويأمر أصحابه بمراقبة أفعاله ومحاسبته على تصرفاته وإن كان على رأس دولة واسعة ويقول لهم ما مضمونه (إن خرجت منكم بغير هذه القطيفة التي

(١) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، باب ٢٧/ح ٥.

(٢) مستدرک الوسائل - المحدث النوري: ٣١٠/٨/ح ٣.

(٣) الأمالي - الشيخ الصدوق: ٤٨٤.

(٤) بحار الانوار: ٣٤١/٤٠/باب/ح ٩٨/زهده وتقواه وورعه (عليه السلام).

جئتمكم بها من المدينة فأنا خائن^(١)، وهكذا مضى (ﷺ) طاهراً نقياً فإذا أردنا الفوز ببقائه (ﷺ) وصحبته فلا بد من التأسي به ولا نخدعنا العناوين البراقة والمواقع الاجتماعية الزاهية فإنها دنيا زائلة لا تسوى عند أمير المؤمنين (ﷺ) شمع نعلٍ بالٍ، ولا نكون شيعته حقاً إلا إذا شاركنا الناس في معاناتهم وبدلنا الوسع في قضاء حوائجهم وتفهم مشاكلهم خصوصاً في هذا الظرف العصيب.

ولنتذكر دائماً أن هذه المواقع التي نحن فيها أمانة في أعناقنا، فهل أديناها إلى أهلها وهو الإمام المهدي (ﷺ) ولا يعتبر أحداً أن هذه الأموال غنيمة فاز من استكثر منها بل هي مسؤولية يجب الخروج من عهدتها ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (الصفات: ٢٤)، وحينئذٍ يكون في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وفي الشبهات عتاب فأى هذه النتائج الثلاث تتحملها في ذلك اليوم العصيب يوم القيامة، وأي تقصير في أداء هذه الأمانة يكون خيانة لله والله لا يحب الخائنين قال تعالى ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (المائدة: ١١٩)، وماذا يضرنا لو كنّا صادقين في أقوالنا وأفعالنا وتخلينا عن كل ما لا يليق بنا حتى من المباحات التي ليس فيها حرمة شرعية إلا إن فيها منقصة أخلاقية.

(١) عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: دخلت على علي بن أبي طالب (ﷺ) بالخورتق وعليه قטיפه وهو يرعد من البرد، فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل بنفسك هذا، فقال: أي والله لا أرزا من أموالكم شيئاً وهذه القטיפه التي أخرجتها من بيتي أو قال من المدينة، (تاريخ دمشق - ابن عساكر: ٤٨١/٤٢، البداية والنهاية - ابن كثير: ٤/٨).

نسأل الله جلّت آلاؤه العصمة والتسديد في القول والعمل وأن يعيننا على طاعته ويجنبنا معصيته إنه ولي النعم.

القبس/٧١

سورة الأنفال: ﴿٤١﴾

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾

موضوع القبس: يوم بدر كان فرقانا بين الحق والباطل

وصف الله تبارك وتعالى يوم بدر بالفرقان في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّمَيِّزِ الْجُمُعَانَ﴾ (الأنفال: ٤١)، لأن النصر الذي من الله به تبارك وتعالى على عباده المؤمنين في معركة بدر كان فيصلاً فرّق بين الحق والباطل: الحق المتمثل بعقيدة الإسلام والانقياد لله تبارك وتعالى فيما يأمر وينهى وإقامة نظام الحياة على أساس شريعته المباركة، والباطل المتمثل بعبادة الأهواء وطاعة الطواغيت والانسياق وراء الشهوات واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله تبارك وتعالى. فأعزّ الله تبارك وتعالى الحق وجنده ونصرهم وأخزى الباطل وجنده وخذلهم.

ليس ذلك فحسب وإنما كان يوم بدر فرقاناً في تاريخ الإسلام والمسلمين فانتقلوا من مرحلة الخوف والاستضعاف والتشتت إلى مرحلة القوة والعزة والمنعة والدولة وانطلق المسلمون بعدها لبنوا حضارة البشرية كلها.

وكان فرقاناً ميّز أصحاب رسول الله (ﷺ) بين من حمل الإيمان في قلبه واطمأنت به جوانحه وثبتت عليه جوارحه فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وبين من كان الإيمان عنده لقلقة لسان وطقوس سطحية يؤديها فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون.

وكان فرقاناً بين فهمين للعوامل الحقيقية للنصر فبعد أن كان الاعتقاد بان الفوز حليف الكثرة العددية والقوى المادية المتنوعة حتى قال قائلهم ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٩)، أصبح معيار النصر هو الإيمان والصبر والثبات على الحق فتهاوى جبروت قريش وعددها وعدتها بين إقدام المسلمين المعدمين إلا من النزر اليسير قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (آل عمران: ١٢٣).

هكذا كان يوم بدر يوم فرقان على جميع الصُّعد في معركة العقيدة، معركة تنزيل القران أي على مستوى الإيمان به والتصديق بما انزل الله تبارك وتعالى على نبيه (ﷺ) وكان الرسول الأكرم (ﷺ) هو قائد هذه المعركة.

معركة التأويل:

ثم كانت حاجة لمعركة أخرى تلتها على مستوى السلوك والتطبيق لهذه التعاليم هي معركة التأويل أي الالتزام بحقيقة ما أنزل على رسول الله (ﷺ) وعدم تحريفه عن حدوده والتصرف في الشريعة تبعاً للأهواء والمصالح والاستحسانات، وكان قائد هذه المعركة أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) إذ قال فيه رسول الله (ﷺ) (وإنه المقاتل على التأويل إذا تركت سنتي ونبذت، وحُرِّف كتاب الله، وتكلم في الدين من ليس له ذلك، فيقاتلهم علي (عَلَيْهِ السَّلَامُ) على إحياء دين الله عز وجل)^(١) وروي عن أبي جعفر الباقر (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أنه ذكر الذين حاربهم علي

(١) الإرشاد للمفيد: ١/١٢٤.

(عَلَيْهِ السَّلَامُ) فقال: (أما إنهم أعظم جرماً ممن حارب رسول الله ﷺ)، قيل له: وكيف ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: أولئك كانوا جاهلية وهؤلاء قرأوا القرآن، وعرفوا أهل الفضل فأتوا ما أتوا بعد البصيرة) (١) ولما سأل علي (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فقال: يا رسول الله علي ما أقاتل القوم؟ قال: علي الإحداث في الدين) (٢).

فلم تكن هذه المعركة تنفك عن تلك بل أن علياً لو لم يقاتل على التأويل لما بقي التنزيل ولحرف الدين وانتهى كل شيء كما كانت نتيجة الديانات السابقة لأن كلمات التنزيل تبقى مجملة وعرضة للتلاعب والتحريف إذا لم توضع النقاط على الحروف فكان علي (عَلَيْهِ السَّلَامُ) تلك النقطة التي تحركت على حروف كلمات التنزيل فأوضحت معانيها وثبتت حدودها وصانعتها من عبث وتحريف أهل الأهواء والمصالح، لذا قال أمير المؤمنين في حرب صفين (والله ما وجدت من القتال بُدأً أو الكفر بما أنزل على محمد ﷺ) (٣).

وكان في حرب التأويل يوم فرقان كيوم بدر ذلك هو يوم الزهراء (عَلَيْهَا السَّلَامُ) حيث وقفت (عَلَيْهَا السَّلَامُ) في مسجد أبيها (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وأصحابه منصتون وهي تثبت الحق وتعيده إلى نصابه بحجج بالغة وتدفع عنه التأويل والالتفاف على النصوص المباركة.

يوم الدفاع عن الإمامة:

كان يوم الزهراء فرقاناً أوضح معالم وصفات الإمام الحق وميزته عن

(١) مناقب آل أبي طالب: ١٩/٣.

(٢) الأمالي - الشيخ الطوسي: ٥/٥٠١ ح ٥

(٣) مناقب آل أبي طالب: ١٨/٣.

المتقمص لها ومن كلماتها سلام الله عليها (وما الذي نقموا من أبي الحسن
 (عليه السلام)؟! نقموا والله نكير سيفه، وقله مبالاته لحتفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته،
 وتممره (أي غضبه) في ذات الله، والله لو ما لوا عن المحجة اللائحة، وزالوا عن
 قبول الحجة الواضحة لردهم إليها، وحملهم عليها، ولسار بهم سيراً سَجُحاً (أي
 سهلاً) لا يكلم حشاشه، ولا يكلُّ سائره، ولا يملُّ راكمه، ولأوردهم منهلاً نَميراً،
 صافياً، رويأً، تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطاناً، ونصح لهم سرأً
 وإعلاناً، ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل، ولا يحظى منها بنائل، غير ريّ الناهل،
 وشبعة الكافل، ولبان لهم: الزاهد من الراغب والصادق من الكاذب ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ
 الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا
 فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦)، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا
 وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾
 (الزمر: ٥١))^(١).

الزهراء (عليها السلام) الفرقان الحقيقي:

وكان يوم الزهراء (عليها السلام) فرقاناً لتمييز المنقلبين على الرسالة من الثابتين
 عليها الشاكرين من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
 مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى
 عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

ومن ذلك اليوم تميّز في تاريخ الإسلام ختان الأول مستقيم ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ (هود: ١١٢)، يمثل نقاوة الإسلام وأصالته، وخط انحرف عن جادة الصواب، وكلما طال الزمن ازداد الانحراف والابتعاد عن الخط الأصيل حتى صار خلفاء المسلمين كما يسمّونهم يشربون الخمر على منابرههم هذا ولا زال أصحاب رسول الله (ﷺ) أحياء.

وكانت فاطمة فرقاناً يميّز الحق عن الباطل إذ قال فيها رسول الله (ﷺ) (فاطمة يرضى الله لرضاها ويعضب لغضبها)^(١)، فما رضيت عنه فاطمة فهو حق وما غضبت عليه فهو باطل لأنها معصومة وممن عرفت الله تبارك وتعالى فعرفت ما يرضيه وما يسخطه وما يصدر منها إلا ما يوافق رضا الله تبارك وتعالى.

وما أحوجنا اليوم إلى هذا الفرقان ليميّز لنا الحق من الباطل، والهدى من الضلال في كل عقيدة أو دعوة أو فكرة.

وما أحوجنا إلى هذا الفرقان ليفرّق لنا بين الصحيح والخطأ في آرائنا وتصوراتنا.

وما أحوجنا إلى هذا الفرقان ليميّز لنا السلوك والتصرف الذي يرضى الله تبارك وتعالى من الذي يسخطه حيث اختلطت الأوراق وكثر المدّعون واشتبهت الأمور.

اجعلوا الزهراء (عليها السلام) نصب أعينكم:

فاجعلوا الزهراء (عليها السلام) نصب أعينكم فيما يصدر منكم من فعل أو قول أو

(١) الاحتجاج - الطبرسي: ١٠٣/٢.

موقف أو فكرة تعتقدونها في عقولكم أو ضميمة تضمرونها في قلوبكم، واسألوا أنفسكم عن كل ذلك فحينما لا تلتزم المرأة بحجابها أو لا يؤدي الشاب الصلاة لربه أو لا يدفع التاجر خمس أمواله، أو يقصّر المسؤولون في خدمة شعبهم أو يقوم أحد بتصرف من دون الرجوع إلى المرجعية الرشيدة، فاجعلوا الزهراء (عَلَيْهَا السَّلَامُ) حكما عليكم في خلواتكم هل ترضى بذلك أم تسخط فإن رضاها رضا الله تبارك وتعالى وسخطها سخط الله تبارك وتعالى.

التقوى فرقان القلب:

وإذا سألتكم كيف ندرك ذلك؟ وكيف ينبج نور الفرقان هذا في قلوبنا حتى نستطيع به هذا التمييز، فإن الله تبارك وتعالى يجيبكم من قبل أن تسأله تفضلاً منه وكرماً، قال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال: ٢٩)، إنها تقوى الله تبارك وتعالى التي تفجر ينابيع المعرفة في القلب، لأن التقوى تزيل تأثير الهوى الذي يصدّ عن الحق ويحجب القلب عن رؤيته بما يجعل من الحجب فتعمى القلوب التي في الصدور، قال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (إن أخوف ما أخاف على أمتي الهوى وطول الأمل، أما الهوى فإنه يصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، وهذه الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وهذه الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فإن استطعتم أن تكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فافعلوا، فإنكم اليوم في دار عمل ولا

حساب وانتم غداً في دار حساب ولا عمل^(١).

إن القلب ما لم يعمر بالتقوى وينفض عنه غبار الهوى وأغلال الشهوات لا يمكن أن يهتدي إلى الحق ولو أقمت له ألف دليل ﴿وَلَسِينَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ (البقرة: ١٤٥)، لأن الدليل مهما كان مفحماً ومسكناً فإنه لا يكون مؤثراً إذا لم تسكن إليه النفس ويطمئن به القلب.

إن من لا يمتلك هذا الفرقان يتخبط ويسير على غير هدى ويضل نفسه والآخرين ولا يميز بين ما يضره وما ينفعه ولا بين العدو وغيره كالثور المستعمل في حلبات مصارعة الثيران يجعل همه في نطح قطعة القماش الحمراء غافلاً عن عدوه المصارع الذي يطعنه بالخناجر حتى يصيب مقتله.

(١) الكافي: ج ٨/ ص ٥٨.

﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

أهم قضايانا: أن نستحضر الله تعالى في وجدانا

من أهم الأهداف التي نسعى إليها والقضايا التي يجب أن نهتم بها ونكرس لها اوقاتنا هي كيف نجعل الله تعالى حاضراً في وجدانا وتنبض به قلوبنا ونصدق فعلاً أنه شاهد علينا ولا نغيب عن نظره سبحانه وهي الحالة التي أوصى النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أبا ذر (رضوان الله تعالى عليه) بالوصول إليها (يا أبا ذر اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(١).

أما أن نؤمن به تعالى نظرياً وفي عقولنا واذهاننا فهذا وحده لا يكفي، لذلك تجد نبي الله تعالى إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَام) يطلب هذا الاطمئنان القلبي من الله تعالى رغم إيمانه العقلي التام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَظْمِنَ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

والشاهد على عدم كفاية الايمان العقلي وحده انك تجد الكثيرين ممن يحملون هذا المستوى من الاعتقاد لكنه لا ينعكس على سلوكهم وتعاملاتهم واخلاقهم فهم يتبعون أهوائهم وعصبياتهم وتحزباتهم ويطيعون ساداتهم وكبراءهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

ينقل عن أحد مراجع الدين وهو من أهل المعرفة (قدس الله نفسه) أنه سأل

(١) مكارم الأخلاق - الطبرسي: ٤٥٩.

الحاضرين لديه: هل حقاً توجد جنة ونار وحساب؟ فقالوا له: مثلك من يسأل هذا السؤال وقد تعلمنا العقائد الحقّة منك؟ فبيّن وجه السؤال وحاصله أنني لا أرى لهذا الاعتقاد أثراً في حياة الناس حتى بدا كأنه وهم وليس حقيقة وهذا وجه قول الإمام الصادق (عليه السلام) (ما خلق الله عز وجل يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت)^(١) لأن الجميع متيقنون من ملاقات الموت عاجلاً أو آجلاً لكن لا أحد يظهر على عمله الاستعداد لهذا الآتي الا القليل.

ولذا تجد الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تركز على الاكثار من ذكر الله تعالى والمواظبة عليه وعدم الغفلة عنه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤١) وليس المطلوب منه مجرد تحريك اللسان وانما استشعار كوننا بمحضر من الله تبارك وتعالى وانه شاهد علينا وناظر الينا في جميع احوالنا من السر والعلن وأنه وحده تعالى المؤثر في الخلق ولا تعمل الأسباب الاخرى الا بإذنه، وما يترتب على هذا الحضور من آثار المراقبة وإحسان العمل واجتناب المعاصي والذنوب والتوكل عليه وحده والطلب منه وتعلق الآمال به بفضل الله تعالى وكرمه.

إن ذكر الله تعالى يمكن أن يكون من خلال إثارة جوانب عديدة بحسب اسمائه الحسنی فيمكن ان تناوله من جهة عظمة الله تعالى ببيان عظمة خلقه أو تناوله من جهة حكمة الله تعالى ببيان لطيف صنعه أو تناوله من جهة كرم الله تعالى ورحمته ببيان سعتهما أو تناوله من جهة حلمه ومغفرته وعفوه وهكذا،

(١) من لا يحضره الفقيه: ٥٩٦/١، الخصال: ١٤.

بلحاظ سائر الأسماء الحسنى، وهذا التنوع يكون بلحاظ استحقاق الشخص ومحط اهتمامه والباب الذي تدخل منه إلى قلبه، فقد يكون عالماً مادياً تريد هدايته أو شاباً مذنباً أو جاهلاً ساذجاً، أو مغترباً بالدنيا وغير ذلك من الحالات، فلكل واحد منهم ما يناسبه من الخطاب.

ولعل الاجدى والأكثر تأثيراً في هذا المجال تحبيب الله تعالى إلى القلوب وقد ذكرت الروايات لمن يعمل على ذلك أجراً عظيماً فقد روي عن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قوله (إني لأعرف ناساً ما هم انبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمنزلتهم يوم القيامة: الذين يحبون الله ويحبونهم إلى خلقه، يأمرونهم بطاعة الله فاذا أطاعوا الله أحبهم الله)^(١).

وقد ذكرنا في قبس سابق^(٢) عدة أساليب لتحبيب الله تعالى إلى خلقه منها تذكيرهم بنعمه تبارك وتعالى، روي عن الإمام الباقر (عَلَيْهِ السَّلَام) أنه قال (أوحى الله تعالى إلى موسى (عَلَيْهِ السَّلَام) أَحْبَبْنِي وَحَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي، قال موسى (عَلَيْهِ السَّلَام) يا رب إنك لتعلم أنه ليس أحدٌ أحبَّ إليَّ منك فكيف لي بقلوب العباد؟ فأوحى الله إليه: فذكركم نعمتي وآلائي فأنهم لا يذكرون مني الا خيراً)^(٣).

لقد كان المرجع الشهيد السيد محمد الصدر (قدس الله نفسه الزكية) مهتماً بهذه القضية أيما اهتمام وعندما أقام صلاة الجمعة المباركة انتقد صريحاً الطريقة السائدة لدى الخطباء والمتحدثين من الابتداء بسطر واحد فقط يضم الحمد لله

(١) مجمع الزوائد للهيتمي: ١/ ١٢٦.

(٢) راجع: قبس قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٤١)، في تفسير من نور القرآن.

(٣) بحار الأنوار: ٣٥١/١٣، ٣٨/١٤.

تعالى والصلاة على النبي وآله ثم الدخول في سائر المواضيع الدينية، وكان يعتقد بلزوم تخصيص حصة كافية لذلك فكان يتدئ بمقطع من الادعية الشريفة التي تعمق هذا الايمان في قلوبنا ووجداننا.

ومن يتأمل في رسائله المنشورة في كتاب (قناديل العارفين) يجد هذا المعنى حاضراً والتأكيد على الذكر القلبي أكثر من اللساني، وذكر صوراً للذكر القلبي منها (التفكير في شأن الفرد أمام خالقه من القصور والجهل والذنب والتقصير وحسن الظن به تبارك وتعالى وكونه محل لطفه ونعمه سبحانه ونحو ذلك)^(١).

أيها الأحبة: إن احياء هذا التفاعل الوجداني والعملي مع الله تبارك وتعالى هو أهم قضية في حياتنا وهو مفتاح السعادة والخير وبه صلاح الأمة ونجاتها مضافاً إلى ما ورد في الرواية السابقة من المنزلة العظيمة فلا تقصروا فيه وهي مسؤولية الجميع خصوصاً الخطباء والمبلغين والكتّاب والمثقفين والمتحدثين، ولا ثمرة في أي عملية إصلاحية مالم تستند على هذا الأساس الوثيق. اعاننا الله تعالى على طاعته ووقفنا لما يحب ويرضى إنه ولي النعم.

(١) قناديل العارفين: ١٦٧.

﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾

موضوع القبس: التنازع يؤدي الى الفشل

درس في الالفة والاخوة من البعثة النبوية المباركة:

الآية تنهى المؤمنين عن التنازع والتخاصم فيما بينهم وتحذرهم، بأن عاقبة هذا التنازع هو الفشل والضعف والانهازم لأنهم سينشغلون بهذا الصراع الداخلي عن الاستعداد لمواجهة الأعداء وسينهك قواهم وسيفقدون الثقة بأنفسهم ويحطم شخصياتهم ويذهب بحرماتهم وكراماتهم لأن كلاً من الطرفين المتنازعين يريد أن يتغلب على الآخر بأي ثمن فيبذل طاقته في تسقيط الآخر والبحث عن عيوبه ونقائصه وإظهارها للآخرين لكي يثبت أحقيته وغلبته، فيسقط الجميع بهذا الانتقاص المتبادل ويفشلون.

في معنى ذهاب ريحهم:

ويؤدي الفشل الى ذهاب ريحهم أي عزتهم وقوتهم وغلبتهم وتسير الامور على غير ما يريدون، وفي التعبير عن القوة بالريح رمزية وكناية دقيقة عن هذا المعنى لأن الريح هي التي ترفع الأشعة وتعطي القدرة لاندفاع السفن في البحار فإذا توقفت الريح فإن السفن تعجز عن الحركة ولم يتحقق الوصول الى الهدف المطلوب، كذلك فإن الريح تجعل الأعلام والألوية ترفرف مرتفعة في ساحة الحرب فتشعر بالقوة فإذا ذهب الريح انتكست الأعلام وخارت القوى.

حقائق قرآنية تؤسس للنظام الحضاري:

هذه واحدة من الحقائق القرآنية التي تؤسس لنظرية سياسية واجتماعية لأنها تشخص سبب انهيار الدول وتفكك المجتمعات والشواهد التاريخية كثيرة في كل العصور ولعل أوضحها هزيمة المسلمين في الاندلس وانحسار دولة الإسلام عن تلك الأرض الاوربية بعد سلطة دامت حوالي ثمانمائة عام حينما انقسم المسلمون تبعاً للامراء وملوك الطوائف وتنازعوا وأصبح بعضهم يتآمر على بعض ويستقوي بالأعداء على اخوته.

ولا يختص الفشل وذهاب الريح والقوة بالجانب المادي وما يتعلق بالدنيا، بل تذهب القوة المعنوية أي روح الايمان وطمأنة القلب أيضاً، فتخسر الامة ريحها ورؤوحها ورؤوحها لان التنازع يوقع صاحبه في الكبائر من اجل تحقيق الغلبة فيتورط في الغيبة والكذب والبهتان والافتراء والتجسس على خصمه ليضعفه وهذه كلها من الكبائر الموبقة، ويبرر لنفسه المداهنة والسكوت عن الباطل عند من يريد الاستقواء به على خصمه وينشغل تفكيره بالمجادلات والمنازعات عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة وهو من فعل الشيطان بهم وهكذا يذهب في منزلق خطير نحو الهاوية.

وهذه الامور مجرّبة ومعروفة في كل المنازعات مهما صغرت دائرتها او اتسعت كالخلاف بين الزوجين أو بين العائلة الواحدة على الميراث مثلا او النزاع بين عشيرتين أو حزبين سياسيين أو بين جماعتين أو بين مقلدي المرجعيات الدينية المتعددة، او بين طائفتين وغير ذلك، وهكذا يستهلك المجتمع الواحد قوته وامكانياته في هذه النزاعات ويفسح المجال واسعا لخصمه ليستحوذ على حقوقه

التي فرط فيها.

روى الإمام الباقر (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (من) لاحى - اي خاصم ونازع - الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته، ثم قال (صلى الله عليه وآله) لم يزل جبرائيل ينهاني عن ملاحظات الرجال كما ينهاني عن شرب الخمر وعبادة الاوثان (١)، وروي عنه (صلى الله عليه وآله) قوله: (لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يدع المرء وان كان محقا) (٢) وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (من ترك المرء وهو محق بُني له بيت في اعلى الجنة، ومن ترك المرء وهو مبطل بُني له بيت في رِبْض الجنة) (٣) - اي ما حولها خارج عنها - وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (اياك والمرء فانه يحبط عملك، واياك والجدال فانه يوبقك، واياك وكثرة الخصومات فانهما تبعدك عن الله) (٤) وعن الإمام الهادي (عليه السلام) قال: (المرء يفسد الصداقة القديمة ويحلل العقدة الوثيقة - كالعلاقة الزوجية او القرابة -، وأقل ما فيه أن تكون فيه المغالبة، والمغالبة أسَّ اسباب القطيعة) (٥).

الحل الإسلامي لمشكلة النزاع:

وبالعودة الى الآية الكريمة فإنها تعطي الحل لحسم النزاع وانهاؤه وهما أمران كفيلان بازالة اسباب النزاع ومنعه من أصله، وبتركهما يحصل التنازع وهما:

(١) امالي الطوسي: ٥١٢ المجلس ١٨ / ح ١١١٩.

(٢) كنز العمال: ج ٣ / ٦٤٦ / ح ٨٣١٨.

(٣) بحار الأنوار: ١٤٠ / ٢ / ح ٥١.

(٤) تحف العقول - ابن شعبة الحراني: ٣٢٠.

(٥) أعلام الدين في صفات المؤمنين، - الحسن بن محمد الديلمي، ص ٣١١.

١- التحاكم الى علماء الشريعة في كل اختلاف والتسليم والاذعان لحكمها سواء كان لمصلحته أو على خلافها، ولذا ابتدأت الآية بالأمر بطاعة الله تعالى ورسوله (ﷺ) وطاعة القيادة الحقّة التي جعلها الله تعالى حجة على عباده، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩) فالالتزام بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله (ﷺ) والرجوع الى القيادة الحقّة هما الضمان من وقوع التنازع او الانجرار اليه بسبب الاختلافات فالآية تشير الى سبيل تحقيق وحدة المسلمين ومنع تشرذمهم وهو ما عبرت عنه الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (ع) بقولها (وطاعتنا نظاما للملة، وإمامتنا أمانا من الفرقة)^(١).

وبتعبير آخر إن الخلاف بين الناس يمكن أن يحصل بسبب اختلاف الفهم أو النوايا او بسبب تدخل الآخرين والعوامل الخارجية ونحو ذلك، وهو بهذا المقدار يبقى ضمن الاطار الطبيعي مادام المختلفون عازمين على أن يعودوا الى حكم الشريعة وحاكمها والقيادة الشرعية الرسالية ليفصل بينهم وعليهم التسليم له وان يكون مبتغاهم دائما معرفة الحق واتباعه، فالتنازع المذموم انما يقع من نقطة الابتعاد عن حكم الشريعة وأوامر القيادة الرسالية الحقّة والتشكيك فيها والتمرد عليها، ومن نقطة اتباع الاهواء والانانيات والتعصب بحيث يجعل هواه وارادته هي المتبعة والحاكمة في الاختلاف وحينئذ يقترن به الشيطان ويسوّل له ان الرضوخ

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١/١٣٤.

للحق هو هزيمة واهانة واذلال بينما الصحيح هو ان الحق احق ان يتبع وطالبه هو الغالب دائما.

٢- الالتزام بالصبر لأن الاحتكام الى الشرع والعمل بالتوجيهات الشرعية على خلاف هوى النفس يحتاج الى مجاهدة ومصابرة فيامرنا الله تعالى بالصبر ويعدنا باحسن الجزاء وهو ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ معهم مطلقاً أي في كل الأحوال وفي الدنيا والاخرة، وكفى بهذه المعية حافزاً ودافعاً للصبر على القيام بما يريد الله تبارك وتعالى.

الفشل والانهزام:

والآية صريحة بان التنازع يؤدي الى الفشل، لكن الاستفادة من غير موضع عكس ذلك أي أن الفشل هو سبب التنازع، قال تعالى فيما يتعلق بواقعة أُحُد ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران:١٥٢) وقال تعالى في معركة بدر ﴿وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (الأنفال:٤٣) فالعلاقة بين الفشل والتنازع جدلية تلازمية حيث يؤدي كل منهما الى الاخر بمرتبة من المراتب، وقد اتضحت صورة اداء التنازع الى الفشل.

اما ان الفشل يؤدي الى التنازع فواضح ايضاً لسببين على الاقل:

١- ان التنازع لم يحصل الا عندما استسلم لهواه واطماعه وفشل في مجاهدة نفسه والالتزام بما يريد الله تبارك وتعالى كالذي حصل في معركة أُحُد حينما اتبعوا أهواءهم وعصوا وصايا رسول الله (ﷺ) وتركوا مواقعهم لكي

يشار كوا إخوانهم في جمع الغنائم ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ فحصل الفشل ثم التنازع كما في آية سورة آل عمران المتقدمة.

٢- إن الفاشل لا يريد أن يعترف بفشله ولا يحمل نفسه المسؤولية حتى يعالج الاسباب وانما يلتجأ الى التنازع ليغطي فشله بالتخاصم والتنازع مع الآخرين واطهار انهم فاشلون، اي انه بدل ان يرتقي الى مستوى الناجحين يعمل الى انزال الناجحين الى مستواه الفاشل، وأتذكر هنا مثلاً طريفاً من الواقع فحينما كنا صبياناً وكان بعض أصدقائنا يلعبون كرة القدم فإذا فاز فريقهم عادوا فرحين مستبشرين، وإن خسروا رجعوا يتلاومون ويُحمّل بعضهم الآخر مسؤولية الخسارة ويبحث كل واحد عن خطأ وتقصير الآخرين، فأدى الفشل هنا الى التنازع اما عند الفوز فلا نزاع بينهم.

نموذج معاصر للفشل من أثر التنازع:

وهكذا في كل المجالات واسوء مثال لهذه الحال السياسيون المتصدرون للمشهد فانهم بسبب فشلهم الذريع في اداء مسؤولياتهم امام الشعب وانشغالهم بمصالحهم الشخصية وسرقة قوت الشعب فانهم يغطون على فشلهم بالمخاصمات والجدل العقيم وتبادل الاتهامات من دون ان يحلّوا اي مشكلة، ويؤدي بهم هذا التنازع الى فشل جديد وهكذا.

فالأزمة في العراق اليوم ليست ازمة مالية كما يعلنون لان مدخولات العراق الحالية تناهز ٥٠ مليار دولار أو أكثر وهي كافية لمثل سكان العراق، ولا أن سببها وجود الاجندات الخارجية ولا غيرها وان كان لكل منها شيء من التأثير، وانما سبب خراب العراق وانهيار الدولة حتى اصبحت نهباً للعابثين والطامعين

والحاقدين هو فشل المتصدين وسوء ادارتهم وتنازعهم فيما بينهم على تحقيق مآربهم الشخصية والفئوية، فغطّوا فشلهم بالتنازع وادّى تنازعهم الى الفشل.

ولدى التأمل فان قوله تعالى ﴿فَتَفَشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ يكشف بالعلاقة العكسية ومن بعض الوجوه عن أن المجتمع والبلد الذي يعاني من التنازع وذهاب القوة والمنعة تحكمه قيادات فاشلة لا تستحق منح الثقة بها.

إن من أعظم النعم التي من الله تعالى بها على الامة بالبعثة النبوية الشريفة هو التاليف بين القلوب ونبد الخلافات والنزاعات قال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وقال تعالى ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٢-٦٣).

فلنستذكر هذه النعمة العظيمة ولنحرص عليها كما أمرنا الله تبارك وتعالى، ولنتعاهد في هذا اليوم المبارك على عدم الوقوع في التنازع والتقاطع والتخاصم قدر الامكان بفضل الله تبارك وتعالى.

القبس/٧٤

سورة الأنفال: ﴿٦١﴾

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

موضوع القبس: إعداد القوة في السيرة النبوية المباركة

﴿وَأَعِدُّوا﴾ صيغة أمر وإلزام مثل ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وغيرها، والإعداد للشيء تهيئة المقدمات واللوازم التي يتطلبها تحقيق ذلك الشيء، كإعداد السلم للصعود والماء للغسل وإعداد لوازم السفر قبل الشروع فيه وهكذا.

﴿لَهُمْ﴾ مجملة فلم يحدد الذين يتم الإعداد والاستعداد لهم بغض النظر عن إعادة الضمير لسياق الآيات السابقة لإمكان النظر إلى الآية مستقلاً، وبذلك ترك الأمر مفتوحاً لكل من بينت الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة انه عدو تلزم مواجهته والاستعداد له سواء كان عدواً مادياً محسوساً كالمجرمين والطواغيت والمفسدين وكالقوى الظالمة المعتدية أو غير محسوس لكنه يدرك بالوجدان والبصيرة كالشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

والعدو الاول قد يكون معروفاً معلوماً معلناً بعداوته وقد يكون متخفياً كما في بقية الآية ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَأَتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ مثل المنافقين المتظاهرين بلباس الدين، وقد لا يكون عدواً فعلياً الآن ولكنه سيكون كذلك لاحقاً لان الاختلاف في الافكار والايديولوجيات والطبائع وتعارض المصالح سنة جارية بين بني البشر فيؤدي ذلك الى الصراع والتنازع إلا ما رحم ربي، فالأمر في الآية واسع و شامل إذ يجب أن يكون الاستعداد تاماً بلحاظ كل هذه الاحتمالات.

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي بكل ما تستطيعون من الإعداد وكل ما تسمح به قدراتكم وقد يكون شيء الآن فوق طاقتكم لكنكم إذا عملتم بكل ما تستطيعون الآن فستصبح لكم القدرة حينئذٍ على إعداد ما لم تكن تستطيعونه اليوم، نظير ما ورد في تحصيل التقوى قال تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران: ١٥١) وهو أمر متعذر على الناس فجاء قوله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦) ليعين وسيلة الوصول الى تلك النتيجة فالآية الأولى استراتيجية تبين الهدف الذي يراد الوصول اليه والثانية تكتيكية في المصطلح تبين كيفية الوصول إلى ذلك الهدف عبر مراحل، فإذا عملت الآن بما تستطيع من التقوى رزقك الله تعالى درجة أعلى منها وصرت تستطيعها بعد إن لم تكن، فإذا عملت بها وهبك الله تعالى أعلى منها حتى تصل الى نتيجة (حق تقاته).

﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ من بيانية وأطلقت كلمة ﴿قُوَّةٍ﴾ لتشمل كل أشكال ومصاديق القوى فهي لا تختص بالقوة العسكرية بل تشمل القوة الاقتصادية والسياسية والبشرية والعلمية والإعلامية والاجتماعية والتنظيمية وتشمل أيضاً ما يسمى بالقوى الناعمة التي تناولناها في عدة احاديث، حتى ان بعض الروايات جعلت من مصاديق القوة صبغ اللحية بالسواد لإظهار الشباب و الفتوة امام الاعداء فيحصل لديهم الخوف و الرعب ففي الكافي ان الحسين بن علي (عليه السلام) أختضب بالسواد فسأله عن ذلك فقال (أمر رسول الله ﷺ في غزاة غزاها أن يختضبوا بالسواد ليقووا به على المشركين)^(١).

(١) الكافي: ٤٨١/٦ ح ٤.

وعلى رأس هذه القوى، القوة المعنوية والروحية التي هي أصل القوى كالإيمان والصبر والمجاهدة والتوكل والدعاء والتوسل و﴿خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة: ١٩٧) وأما كانت أصل القوى لأن بها مواجهة أصل الاعداء النفس الامارة بالسوء والشيطان (اعدى اعدائك نفسك التي بين جنبيك)^(١) ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (الإسراء: ٥٣) حتى سَمَى النبي (ﷺ) هذه المواجهة بالجهاد الأكبر^(٢).

كما إن كل من هذه القوى لها مصاديق تتناسب مع كل زمان فالقوة العسكرية في زمان نزول الآية كان يراد بها السيف والقوس والرمح ونحو ذلك، لذلك وردت عدة روايات تطبق القوة في الآية على رمي السهام وركوب الخيل، واليوم تشمل الطائرات المقاتلة والسفن الحربية والصواريخ العابرة وتأسيس الأكاديميات العسكرية التي تخرج القادة ومراكز تدريب الجنود وغير ذلك.

والخطاب واضح في الآية انه يطالب الامة بأن تقوم هي بإعداد القوة وليس بأن تستوردها من الغير وتدعي إنها تمتلك القوة، أما إذا لم يعدوا هذه القوى ولم يجهزوا انفسهم بها ولم يتمتعوا بالاكتماء الذاتي فأنهم سيبقون تابعين لمن يزودهم بها وتمهد الطريق لاستعبادهم، وستكون قراراتهم مرتهنة لأولئك الذين يستضعفونهم ويملون عليهم ارادتهم، فمن الغريب ما عليه الدول المعروفة

(١) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ٣٦.

(٢) عن أبي عبد الله (عليه السلام) (أن النبي (ﷺ) بعث سرية فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقل: يا رسول الله ما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس). الكافي: وجوب جهاد النفس، وقد وردت بسند اخر عن امير المؤمنين علي (عليه السلام).

بالاسلامية من اعتمادها في تحصيل قوتها وقدراتها العسكرية على الدول المعادية لهم.

واختيار هذه التعابير المطلقة القابلة للانطباق على كل زمان مظهر من مظاهر الاعجاز القرآني وقدرته على مخاطبة كل الأجيال حيث ينسجم مع آليات عصر النزول ويفهمه أهله وبنفس الوقت ينسجم مع معطيات القرن الواحد والعشرين والمستقبل ليكون شاهداً على خلود القرآن وملائمته لكل زمان ومكان.

ومن الواضح ان هذا الأمر بالإعداد عام بجميع الاتجاهات، فهو عام بلحاظ الافراد لانه موجه لجميع الناس لأن المشكلة التي يراد معالجتها بهذا الأعداد - وهي مواجهة عدو الله وعدوكم - يعاني منها كل الناس، والثمرات المرجوة منه تكون في مصلحتهم جميعاً، والأمر عام أيضاً بلحاظ الأزمان ومصاديق القوة فأهل كل زمان مطالبون بإعداد كل ما يستطيعون من أشكال القوة التي تناسب زمانهم وأوضاعهم مما أشرنا اليها لتحقيق العدالة في الأرض وإقامة دولة الانسان التي تحفظ فيها حقوق كل الناس بصفتهم الانسانية وليس حكومة الاهواء والشهوات والنزوات المليئة بالظلم والفساد الذي يعمّ كل الناس وهذه كلها اهداف انسانية يسعى كل الناس لتحصيلها، لذا كان الخطاب عاماً للجميع كما ان البدن إذا داهمه عدو استعد بتمامه لمواجهته كما في الحديث الشريف (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُوٌّ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى)^(١).

والغرض من إعداد القوة ليس العدوان على الناس ونهب ثرواتهم

(١) بحار الأنوار: ج ٥٨، ص ١٥٠.

واستعبادهم كما يفعل الغرب اليوم و سائر القوى الطاغوتية المتفرعة عبر التاريخ ولا للظلم ولا الفساد ولا البغي والاستعلاء في الأرض وإنما ﴿تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ لإخافة أعداء الله والإنسانية الذين يعتدون على كرامة الانسان ومقدساته ويحرمونه من حقوقه ويمنعون الناس من اعتناق العقيدة الحقبة بحرية، وهذه الاخافة لردعهم عن التفكير بالعدوان على الناس الآمنين وإنتهاك حرمااتهم، فهو إعداد دفاعي وإحترازي: لأن كثيراً من الناس المتجبرين والطواغيت لا يردعهم عن ظلمهم وطغيانهم إلا إعداد القوة التي تخيفهم وترعبهم، وبنفس الوقت تشعر هذه القوة الاتباع بالأمن وحرية ممارسة إقامة النظام الإسلامي في حياتهم وشعائهم الدينية، وتفتح الطريق واسعاً لمن يريد أن يتعرف على هذا الدين او يعتنقه من دون أن يمنعه أحد، وبنفس الوقت هو إعداد حركي فهذه القوة تُعدُّ لتحرير الإنسان لأنها ترفع العوائق عن حركة نشر الإسلام وإيصاله الى كل الناس، فهذه كلها من ثمرات قوة ومنعة وعزة المجتمع الإسلامي.

ومن هذا يظهر ما في التعبير ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ من لمسة وجدانية عاطفية رقيقة مليئة بالرحمة فهذا الاعداد ﴿لَهُمْ﴾ أي لمصلحة الأعداء وليس ﴿عليهم﴾ كما في الآية ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣) تقول أعددت لك كذا فهذا فضل وإحسان تقدمه للآخر، فهذا الاعداد للقوى هو لمصلحة الأعداء لأنه يردعهم عن المضي في تنفيذ النوايا والمشاريع السيئة التي يريدونها فهو يحميهم من أنفسهم الأمانة بالسوء و من كيد الشيطان الرجيم الذي يريد ان يزيدهم ذنوباً الى ذنوبهم و يغرقهم في دركات الجحيم.

اعداد القوة في السيرة النبوية المباركة:

ولنأخذ تطبيقات لهذه الآية من سيرة النبي الأكرم (ﷺ) ولو باختصار بحسب ما يناسب الوقت.

فأول إعداد كان لشخصية القائد وصناعته على نحو يفي بمتطلبات أداء الرسالة العظيمة الخالدة وليكون مؤثراً في الاتباع والاعداء على حد سواء والشواهد كثيرة في حياته الشريفة، وهذا الاعداد تولاه الله تبارك وتعالى (ادبني ربي فاحسن تأديبي) ^(١) (إن الله أدب نبيه ثم فوض إليه أمر الخلق) ^(٢) وهو (ﷺ) أولى بخطاب ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه: ٤١) ﴿وَلِئُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩) والاعداد الثاني للمال اللازم للتحرك بالرسالة ورعاية الاتباع وكفالتهم مع عوائلهم بكافة احتياجاتهم ومواجهة مؤامرات الاعداد وحصارهم ومقاطعتهم وهذا ما قامت به أم المؤمنين خديجة (ع) زوج النبي (ﷺ) فصرفت كل أموالها العظيمة في سبيل الله.

والاعداد الثالث للسند القوي الذي يحميه ويأوي إليه إذا تكالب الأعداء ﴿أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: ٨٠) وتكفل به عمه أبو طالب رضوان الله تعالى عليه.

والإعداد الإلهي الآخر كان بإيجاد الذراع القوي الشجاع والجندي المتفاني في طاعة ربه تعالى ونبيه (ﷺ) والذب عنه وإرعاب الأعداء ومنعهم من الوصول اليه وهو أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (ع)، قال الشاعر:

(١) بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢١٠.

(٢) الكافي: ٢٦٦/١، ح ٤.

فلولا أبو طالب وابنه لما مثل الدين شخصاً فقاماً^(١).

فهذا كله كان قبل إعلان الرسالة، ثم ركز بعد إعلانها على إعداد الاتباع عقائدياً بحيث يذوبوا في عقيدة التوحيد والرسالة النبوية المباركة ويندكوا فيها واستمر هذا الإعداد طيلة عمر الدعوة الإسلامية في مكة التي استمرت ثلاث عشرة سنة وكان غذاء هذا الإعداد القرآن المكي أي السور والآيات القرآنية التي نزلت في مكة وسياقاتها شاهدة على ذلك.

ثم تحرك النبي (ﷺ) لإعداد الوطن والحاضنة لهذه الدعوة الجديدة لان البقاء طويلاً في ضمن المجتمع المعادي يؤدي الى ذوبان العقيدة في النفوس وتشتت الاتباع واستضعافهم خصوصاً بعد رحيل القائد العظيم، ولما يأس من تحقيق ذلك في مكة توجه إلى الطائف أولاً ولم تفلح المحاولة ثم قبض الله تعالى له اهل يثرب فأمنوا به وبايعوه على النصر بالنفوس والمال والولد في العقبة الأولى والثانية حتى هاجر (ﷺ) إليها واقام مجتمعه الايماني هناك وأصبحت المدينة المنورة وطن الدعوة الجديدة وعاصمتها وحضنها ومنطلق حركتها.

وتلاه اعداد المجتمع لحمل الرسالة وتأسيس امة قوية متحدة فأخى بين المهاجرين أولاً ثم أخى بين المهاجرين والانصار وقضى على أسباب النزاع التي كانت داخل مجتمع يثرب بين الاوس والخزرج ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣).

ومن ثم الإعداد السياسي للدولة الجديدة من خلال عقد المعاهدات

(١) شرح نهج البلاغة - ابن ابي الحديد: ٨٣/١٤

والاتفاقات التي تكسب بعض الجهات الى جانبه او تحييدهم على الأقل ولو لفترة لتجنب فتح عدة جبهات عليه في آن واحد، وهو في بداية تأسيس دولته المباركة. ورافق ذلك الاعداد العسكري والتعبئة الميدانية (والمعروف ان النبي ﷺ) بلغه ان سلاحاً جديداً مؤثراً صنع في اليمن أيام معركة حنين، فأرسل النبي ﷺ جماعة الى اليمن لشرائه فوراً^(١).

وكان ذلك كله مقترناً بالتربية الروحية من خلال الآيات القرآنية التي كانت تنزل تباعاً بحسب الحكمة الالهية و استعداد الأمة ليكون أجدى و أقوى تأثيراً ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (الفرقان: ٣٢).

ان بعض المبهورين بالغرب والذين يريدون الانفلات واتباع الشهوات يقرون بين الدين والتخلف او يعدون الالتزام بالدين سبباً للتأخر ويقولون ان اوريا ما تقدمت الا حين انسلخت عن الدين، وهذا نابع من الجهل فان المسلمين لم ينهزموا و لم يتخلفوا وتستعبدهم الأمم الأخرى الا حينما تركوا اسلامهم وتخلوا عن العمل بتعاليمه ومنها هذه الآية الشريفة ولو عملوا بهذه الآية الكريمة لسادوا العالم كما قدر لهم وكما وعد الله تعالى بذلك و سيتحقق على يد الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه).

ملحق: قوى الشباب غنيمته للفرد والأمة

نعم الله تعالى على الإنسان كثيرة، ومنها نعمة الفتوة والشباب بما تعني من حيوية ونشاط، وصحة وعافية، وقوة إرادة وسعة طموح وعواطف جياشة وغرائز

(١) تفسير الأمل: ١٠٤/٤.

متدفقة وحماس واندفاع وصفاء ونقاء وأريحية وذهن وقاد، وغيرها من القوى وهذه القوى مشمولة بأمر الله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠) والقوة المطلوب إعدادها تكون ملائمة للعدو المقصود، فهذه القوى مما يُعدُّ لمواجهة النفس الأمارة بالسوء (أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك)^(١) والشيطان، قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يوسف: ٥٠).

إن الصفات والخصائص التي ذكرناها للشباب توفر فرصة واسعة للتكامل مع ما فيه من مضاعفة الأجر والثواب والمحبة الإلهية التي اختص بها الشباب، ففي الحديث الشريف عن النبي (ﷺ) (ما من شاب يدع الله الدنيا ولهوها واهرم شبابه في طاعة الله إلا أعطاه الله أجر اثنين وسبعين صديقاً)^(٢).

فهذه المرحلة من العمر من أعظم النعم على الإنسان واهم الفرص التي تتاح له لذا وردت الوصية باغتنامها، فمن وصية النبي (ﷺ) لأبي ذر (يا أبا ذر: اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)^(٣) ومن الملاحظ أن هذه الخمسة كلها متوفرة عند الشباب غالباً فهو قوي البدن صحيح معافى، وغني لأنه مكفول المعيشة في أسرته، وعنده فراغ من المسؤولية، لكن هذه الفرص تقل بمرور الزمان فتزداد مسؤوليته ومشاغله ومشاكله ومعوّقات التكامل وتضعف قواه.

لكن أكثر الشباب لا يلتفتون إلى هذه الغنيمة ولا يستثمرونها، ويضيعون

(١) بحار الأنوار - المجلسي: ٣٦ / ٦٧.

(٢) الأمالي - الشيخ الطوسي: ٥٣٥.

(٣) بحار الأنوار: ٧٧/٧٧.

هذه النعم في أمور تافهة وربما محرّمة، ولا يعطون هذه الثروة العظيمة حقها وقدرها، فتارة يعبرون عن فتوتهم وشبابهم بالتمرد على المجتمع أو الانخراط في جماعات العنف أو الخروج عن النظام العام، أو يوظفون طاقاتهم المتدفقة في فعاليات جنونية وهو ما أشار إليه النبي (ﷺ) في بعض خطبه قال: (الشباب شعبة من الجنون)^(١) أو يعتقدون بعض الدعوات الضالة فينساقون وراء أصحابها من دون روية أو تدبّر في محتواها أو عواقبها.

وهذا كله له أسبابه فمنها ما يعود إلى أولياء الأمور وقادة الأمة والبلاد إذ لا يوجد لهم اهتمام بهذه الشريحة المهمة والواسعة ولا يضعون برامج لتوجيههم وإرشادهم والاستفادة منهم في العمل المثمر.

ومنها ما يعود إلى الشاب نفسه، حينما يستسلم لهواه وعواطفه وشهواته وغروره واعتداده بنفسه ونشوته بما فيه من صحة وفراغ وتوفر لمتطلبات الحياة، قال الشاعر:

إن الفراغ والشباب والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة^(٢)

ومن كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) (أصناف السكر أربعة: سكر الشباب وسكر المال وسكر النوم وسكر الملك)^(٣) فللشباب نشوة وغرور وطيش يطغى على العقل ويسكر صاحبه فيرتكب الحماقات وينساق وراء الشهوات، والى أن يصحو من هذا السكر، فيكون قد فقد الكثير وتورط في أمور يصعب تلافئها، وقد

(١) بحار الأنوار: ١٣٥/٧٧.

(٢) الكنى واللقاب - عباس القمي: ١٢٢/١.

(٣) غرر الحكم: ٢٣٧.

يقسو قلبه فلا يكون قابلاً للإحياء بالموعظة والنصيحة، ولذا يجب على الشباب العودة وبسرعة إلى طريق الهداية ليقفلوا من الخسائر وليحظوا بالمحبة الإلهية ففي الحديث النبوي الشريف (إن الله يحب الشاب التائب)^(١)، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف: ١٣).

لقد أحاط الأئمة المعصومون (عليهم السلام) هذه الشريحة من الأمة بتوصيات كثيرة، لاجتذابهم واحتضانهم وخلق الأجواء والمشاريع المناسبة ليعبروا عن وجودهم وأهميتهم ويستفرغوا طاقاتهم، فأوصوا بمشاورتهم والاستئناس بآرائهم وإشراكهم في القرار بما يعرف اليوم بـ(برلمان الشباب) كفكرة بغض النظر عن تطبيقها، فمن وصية لأمر المؤمنين (عليهم السلام) قال (إذا احتجت إلى المشورة في أمر قد طرأ عليك فاستبد به بداية الشبان فإنهم أحد أذهاناً وأسرع حذساً، ثم رده بعد ذلك إلى رأي الكهول والشيخو لستعقبوه، ويحسنوا الاختيار له فإن تجربتهم أكثر)^(٢).

يسأل الإمام الصادق (عليه السلام) أحد أصحابه الأجلاء الذين لهم منزلة رفيعة وهو أبو جعفر الأحول الملقب بـ(مؤمن الطاق) وكان المخالفون يسمونه (شيطان الطاق) لقوة حججه وأدلتته ونشاطه في نشر تعاليم أهل البيت (عليهم السلام) فسأله الإمام (عليه السلام) (أتيت البصرة؟ قال: نعم، قال: كيف رأيت مسارعة الناس في هذا الأمر ودخولهم فيه، فقال: والله إنهم لقليل، وقد فعلوا وان ذلك لقليل، فقال (عليه السلام):

(١) كنز العمال - المتقي الهندي: ٢٠٩/٤.

(٢) غرر الحكم: ٢١٩.

عليك بالأحداث فإنهم أسرع إلى الخير^(١).

إننا نتألم حينما نرى الكثير من شبابنا يسقطون وينحرفون ويلتقطون مظاهر الفساد والانحلال^(٢) من حثالات الغرب المنبوذين في بلادهم قبل بلادنا، أو ينخرطون في جماعات ضالة^(٣) فاسدة من دون الالتفات إلى أجنادات أصحابها والأهداف التي يريدون تحقيقها، وقد تكلفهم حياتهم فيخسر نفسه وتخسر الأمة وهو في عنفوان العطاء والتألق.

أيها الأحبة: إن لكم دوراً مهماً في استنقاذ زملائكم وأقرانكم وتوجيههم وهدايتهم إلى السلوك العفيف النظيف، فأنتم تصلون إلى ساحات للعمل لا نصل إليها نحن، ومشاركاتكم مع الشباب من أقرانكم أكثر، ولغة التفاهم بينكم أوضح فاستثمروها في كسبهم ولا تضيّعوا هذه الفرصة الثمينة بلطف الله تبارك وتعالى.

(١) بحار الأنوار: ٢٣٣/٢٣٦ عن كتاب قرب الإسناد.

(٢) إشارة إلى دخول بعض الشباب في جماعة (الإيمو).

(٣) إشارة إلى جماعات أدعياء المهدوية والبايية ونحوها من دعاوى الارتباط بالإمام المهدي

القبس/٧٥

سورة التوبة: ﴿١٨﴾

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

موضوع القبس: مسؤولية المؤمنين عن إعمار المساجد

قال الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة: ﴿١٨﴾).

المساجد هي محالّ عبادة الله تعالى، وأخذ اسمها من السجود لأنه أوضح أشكال العبودية، وتسمى بيوت الله وهذه الإضافة والنسبة للتشريف، روي عن أبي بصير قال (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن العلة في تعظيم المساجد فقال: إنما أمر بتعظيم المساجد لأنها بيوت الله في الأرض)^(١) وقال الإمام الصادق (عليه السلام) أيضاً (عليكم بإتيان المساجد، فإنها بيوت الله في الأرض، ومن أتاها متطهراً طهره الله من ذنوبه، وكتب من زواره فأكثرها فيها من الصلاة والدعاء، وصلوا من المساجد في بقاع مختلفة، فإن كل بقعة تشهد للمصلي عليها يوم القيامة)^(٢).

و﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر كما هو معروف فكأن عمارة المساجد مختصة بقوم تتوفر فيهم شروط خمسة: الايمان بالله تعالى وبالآخرة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن لا يخشى أحداً غير الله تعالى، فكأن الاعتقاد والايمان لا يكفي ما لم يقترن

(١) الحديثان في بحار الأنوار: ٦/ ٨٤.

(٢) بحار الأنوار: ٣٨٤/٨٣.

بالعمل الصالح والإخلاص لله تعالى والحرص على إقامة منهجه الإلهي، وأن لا يطيع ولا يعبد الا الله تعالى فكأن في الآية كناية عن ذلك لأن الداعي الى العبادة والطاعة هو الخوف من العقاب، حتى الرجاء وطلب الكرم والرحمة هو في الحقيقة خوف من انقطاعها وفواتها.

والجملة يمكن أن تكون خبرية بمعنى أن من طبيعة المؤمن المتصف بهذه الخصال أن يعمر مساجد الله، وان المساجد لا يعمرها الا مثل هؤلاء، وهو معنى صحيح إذ كيف يتصور إعمار المساجد التي هي بيوت الله ممن لم يؤمن بالله تعالى ولا يدين له بالطاعة، كما في الحديث النبوي الشريف (عمار بيوت الله هم أهل الله) وقوله (ﷺ) (من ألف المسجد ألفه الله)^(١)، وتدلل بالملازمة على المعنى المقابل وهو أن من يوفق لإعمار المساجد فان هذا العمل يكشف عن أن عمارها ممن تحققت فيهم هذه الصفات.

ويمكن أن تفيد الجملة الانشاء فتضمن تكليفاً بأن لا تقبلوا من أي أحد إعمار المساجد والمساهمة فيها الا من كان بهذه الأوصاف إذ ليس لمن لا يتصف بهذه الصفات حق في ذلك ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ (التوبة: ١٧) فلا تجاملوا أصحاب الأموال غير المشروعة وتداهنوهم من أجل تشييد المسجد، فليس لأصحاب الأيادي غير النزيهة التشرف بمثل هذا العمل المبارك ﴿وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الحج: ٢٦)، وقد كان بعض المسلمين يرغبون بأن يستمر

المشركون في زيارة البيت الحرام بعد نزول الوحي بمنعهم ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ (التوبة: ١٢٨) لما في مجيئهم من مصالح اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية فوبختهم هذه الآية والتي سبقتها ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ١٧) فلا خير يرجى من مساهمتهم في بناء المسجد أو تجمّعهم فيه وكذا كل الناس غير المؤمنين.

والشواهد على ذلك من تاريخ الإسلام كثيرة اذ لما تدّخلت الحكومات غير الصالحة في شؤون المساجد وأشرفت عليها وعيّنت مرتزقتها، أو أصبح بناء المساجد وسيلة لتباهي أصحاب الثروات غير المشروعة وتفاجرهم أو لإضفاء شرعية لأعمالهم، فقد المسجد روحه وفشل في تحقيق أغراضه.

والإعمار هو إدامة الحياة والوجود، ومنه سمي عمر الانسان لأنه يعني عمران حياة البدن بوجود الروح فيه، وإعمار المساجد:

قد يكون مادياً بتشبيدها وترميمها وإصلاح الخراب فيها وهو الظاهر بمقتضى المقابلة من قوله تعالى في الآية التالية ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ١٩).

وقد يكون معنوياً بإدامة الحضور فيه للعبادة والطاعة وإقامة الشعائر الخالصة لله تعالى فيها، والآية الكريمة تعطي أهمية للثاني، بدليل نفيه في الآية السابقة عن المشركين وسائر غير المؤمنين ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ (التوبة: ١٧) فلا تصدق عليهم عمارة المسجد

الذي هو بيت الله تعالى وهم يعبدون فيها الأصنام ويتخذونها أرباباً من دون الله تعالى فهي شهادة فعلية منهم بالكفر، ويستفاد من هذا القيد عدم المانع من دخول غير المسلم الى المسجد اذا كان لأجل الاهتداء وطلب الحقيقة لأنه ليس شاهداً على نفسه بالكفر، حيث كان رسول الله (ﷺ) يستقبل في مسجده الشريف اتباع الديانات الأخرى لكي يستمعوا الوحي ويتعرفوا على الرسالة الإسلامية.

وهذه العمارة المعنوية هي التي تُبرزُ حقيقة المسجد وتؤدي رسالته الإلهية المفعمة بالخير والصلاح والرحمة والسعادة، والتي هدفها بناء الانسان الصالح والمجتمع الصالح، أما بناء الجدران والسقوف وزخرفتها فإنها لا قيمة لها إذا خلت من هذه الحقيقة حيث يتحول المسجد الى مكان للنزهة واللهو والعبث ويصير متحفاً يرتاده السواح كما حصل فعلاً.

ولذا اشترطت الآية في إعمار المساجد الشروط الخمسة لأنها المحركات نحو هذه الغايات النبيلة. وهذه العمارة المعنوية هي ما عبّر عنها أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يرتجز حينما كان يشارك رسول الله (ﷺ) والصحابة في بناء أول مسجد في الإسلام عندما هاجر النبي (ﷺ) الى المدينة:

لا يستوي من يعمر المساجداً يظلُّ فيها راعياً وساجداً
ومن يُرى عن الغبار حائداً يُعرضُ عنه جاحداً معانداً

واستشهد بها عمار بن ياسر عند حفر الخندق معرضاً ببعض الصحابة^(١).

(١) بحار الأنوار: ج ١٩/ص ١٢٤، وج ٢٠/ص ٢٤٣، عن تفسير القمي: ٩٧/٢ ومناقب ابن شهر آشوب:

٢٣٦/١ والديوان المنسوب الى أمير المؤمنين (عليه السلام): ٣٦.

والخراب المعنوي هو ما يشكو منه المسجد يوم القيامة ومن عدم اهتمام الناس به، فقد روى جابر عن النبي (ﷺ) أنه قال: (يجيء يوم القيامة ثلاثة يشكون: المصحف، والمسجد، والعترة، يقول المصحف: يا رب، حرفوني ومزقوني، ويقول المسجد: يا رب، عطّلوني وضيعوني، وتقول العترة: يا رب، قتلونا وطرّدونا وشرّدونا، فأجثو للركبتين في الخصومة فيقول الله عزّ وجلّ لي: أنا أولى بذلك منك)^(١).

وروى الشيخ الكليني والصدوق عن الإمام الصادق (عليه السلام) انه قال (ثلاثة يشكون إلى الله عزّ وجلّ: مسجد خراب لا يصلي فيه أهله، وعالم بين جهّال، ومصحف معلق قد وقع عليه الغبار لا يقرأ فيه)^٢. وهذه الروايات شاهدة بمقتضى المقابلة على ان المراد من الاعمار في الآية الشريفة هو المعنوي.

ثم تقول الآية ﴿فَعَسَىٰ أَوْلِيكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة: ١٨) ويمكن ان نذكر عدة وجوه لاستعمال (عسى) التي تفيد الاحتمال ظاهراً بدل الجزم بكونهم من المهتدين، منها:

١- لأن احتمالات الاستقامة والانحراف تبقى مفتوحة وان قام بفعل المهتدين الآن، فعلى العامل المخلص أن يبقى دائماً في يقظة وحذر ولا يتكل على عمله ولا يترك منفذاً للعجب أو الرياء الى قلبه فان النفس الامارة بالسوء متربصة بصاحبها ويمكن ان توقع به في أية لحظة فتزل قدمه عن الطريق المستقيم.

(١) وسائل الشيعة: ج ٥ ص ٢٠٢/ح ٢، ط. آل البيت (عليه السلام).

(٢) وسائل الشيعة: ج ٥ ص ٢٠١/ح ١، ط. آل البيت (عليه السلام).

٢- ان حصول الاهتداء في فعل ما - وهو هنا إعمار المسجد - مرة أو مرات من الانسان لا يلزم منه أن يصبح من (المهتدين) الا بعد ان يتحول الاهتداء الى صفة ذاتية راسخة من خلال التكرار والاعتياد والتحول الى ملكة.

٣- ويحتمل أن يكون وجهه التعريض بالمشركين وأمثالهم بأن من يرجى أن يكون من المهتدين هم أهل هذه الصفات من عمّار المساجد وليس أنتم، ولا ينفعكم مجرد بنيان المسجد وإعمار ما خرب منه ففي هذا حث لهم على أن يكونوا مؤمنين مخلصين ليصبحوا من المهتدين.

إن رسالة المسجد في الإسلام عظيمة كما كان في عهد رسول الله (ﷺ) وأمير المؤمنين (عليه السلام) فهو مظهر عزة الإسلام وقوة المسلمين، وهو مجمع المؤمنين ومحل احتشاد الأخوة في العقيدة، وعمارته ونشاطه علامة يقظة المسلمين، وفيه يتعلم الناس أمور دينهم ويناقشون قضاياهم المصيرية، ومنه تصدر القرارات المهمة، وتنطلق حركة الوعي والإرشاد والإصلاح وقوافل الخير والمعروف والدفاع عن الإسلام، وبوجوده تغلق منافذ المنكر والفساد والشر، وبه تتحقق مصالح اجتماعية وأخلاقية واقتصادية وسياسية وفكرية جمّة لا يسع المجال لشرحها، فهو جماع الخير ومركز كل حركة إسلامية فاعلة.

ولا مجال في المسجد للعاثين والمنافقين، روى ورام في كتابه قال (قال: يأتي في آخر الزمان قوم يأتون المساجد، فيقعدون حلقاتاً، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم فليس لله فيهم حاجة)^(١).

(١) وسائل الشيعة: ج ٥/ص ٢١٤/ح ٤، ط. آل البيت (عليه السلام).

وروى الإمام الصادق (عليه السلام) عن رسول الله (ﷺ) قال: (الجلوس في المسجد لانتظار الصلاة عبادة ما لم يُحدث، قبل: يا رسول الله وما الحدث؟ قال: الاغتياب)^(١).

لذا حث القادة المعصومون (عليهم السلام) على كلتا العمارتين المادية والمعنوية: ففي العمارة المادية روى الشيخ الكليني بسند صحيح عن ابي عبيدة الحذاء قال (سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: من بنى مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة. قال أبو عبيدة: فمرّ بي أبو عبد الله في طريق مكة وقد سوّيت بأحجار مسجداً، فقلت له: جعلت فداك، نرجو أن يكون هذا من ذاك؟ قال: نعم)^(٢).

وروى البرقي في المحاسن أن أبا الصباح سأل الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما تقول في هذه المساجد التي بنتها الحاج في طريق مكة؟ فقال: بخّ بخّ، تيك أفضل المساجد، من بنى مسجداً كمفحص قطة بنى الله له بيتاً في الجنة)^(٣).

وورد في العمارة المعنوية:

قول النبي (ﷺ): (سبعة يظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عزّ وجلّ، ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان كانا في طاعة الله عزّ وجلّ فاجتمعا على ذلك وتفرّقا، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال فقال: إني

(١) بحار الأنوار: ٣٨٤ / ٨٣.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٥ ص ٢٠٣ / باب ٨ / ح ١، ط. آل البيت (عليه السلام).

(٣) وسائل الشيعة: ج ٥ ص ٢٠٣ / باب ٨ / ح ٦، ط. آل البيت (عليه السلام).

أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما يتصدق بيمينه^(١).

وروى الإمام الصادق (عليه السلام) عن جده رسول الله (ﷺ) قوله: (من كان القرآن حديثه والمسجد بيته بنى الله له بيتاً في الجنة)^(٢) وروى الإمام الباقر قال (عليه السلام) قال رسول الله (ﷺ) لجبرائيل (عليه السلام): يا جبرائيل أي البقاع أحبّ إلى الله عزوجل؟ قال: المساجد، وأحبُّ أهلها إلى الله أولهم دخولاً وآخرهم خروجاً منها^(٣).

وقوله (ﷺ): (من مشى إلى مسجد من مساجد الله فله بكل خطوة خطاها حتى يرجع إلى منزله عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات)^(٤).

وقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في آثار التردد على المساجد (من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو يسمع كلمة تدلّه على هدى، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردّه عن ردى، أو يترك ذنباً خشية أو حياءً)^(٥).

(١) وسائل الشيعة: ج ٥/ ص ١٩٩/ ح ٤، ط. آل البيت (عليه السلام).

(٢) وسائل الشيعة: ج ٥/ ص ١٩٨/ ح ٢، ط. آل البيت (عليه السلام).

(٣) الكافي: ٣/ ٤٨٩، ح ١٤ باب النوادر.

(٤) وسائل الشيعة: ج ٥/ ص ٢٠١/ ح ٣، ط. آل البيت (عليه السلام).

(٥) وسائل الشيعة: ج ٥/ ص ١٩٧/ ح ١، ط. آل البيت (عليه السلام).

وروى الديلمي في الارشاد عنه (عَلَيْهِ السَّلَام) قوله: (الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة، لأنّ الجنة فيها رضى نفسي والجامع فيه رضى ربّي) (١).

وقول الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَام): (لا يرجع صاحب المسجد بأقلّ من إحدى ثلاث خصال: إما دعاء يدعو به يدخله الله به الجنة، وإما دعاء يدعو به فيصرف الله به عنه بلاء الدنيا، وإما أخ يستفيده في الله) (٢).

وقوله (عَلَيْهِ السَّلَام): (من مشى إلى المسجد لم يضع رجلاً على رطب ولا يابس إلاّ سبّحت له الأرض إلى الأرضين السابعة) (٣).

وقال الشيخ الصدوق في ثواب الأعمال وفي علل الشرائع (روي أنّ في التوراة مكتوباً: إنّ بيوتي في الأرض المساجد، فطوبى لعبد تطهّر في بيته ثمّ زارني في بيتي، ألا إنّ على المزور كرامة الزائر، ألا بشر المشائين في الظلمات إلى المساجد بالنور الساطع يوم القيامة) (٤).

وقد كان النبي (ﷺ) وأمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام) يهددان بالعقوبة من يتخلف عن حضور الصلاة في المساجد لغير عذر فقد روي بسند صحيح عن عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَام): (سمعته يقول: إن أناساً كانوا على عهد رسول الله (ﷺ) أبطأوا عن الصلاة في المسجد، فقال رسول الله (ﷺ): ليوشك قوم

(١) وسائل الشيعة: ج ٥/ص ١٩٩/ح ٦، ط. آل البيت (عَلَيْهِ السَّلَام).

(٢) وسائل الشيعة: ج ٥/ص ١٩٣/ح ٢، ط. آل البيت (عَلَيْهِ السَّلَام).

(٣) وسائل الشيعة: ج ٥/ص ٢٠٠/ح ١، ط. آل البيت (عَلَيْهِ السَّلَام).

(٤) وسائل الشيعة: ج ٥/ص ٢٤٤/باب ٣٩/ح ١، ط. آل البيت (عَلَيْهِ السَّلَام).

يدعون الصلاة في المسجد أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم فتوقد عليهم نار فتحرق عليهم بيوتهم^(١).

أيها الأحبة:

هذا بعض ما ورد في عظمة المساجد وبركتها على الفرد والمجتمع، وقد لمسنا ذلك على أرض الواقع، فكلما كانت المساجد عامرة وفاعلة كان المجتمع في خير لذا فنحن مطالبون اليوم بـ (صحوة) و (يقظة) وقيام استجابة لقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى﴾ (سبأ: ٤٦) فننفض عنا ركام هذه الغفلة والتقصير في حق المساجد بل في حق أنفسنا إذ لم نستثمر هذه الفرصة العظيمة للطاعة التي أتاحتها الله تبارك وتعالى حتى لا نكون ممن يشكوهم المسجد كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام): (ثلاثة يشكون إلى الله عز وجل: مسجد خراب لا يصلي فيه أهله، وعالم بين جهال، ومصحف معلق قد وقع عليه الغبار لا يقرأ فيه)^(٢).

وعلينا ان نستفيد من زخم المسجد وقوته وآثاره المباركة في المواجهة الحضارية التي يخوضها الإسلام مع اعدائه داخل بلاد المسلمين وخارجها لمحقق الإسلام.

إن الفرصة متاحة اليوم لنشر المساجد ومحالّ العبادة وإقامة الشعائر الدينية في كل مكان ولو بأبسط اشكالها، كغرفة كبيرة تتخذ حرماً للصلاة مع مغاسل للوضوء، من دون الحاجة الى أبنية ضخمة، نعجز عن تفير أموالها، والمهم

(١) وسائل الشيعة: ج ٥ ص ١٩٤ / ح ٢، ط. آل البيت (عليه السلام).

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب حكام المساجد، باب ٥، ح ١.

تأسسها على التقوى ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (التوبة: ١٨).

أهمية الإعمار المعنوي:

والأهم من الإعمار المادي هو الإعمار المعنوي الذي تشكو منه المساجد في الحديث المتقدم، وإعمارها يكون بإقامة الصلوات فيها والذكر والدعاء وبيان الأحكام الشرعية والأخلاق الفاضلة وتهذيب النفوس ومجالس الوعظ والإرشاد وذكر فضائل أهل البيت (عليهم السلام) ومظلوميتهم والشعائر الدينية، وجعلها خالصة لله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الجن: ١٨) وعدم تشويش المؤمنين بالدعوات الشخصية والفئوية وتجنبيها ما ينافي قدسيتها من المحرمات واللغو واللهو وأعمال الدنيا، وفي ذلك ورد عن أبي ذر (رضوان الله عليه) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (يا أبا ذر الكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، يا أبا ذر من أجاب داعي الله وأحسن عمارة مساجد الله كان ثوابه من الله الجنة، فقلت: كيف يعمر مساجد الله؟ قال: لا ترفع الأصوات فيها ولا يُخاض فيها بالباطل ولا يشتري فيها ولا يباع واترك اللغو ما دمت فيها، فإن لم تفعل فلا تلومن يوم القيامة إلا نفسك)^(١).

ومن وصايا النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي ذر (رضوان الله عليه): (يا أبا ذر: كل جلوس في المسجد لغو إلا ثلاثة: قراءة مصلٍ أو ذكر ذاك الله تعالى أو سائل عن علم)^(٢).

(١) المصدر، باب ٢٧، ح ٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣٧٠/٨٣.

من بركات إعمار المسجد:

إن من بركات إعمار المساجد وإحيائها دفع البلاء عن الأمة وما أحوجنا إليه ونحن نسأل الله تعالى ان يكشف عنا هذا الوباء، روي عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: (إن الله تبارك وتعالى ليريد عذاب أهل الأرض جميعاً حتى لا يحاشي منهم أحداً إذا عملوا بالمعاصي واجتروا السيئات، فإذا نظر إلى الشيب ناقلي أقدامهم إلى الصلوات، والولدان يتعلمون القرآن رحمهم الله فأخر ذلك عنهم)^(١) ومن وصايا النبي (ﷺ) لأبي ذر: (يا أبا ذر: يقول الله تعالى: إن أحب العباد إليّ المتحابون بجلالي المتعلقة قلوبهم بالمساجد المستغفرون بالأسحار، أولئك إذا أردت بأهل الأرض عقوبة ذكرتهم فصرفت العقوبة عنهم)^(٢).

فسارعوا أيها المؤمنون ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

إن أولى من يخاطب بوجوب التحرك لإعمار المساجد هم فضلاء الحوزة العلمية لأنهم بهم ينعقد نظام هذه الحركة المباركة وإمام المسجد هو القائد الديني والاجتماعي في منطقتة، وقد عرضت في خطاب سابق^٣ عدة خطوات لإعمار المساجد وتفعيل دورها في حياة الأمة نعيد التذكير بها مع إضافة خطوات أخرى منها:

١ - إشغال كل مسجد مهما كان بسيطاً ونائياً بإمام يقيم فيه الشعائر، وإذا

(١) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب أحكام المساجد، باب ٣، ح ٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣٧٠/٨٣.

(٣) راجع كتاب (شكوى المسجد) و(خطاب المرحلة: ١/٤٢٥-٤٤٥).

خلت منطقة أو ناحية من مسجد فيمكن اتخاذ غرفة كبيرة في أحد البيوت مما يعرف بالمضيف أو الديوانية أو غرفة الاستقبال ويُتخذ لها باب خارجي يفتح للمصلين في أوقات الصلوات وإقامة الشعائر الدينية وتجهيزها بمكبر صوت لرفع الآذان، ولا أعتقد أنّ هذا يكلف شيئاً يذكر في قبال ما أعدّ الله لفاعله من الخيرات والبركات.

٢ - الحرص على إقامة صلاة الجماعة في المسجد فإنها مفتاح البركات ولا تختص بالفرائض اليومية بل تشمل الصلاة في العيدين وعند حصول الخسوف والكسوف، ولقد ثبت بالتجربة أنّ المسجد الذي تقام فيه صلاة الجماعة يكون أكثر فاعلية واجتذاباً للناس من المسجد الخالي منها، وهم على حق في ذلك من أكثر من جهة:

أ - الثواب العظيم الذي أعدّ للمصلي جماعة بحيث إذا بلغ عدد المصلين عشرة فلا يحصي ثواب الجماعة إلا الله تبارك وتعالى.

ب - إنّ وجود إمام الجماعة يلزم منه تحقيق فوائد كثيرة كإجابة الاستفتاءات وقضاء الحوائج الاقتصادية والاجتماعية وإلقاء المحاضرات في الوعظ والإرشاد وتبليغ الأحكام.

٣ - اختيار إمام الجماعة المخلص لله تبارك وتعالى الحريص على المصالح الاجتماعية أكثر من مصلحة نفسه، وأن يكون ذا فضيلة علمية ليستطيع تلبية احتياجات المجتمع الفكرية والفقهية والثقافية.

٤ - ان ينظم حلقات دراسية يتعلم فيها الناس أمورهم الدينية من عقائد واخلاق ومسائل الحرام والحلال خصوصاً المسائل الابتلائية وان يحث الشباب

الواعين المثقفين الفطنين على الالتحاق بالحوزة العلمية في النجف الاشرف لينهلوا من معينها ويعودوا الى مجتمعهم مبلغين دُعاة الى الله تبارك وتعالى وأقل ما يجزيه من النشاط هو إلقاء محاضرة في الأسبوع مرة تطبيقاً لرواية الإمام الصادق (عليه السلام) عن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أفّ لرجل لا يفرغ نفسه في كلّ جمعة^(١)) - أي أسبوع - لأمر دينه فيتعاذوه ويسأل عن دينه^(٢)، ولما كانت فرصة القراءة والتفقه ليست متاحة لكل أحد لأسباب شتى فعلى إمام المسجد توفير هذه الفرصة للمجتمع، وبذلك فهو يعينهم على امتثال أمر الإمام، فإن دوره في المجتمع، يتمثل بتقريب الناس إلى طاعة الله تبارك وتعالى بتكثير فرصها وفتح المزيد من أبوابها، وتقليل فرص المعصية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ - إحياء الشعائر الدينية ومناسبات أهل البيت (عليهم السلام) جميعاً، وعدم الاكتفاء بشهر رمضان وشهر محرم، وأؤكد هنا على ضرورة إقامة المجالس في المساجد^(٣) لعدّة أمور، فهي أبعد عن الرياء والعجب ويكون الحضور فيها خالصاً لله لا مجاملة لأحد، وفيها إعطاء أهمية للمسجد في حياة الناس، ولاقترانها بصلاة الجماعة عادة، ولأنها اعظم أجراً لما ذكرنا من أنّ الجلوس في المسجد عبادة.

٦ - إقامة المسابقات الدينية والثقافية خصوصاً في شهر رمضان وليالي وأيام

(١) كان سماحة الشيخ يلقي خطبة أسبوعية بعد صلاة الظهر يوم الجمعة في جامع حي الكرامة في النجف حيث كان يؤم الجماعة.

(٢) أصول الكافي: ١/ باب سؤال العالم وتذاكره/ ح ٥.

(٣) كان سماحة الشيخ يعقد مأتماً أسبوعياً بعد صلاتي المغرب والعشاء جماعة في جامع الكرامة مساء الأربعاء، وفي ذكرى شهادة المعصومين (عليهم السلام) والعشرة الأولى من محرم الحرام ويجلب لذلك عدداً من الخطباء.

الجمع، وتعيين الجوائز للفائزين، وهذا يحقق أكثر من ثمرة:

أ - حثّ المؤمنين على قراءة الكتب والازدياد من العلم والمعرفة ليكونوا بمستوى المسابقات.

ب - حثّهم على الحضور في المساجد لما في جو المسابقات من متعة وفائدة وتسلية.

٧ - وضع لوحة إعلانات يسجل فيها كل يوم شيء جديد، كحديث شريف له ثمرة اجتماعية أو أخلاقية أو عقائدية، أو تدوّن فيها بعض الأحكام الابتلائية، أو استفتاءات مستحدثة، أو خبر نافع عن الحوزة، أو عن إصدار جديد، أو إلفات النظر إلى حالة اجتماعية منحرفة، أو معاملة باطلة تجري في السوق وتصحيح ذلك وفق الضوابط الشرعية، وأي شيء آخر يشدّ الناس إليها ويجعلهم في تفاعل مستمر مع المسجد.

٨ - إنشاء حلقات تعليم القرآن الكريم قراءةً وتفسيراً وعقد المحافل القرآنية لشد الناس الى ثقل الله الأكبر.

٩ - تأسيس مكتبة ولو بسيطة في كل مسجد تضم مجموعة من الكتب الدينية والثقافية التي يحسّن بالمسلم الإطلاع عليها.

١٠ - أن يبذل إمام المسجد وسعه في قضاء حوائج الناس فيزوج هذا الشاب المتعفف ويساعد ذلك المحتاج ويوجد فرصة عمل لهذا العاطل وهكذا، مع مشاركتهم في مناسباتهم الاجتماعية وأفراحهم وأحزانهم حتى يكون للجميع كالأب والأخ الشفيق الرحيم وبذلك ينجذب الناس إلى المسجد ويجدون فيه المنقذ والمأوى والكهف الحصين.

١١- أن يتشكل في المسجد موكب لإحياء الشعائر والمناسبات الدينية ولجان ومجاميع لإدارة مختلف النشاطات المطلوبة بحسب رغبات العاملين ومؤهلاتهم، فمجموعة للأعمال الخيرية والإنسانية ومساعدة العوائل، وأخرى للعلاقات الاجتماعية ولجنة للعمل الثقافي تتولى إصدار النشرات الجدارية والورقية وتوزيعها، ولجنة لرعاية الشباب وأخرى لتنظيم السفرات الدينية أو الترفيهية وهكذا.

١٢- ولا تقتصر هذه الحركة الفاعلة على الرجال، فللنساء نصيبهن بل الحظ الأوفر لهن لأن المجتمع النسوي أحوج إلى الرعاية بسبب طول الإهمال والحرمان وشدة المعاناة وضغط العوائق الاجتماعية وبعض رواسب التعصب والجهل والأنانية، فتُخصَّص حسنيات أو دور للعمل النسوي وتتصدى له المبلغات الرساليات، وقد توفرت المئات منهن بفضل الله تبارك وتعالى، فالساحة مهيأة لأداء هذه الرسالة الإلهية.

إن في هذه الحركة المباركة استجابة لدعوة الله تعالى ورسوله (ﷺ) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤).

وأنت ترى إنَّ المسؤولية متبادلة بين الحوزة الدينية والمجتمع فإن بعضهم يكمل بعضاً، فالحوزة ترشد المجتمع وتوجهه إلى طريق الصلاح، والمجتمع يطبِّق ويمثّل ويمارس دور الشاهد على الحوزة ليقمها هل أدّت دورها كما ينبغي.

وتتعاظم الفرصة والمسؤولية مع إطلالة شهر رمضان المبارك وإقبال

الناس على الطاعة والحضور في المساجد، وفقنا الله تعالى وإياكم لما يحب
ويرضى.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ﴾

موضوع القبس: لتكن لنا مشاركة في تحقيق الهدف الإلهي العظيم^(١)

تشير الآية إلى المحاولات اليائسة والبائسة التي يقوم بها أعداء الإسلام من داخل المجتمع المسلم ومن خارجه ((كفاراً ومنافقين ومشركين)) للقضاء على الإسلام، ويسخر القرآن الكريم من تفاهتها ويصور محاولاتهم كمن يريد أن يطفى نور الشمس الوهاج بنفخة هواء من فمه، فهل يستطيعون ذلك؟ والمثال يضرب لتقريب الفكرة وإلا فان نور الله تعالى الواصل إلينا من خلال القرآن والإسلام أعظم لأن ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: ﴿٣٥﴾).

(ويأبى الله) تعالى أي يرفض ويمتنع بشكل حتمي عن قبول أي خيار آخر غير تحقيق غرضه وقد عزم على أن يتم نوره وينزل نصره النهائي على المؤمنين وتهيمن شريعته على كل القوانين والأنظمة التي صنعها الناس وهو ما نطق به الآية التالية ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ

(١) من حديث سماحة المرجع الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) مع حشد من المبلغين وفضلاء الحوزة العلمية قبل انطلاقهم للتبليغ بين الملايين من زوار الإمام الحسين (عليه السلام) في ذكرى اربعينته يوم الاثنين ٨/ صفر ١٤٤١هـ - الموافق ٢٠١٩/١٠/٧م.

وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ (التوبة: ٣٣) وبشرت به آية أخرى أيضاً في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (الفتح: ٢٨).

ولا يخفى ما في الآية من كناية عن (ظلامية) أعداء الإسلام وجهلهم وتخلفهم وهمجيتهم حيث يسعون لإطفاء النور واغراق البشرية في الظلام، وهل يسعى عاقل لإطفاء النور الذي فيه حياة البشر وصلاحهم وسعادتهم، فمن يسعى للقضاء على الإسلام يكون هذا تقيمه.

إن الآية الكريمة لما تسخر من محاولات الأعداء وتصفها بالعبثية وعدم الجدوى فهذا لا يعني أن جهود وامكانيات الأعداء تافهة أو ضعيفة في نفسها أي من الناحية المادية ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (إبراهيم: ٤٦) لأنهم يجندون كل ما عندهم من عدد وعدة قاهرة سواء على صعيد المال أو السلاح أو الاعلام أو التقنيات الحديثة أو أدوات الاغراء والافساد والاضلال والترغيب والترهيب.

وإنما هي كذلك عندما تُواجه بالايان وقوة العقيدة والقلوب الثابتة التي ربط الله تعالى عليها وبتفعيل سائر إمكانيات الأمة وطاقاتها البشرية والمادية، وحينئذ يتحقق النصر النهائي لدين الحق الذي وعدت به الآية التالية ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣).

وتشير آية أخرى مشابهة إلى ان الأعداء لا يكتفون بالحرب الخشنة الظاهرة وإنما يستخدمون الحرب الناعمة أيضاً من خلال تحريف تعاليم الدين وتعطيل أحكامه وتمييعه، وتحويله إلى شكليات طقوسية كأى تقاليد شعبية خالية من المضمون ولا تحقق الغرض الذي يريده الله تبارك وتعالى، قال سبحانه ﴿يُرِيدُونَ لِيُظْفَرُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ • هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: ٨-٩) وإنما فسرناهما بهذا المعنى بقرينة الآية التي سبقتها ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الصف: ٧) وبدلالة كلمة ﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾ التي تعني ان محاولاتهم تكون بنشر الكلام الباطل مسموعاً أو مكتوباً.

وفي ذلك رواية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) من حديث طويل في الاحتجاج على أحد الزناديق في آيات متشابهة إلى أن قال عن معنى هذه الآية (انهم أثبتوا في الكتاب ما لم يقله الله على الخليفة فأعمى الله قلوبهم حتى تركوا فيه ما دلَّ على ما أحدثوه فيه وحرّفوا منه)^(١) وفيها أيضاً (وجعل أهل الكتاب القيمين به، والعالمين بظاهره وباطنه، من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها، أي: يظهر مثل هذا العلم لمحتمليه - أي القادرين على

(١) الاحتجاج: ٣٧١/١، تفسير الصافي: ٤٠٠/٣.

تحمله - في الوقت بعد الوقت، وجعل أعداءها أهل الشجرة الملعونة الذين حاولوا إطفاء نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره^(١).

فهذا التفسير ليس منافياً للأول بل يعبر كل منها عن شكل من اشكال إطفاء النور أي الصراع والمواجهة.

ومن اشكالها استهداف قادة الإسلام العظيم - الذين هم مظاهر النور الإلهي - بالتسقيط والحصار والتطويق وعزلهم عن الأمة في السجون وملاحقة أتباعهم وتنتهي بقتلهم، روى الشيخ الصدوق في الاكمال عن الإمام الصادق (عليه السلام) وقد ذكر شق فرعون بطون الحوامل في طلب موسى (عليه السلام) وكذلك بنو امية وبنو عباس لما ان وقفوا على أن زوال ملك الأمراء والجبابرة منهم على يد القائم (عليه السلام) ناصبونا العداوة ووضعوا سيوفهم في قتل أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإبادة نسله طمعاً منهم في الوصول إلى قتل القائم (عليه السلام) فأبى الله أن يكشف أمره لواحد من الظلمة الا أن يتم نوره ولو كره المشركون^(٢).

وروى الحميري في قرب الاسناد بسنده عن البنزطي عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال (إن الناس قد جهدوا على إطفاء نور الله، حين قبض الله تبارك وتعالى رسوله (صلى الله عليه وآله)، وأبى الله إلا أن يتم نوره. وقد جهد علي بن أبي حمزة - من زعماء الانشقاق على الإمام الرضا (عليه السلام) واختلاس أمواله - على إطفاء نور الله حين مضى أبو الحسن الأول (عليه السلام) - أي حين وفاة الإمام الكاظم - فأبى الله إلا

(١) الاحتجاج: ٣٧٦/١، تفسير الصافي: ٤٠٠/٣.

(٢) إكمال الدين وإتمام النعمة: ٣٥٤، باب ٣٣، ما روى عن الصادق (عليه السلام)، ح ٥٠.

ان يتم نوره، وقد هداكم الله لأمر جهله الناس، فاحمدوا الله على ما من عليكم به^(١).

وتوجد التفاته لطيفة للفرق بين التعبير ﴿يُظْفَوُا﴾ في سورة التوبة و ﴿لِيُظْفَوُا﴾ في سورة الصف، قال الراغب ((والفرق بين الموضعين أن في قوله ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُظْفَوُا﴾ يقصدون إطفاء نور الله، وفي قوله ﴿لِيُظْفَوُا﴾ يقصدون أمراً يتوصلون به إلى إطفاء نور الله)^(٢) فالتعبير الأول يشير إلى التفسير الأول لآية التوبة وهي المواجهة المباشرة والوصول إلى ما يريدون بلا واسطة، والتعبير الثاني يشير إلى اتخاذ الوسائل والأدوات والمقدمات للوصول الى الإطفاء وهو التفسير الثاني في آية الصف فالقرآن الكريم يؤكد حقيقة خيبتهم وفشلهم في مساعيهم سواء واجهوا مباشرة أو اتخذوا لذلك مقدمات وأسباباً.

ان الأعداء لا يكلون ولا يملون بل يستمرون في محاولاتهم ولذا استعملت صيغة المضارع في ﴿يُرِيدُونَ﴾ فاراداتهم لهذه النتيجة مستمرة، قال تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزُدَّوَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: ٢١٧) عملاً بأوامر شيطانهم الكبير إبليس الذي يردد ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦) ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧).

(١) نقله المجلسي في بحاره: ٤٩ / ٢٦٢ / ح ٥.

(٢) المفردات للراغب: مادة (ظفأ) وقال في الهامش: راجع درة التنزيل للاسكافي: ١٩٥.

مما يوجب علينا لزاماً أن نستمر بالعمل لإعلاء كلمة الله تعالى ولنشر تعاليم الدين وحث الناس على العمل بالشرعية وتعريفهم بسيرة اهل البيت (عليهم السلام) لنحدث التوازن مع محاولات الأعداء بل نتفوق عليهم إن شاء الله تعالى.

ولنعلم ان هذا الهدف الإلهي العظيم إنما يتحقق على ايدي العاملين الرساليين المخلصين ﴿هُوَ الَّذِي أُيِّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأأنفال: ٢٤).

فلنحرص أشد الحرص على أن تكون لنا بصمة في تحقيق الهدف الذي ذكرته الآية فان المسيرة ماضية نحو التمام ولا تتوقف على وجود أحد، ومن يتخلف فإنما يحرم نفسه من هذا الفوز العظيم، وساحة العمل واسعة تتسع للجميع، ولكل دوره المناسب له، فوظيفتكم - كفضلاء وطلبة علوم الدينية - الدعوة الى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والإرشاد وتهذيب النفوس وتعليم احكام الدين ونشر سيرة اهل البيت (عليهم السلام) والامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن دوام القضية الحسينية واتساعها وتحولها إلى قضية إنسانية عالمية من أوضح تجليات هذه الآية المباركة حيث جهد الكثير من الطواغيت عبر التاريخ الماضي والحاضر لإطفاء هذا النور الإلهي العظيم لكنهم فشلوا وذهبوا إلى مزابل التاريخ وبقيت رسالة الإمام الحسين (عليه السلام) تخاطب الأجيال جميعاً وتزداد قوة وتأثيراً بفضل الله تبارك وتعالى، وهذا أوضح مثال على ان الله يتم نوره ولو كره الكافرون والمنافقون، فلا نتعاسس أولاً ولا ننبهر بقوة الباطل ثانياً.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾

موضوع القبس: الإعداد للعمل علامة على صدق الراغب فيه

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ۗ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ﴿٤٦﴾-﴿٤٧﴾).

قاعدة من قواعد العمل الصادق المخلص تبينها الآية الكريمة من خلال أحد فصول غزوة تبوك التي وقعت في السنة التاسعة للهجرة بعد فتح مكة^(١)، فقد نقل التجار القادمون من الشام أن هرقل الروم قد حشد جيشاً كبيراً في الشام يريد غزو المدينة للقضاء على الإسلام والمسلمين وانضمت إليه القبائل الشامية، فأمر النبي (ﷺ) أصحابه بالتهيؤ للخروج إلى تبوك وبعث إلى القبائل حوله وإلى مكة وإلى من أسلم من القبائل العربية فتحثهم على الخروج إلى الجهاد في خطبة مؤثرة، فرغب الناس في الجهاد لما سمعوها من رسول الله (ﷺ)، وقدمت القبائل من العرب ممن استنفرهم، وعسكر في ثنية الوداع خارج المدينة، وأمر أهل الحدة أن يعينوا من لا قوة به، فكان سफراً بعيداً شاقاً ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ (التوبة: ﴿٤٦﴾) في ظروف صعبة للغاية سماها القرآن ﴿سَاعَةَ الْعُسْرَةِ﴾

(١) انظر: البداية والنهاية- ابن كثير: ٥ / ٥، تاريخ الطبري: ٣٧٣ / ٢.

(التوبة: ﴿٩٧﴾).

فكانت هذه الغزوة امتحاناً للمجتمع المسلم تميّز فيه المؤمن الصادق من المنافق، فالمؤمنون الصادقون بادروا إلى التهيؤ والاستعداد، ومن لم يجد فقد وصفتهم آية أخرى من السورة ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة: ﴿٩٢﴾).

أما المنافقون فقد تخلفوا عن رسول الله (ﷺ) وآثروا الراحة والدعة متذرعين بأنواع الادعاءات، فنزلت الآيات الكريمة من سورة التوبة قوية في فضحهم^(١) وكذب دعاويهم، وتهديدهم بالخزي في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة، ((وتخلف عن رسول الله (ﷺ) قوم من أهل الثبات والبصائر لم يكن يلحقهم شك ولا ارتياب ولكنهم قالوا نلحق برسول الله (ﷺ)، منهم أبو خيثمة وكان قوياً وكانت له زوجتان وعريشان - وهو ما يستظل به - فكانت زوجته قد رشتا عريشيه وبرّدتا له الماء وهيئتا له طعاماً، فأشرف على عريشه، فلما نظر إليهما قال والله، ما هذا بإنصاف^(٢) رسول الله (ﷺ) فقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما

(١) من أسماء سورة التوبة (الفاضحة).

(٢) هذا الشعور الصادق يكشف عن علاقة خاصة مع رسول الله (ﷺ) ليست علاقة الحق والواجب أو الحرام والحلال أو الخوف من العقوبة والطمع في المكافأة وهي المؤثرات التي تضمن طاعة الأتباع لرئيس الدولة، بل علاقة الحب وإنصاف القائد من النفس ومراقبة تقديمه على النفس دائماً، وهي العلاقة التي أسس لها القرآن وحث عليها في مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ (التوبة: ﴿٥٠﴾)،

تأخر، قد خرج في الضحى - أي الشمس - والرياح وقد حمل السلاح مجاهداً في سبيل الله وأبو خيثمة قوي قاعد في عريشه وامرأتين حسناوين! لا والله ما هذا بإنصاف، ثم أخذ ناقته فشدّ عليها رحله فلحق برسول الله (ﷺ)، فنظر الناس إلى راكب على الطريق فأخبروا رسول الله (ﷺ) بذلك فقال رسول الله (ﷺ):
 كن أبا خيثمة، فاقبل وأخبر النبي بما كان منه فجزاه خيراً ودعا له.

وكان أبو ذر رحمه الله تأخر عن رسول الله (ﷺ) ثلاثة أيام وذلك أن جملة كان أعجف - أي مهزول - فلحق بعد ثلاثة أيام به، ووقف عليه جملة في بعض الطريق فتركه وحمل ثيابه على ظهره، فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل، فقال رسول الله (ﷺ): كن أبا ذر، فقالوا هو أبو ذر، فقال رسول الله (ﷺ): أدر كوه بالماء فإنه عطشان فأدر كوه بالماء، ووافى أبو ذر رسول الله (ﷺ) ومعه إداوة فيها ماء، فقال رسول الله (ﷺ): يا أبا ذر، معك ماء وعطشت؟ فقال: نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي؛ انتهيت إلى صخرة وعليها ماء السماء فذقته فإذا هو عذب بارد، فقلت لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله (ﷺ)، فقال رسول الله: يا أبا ذر، رحمك الله، تعيش وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك، وتدخل الجنة وحدك، يسعد بك قوم من أهل العراق يتولون

وهذه العلاقة تكشف لنا عن قوة الطاعة التي يريد الإسلام تأسيسها في دولة آل محمد صلوات الله عليهم، تضمن ولاء الأتباع ظاهراً وباطناً وطاعتهم حتى مع أمن الخوف وغياب الطمع، وتحثهم على المزيد دائماً وتقلل الأعمال في أعينهم وتخوفهم من قليل الذنب وتجعل الإنسان يوجب على نفسه المستحب ويحرم المكروه المرخص به.

غسلك وتجهيزك والصلاة عليك ودفنك))^(١).

في هذه الأجواء تفضح الآية الكريمة المنافقين الذين تكاسلوا وخذلوا رسول الله (ﷺ) وتقول: أنهم لو كانوا صادقين في إرادة الخروج معك لبان عليهم ذلك من خلال التحضير والإعداد للخروج لكنهم لم يفعلوا.

وجاءت ﴿عُدَّةٌ﴾ نكرة فأفادت عدة مداليل:

١- الإطلاق أي أنهم لو كانوا صادقين في إرادة الخروج معك للجهاد كان بإمكانهم تهيئة أيّ عدة يلون بها نداء الجهاد سواء كانت مالية أو بدنية أو بتجهيز غير القادرين ونحو ذلك، لكنهم لم يهيئوا أي شيء.

٢- دلالتها على القلة لتوبيخ المتقاعسين بأنهم لم يتخذوا أهبة الخروج حتى بالحد الأدنى وهي النية كما ورد في رواية العياشي في تفسيره عنه (عنه) قال: (يعني بالعدة النية، يقول: لو كان لهم نية لخرجوا)^(٢).

٣- التفخيم أي للدلالة على لزوم تهيئة العدة اللازمة لكل عمل بما يتطلبه، ووجوب تحمّل مسؤولية أي عمل بما يناسبه، فقتال الروم بأعدادهم الكبيرة وسلاحهم ذي البأس الشديد يتطلب عدة تناسبهم لإرعابهم ودفن خطرهم قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦) بينما هم تهربوا من المسؤولية بكل مستوياتها وتفاصيلها وبأعذار واهية.

(١) تفسير القمي: ١ / ٣٢١.

(٢) تفسير العياشي: ٢ / ٨٩ / ح ٦٠.

ولما لم يريدوا لأنفسهم الخير بطاعة الله تبارك وتعالى فقد سلب منهم التوفيق ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ (التوبة: ٤٦) فحرموا من طاعة الله تعالى والمضي مع رسول الله (ﷺ)، ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (التغابن: ٦) وباؤا بسخط من الله تعالى.

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي أقعدهم وحبسهم عن الخروج لا بجبرهم وإكراههم ولكن بحرمانهم من تأييده وتوفيقه فلم يستطيعوا الخروج، وكمثال على توفيق الله وخذلانه ما حكته الآيات الكريمة عن معركة بدر ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَوْكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ﴾ (الأنفال: ١٣)، فالإنسان بذاته ضعيف عاجز ويحتاج إلى توفيق من الله تعالى ليفعل الطاعة، وليست متاحة له متى شاء وكيف شاء (ولا ميسر لما عسرت، ولا ناصر لمن خذلت) ^(١) (وإن خذلتني نصرتك عند محاربة النفس والشيطان فقد وكلني خذلانك إلى حيث النصب والحرمات) ^(٢).

﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ القائل مجهول فإن كان من المنافقين كما أخبر تعالى في آية أخرى ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة: ٨١)، فالأمر واضح، ولعله تعبير عن لسان حالهم المنافق، وإن كان القائل هو الله تعالى فإنه ليس بمعنى النطق باللسان، وإنما بمعنى تعلق الإرادة بالعود، وقد شرحناه مفصلاً

(١) الصحيفة السجادية: ٥٧، الدعاء السابع.

(٢) مصابيح الجنان: ٩٦، دعاء الصباح.

في قبس قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)^(١)، وإن سلوكهم المنافق هو الذي أوجب ذلك، فهذا ليس أمراً تشرعياً حتى يقال بمنافاته مع الأمر بخروجهم إلى الجهاد.

وفي هذا التثبيط مصلحة للقاعدين ولعموم المسلمين، أما لهم فلحمائيتهم من آثام وأوزار إضافية يحملونها لو خرجوا؛ لأنهم سيثيرون الفتن في جيش المسلمين ويتسببوا في وهنهم وضعفهم كما عبرت الآية التالية فيزدادون إثماً إلى إثمهم، ففي تشييطهم عن الخروج رحمة بهم مع أنهم عاصون، وهكذا يحمي الله تعالى المؤمنين أيضاً فعن رسول الله (ﷺ): (إن من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادتي فيقوم من رقادته ولذيذ وساده فيتهجد لي الليالي، فيتعب نفسه في عبادتي فأضربه بالنعاس الليلة والليلتين؛ نظراً مني له وإبقاءً عليه، فينام حتى يصبح فيقوم وهو ماقت لنفسه، زار عليها، ولو أخلني بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله من ذلك العجب فيصيره العجب إلى الفتنة بأعماله، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه لعجبه بأعماله ورضاه عن نفسه، حتى يظن أنه قد فاق العابدين وجاز في عبادته حد التقصير، فيتباعد مني عند ذلك، وهو يظن أنه يتقرب إليّ)^(٢).

وأما لمصلحة المسلمين؛ فلكي يتعرفوا على المنافقين، ويتخلصوا من شرهم ومكائدهم، فإنهم ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾ أي معكم في صفوفكم ﴿مَا

(١) أنظر: تفسير من نور القرآن قبس قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

(٢) بحار الأنوار: ١٥١ / ٦٨.

زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴿١﴾ أي اضطراباً وقلقاً وتشوشاً مما يثبُط عزيمة المسلمين ﴿وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي أسرعوا في التغلغل بين صفوفكم، لأن الإيضاع يعني الإسراع في الحركة، فتنشر شبهاتهم وشكوكهم وفتنهم كسريان النار في الهشيم، وهدفهم أنهم ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ بتمزيق وحدتكم وتخويفكم وتثبيط عزائمكم، ومما يزيد المشكلة أنه ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ ويوجد في المسلمين جماعة من ضعاف البصيرة يتلقون منهم بدون تثبت وروية والرجوع إلى أهل الخبرة في هذا المجال كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْحُوفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣) ووجود مثل هؤلاء السماعين السذج الذين تنظلي عليهم الإشاعات والأكاذيب هو الذي ينجح مكائد الأعداء، ولو كان الجيش واعياً فظناً فإنها لا تؤثر أثرها، وربما أراد بالسماعين الجواسيس الذين يتلقون الشكوك والشبهات من الأعداء وينشرونها بينكم مما يقصم ظهر الجيش كما حصل لجيش أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفين فانشق آلاف الخوارج وتشوشت أفكار عدد كبير من الباقيين، لذا ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في التحذير من هذه الظاهرة (عوّد أذنك حسن الاستماع ولا تصغ إلى ما لا يزيد في صلاحك استماعه فإن ذلك يصدى القلوب ويوجب المدام)^(١).

وقال (عليه السلام) لبعض أمراء جيشه: (فانهذ بمن أطاعك إلى من عصاك، واستغن بمن انقاد معك ممن تقاعس عنك، فإن المتكاره مغيبه خير من مشهده، وعوده أغنى من نهوضه)^(١).

ويمكن استفادة عدة دروس وعبر من الآية الكريمة:

١- إن أي هدف يراد الوصول إليه وأي غرض يراد تحقيقه لا بد من تهيئة كل المقدمات اللازمة التي يتطلبها ابتداءً من الإرادة والنية الصادقة والعزم الراسخ ثم العمل، وهذا واضح فلا يحتاج إثبات وجوب مقدمة الواجب إلى بحث مفصل في علم الأصول، وإلا كانت أمني فارغة ويعد من السخرية بنفسه، كما ورد كما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر)^(٢)؛ إذ يكون فعله عبثاً، وروي عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله: (من سأل الله التوفيق ولم يجتهد فقد استهزأ بنفسه)^(٣).

إن الاستعداد يقوي العزم ويُخلص النية ويزيد من الوعي بالعمل، وقد لا يوفق الإنسان للعمل فيكتب له أجر النية، وقد يعلم الله منه الصدق من استعداده فيصرف عنه مؤونة العمل والبلاء ويكتب له ثوابه.

وهذه قاعدة عامة في الحياة سواء على مستوى الدراسة وطلب العلم أو الكسب أو العلاقات الاجتماعية أو مراتب الكمال وغير ذلك، وقد شرحنا ذلك

(١) نهج البلاغة: ٦/٣، الكتاب الرابع.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت): ١٤٥/٧.

(٣) كنز الفوائد، للكراچكي: ١/٣٣٠، بحار الأنوار: ٣٥٦/٧٥.

في قبس سابق من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾^(١) (الإسراء: ١٩)، فمن يريد الفوز في الآخرة بجنة عرضها السماوات والأرض لا بد أن يسعى لها سعيها المناسب والموصل إليها، ومن يدعو للإمام المهدي (عَلَيْهِ السَّلَام) بالفرج وينتظر خروجه عليه أن يعدّ نفسه بالتقوى والعمل الصالح، أما الكسل والتراخي والتسويق فإنه يحرم صاحبه من الطاعة، وإن الشيطان يتربّص به ليصدّه عن العمل الصالح، فليكن حذراً وقلقاً من تسويلات النفس الأمارة بالسوء، لئلا تؤدي به إلى مقت الله والحرمان من طاعته، قال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام): (وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرِّيبِ وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ)^(٢).

وتتضمن الأحاديث الشريفة أمثلة كثيرة لمثل هذا الإعداد لصلاة الليل مثلاً بالنوم المبكر وتقليل وجبة العشاء والدعاء بالمأثور وغيرها، أو الإعداد للحج بالادخار اليومي للمال ولو القليل حتى تجتمع عنده الاستطاعة ونحو ذلك.

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ فالله تبارك وتعالى لا يكره ذات الإنسان؛ لأنه خلقه في أحسن تقويم وأعدّه لرسالة عظيمة، إنما يكره عمله السيئ، إلا أن يتحول ذاته إلى معدن خبيث تصدر منه الأفعال القبيحة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ٥٧) وفي هذا درس بليغ على مستوى علاقاتنا الاجتماعية بالآخرين فإن المعمول به لدى الناس كراهة الشخص والحقد عليه

(١) أنظر: تفسير من نور القرآن قبس قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ (الإسراء: ١٩).

(٢) نهج البلاغة، الحكمة رقم (٣١).

وتسقيطه لمجرد صدور فعل كرهه الآخر منه، فلا بد من التفريق بين الشخص وعمله والتعامل معه بإنصاف وموضوعية، وقد فصلنا الكلام في هذا الدرس الاجتماعي في قيس سابق^(١)، وألحقنا به بحثاً في تفسير قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن الله يحب العبد، ويغض عمله)^(٢).

٣- إن طاعة الله تعالى كالحضور في صلاة الجمعة أو قيام الليل أو المشي إلى زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) أو المشاركة في الزيارة الفاطمية وغير ذلك ليست شرعة لكل واردة كما يقال، وإنما هي ألطاف إلهية خصَّ بها عبادة صادقين مخلصين ولا تُنال إلا بتوفيق الله تعالى لذا ورد في الدعاء (اللَّهُمَّ ارزُقْنَا تَوْفِيقَ الطَّاعَةِ وَبُعْدَ الْمَعْصِيَةِ)^(٣) أما الكسول والمتخاذل فلا نصيب له منها.

٤- المهم عند القيام بعمل ما أو إقامة مشروع ما هو نوعية العاملين لا عددهم، فقد يكون وجود بعض ضعاف النفوس والبصائر مضرراً بالعمل ومثبطاً للعزائم ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢١٩) فالفئة القليلة المتصفة بالصبر والإخلاص والتقوى تفوق في عملها الفئة الكثيرة المجردة من هذه الصفات، فلا يحزن المؤمنون لتخلف جماعة عن العمل.

(١) راجع قيس قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ (الأعراف: ١٧) في تفسير من نور القرآن.

(٢) نهج البلاغة: ٤٤ / ٢.

(٣) مفاتيح الجنان: ١٦٣.

٥- إن بعض الأمور قد نراها شراً لنا ونحزن لحصولها - كتخلف جمع من أهل المدينة عن الخروج إلى الجهاد مع رسول الله (ﷺ) بحسب الآية الكريمة - إلا أنه في الحقيقة خير للمؤمنين، فليكونوا راضين بقضاء الله تعالى ومطمئنين بقدره ومسلمين لأمره.

٦- التحذير من الاستماع لأي حديث على الفضائيات، أو كلام منقول في الكتب أو منشور على مواقع التواصل الاجتماعي، ويجب التثبت منه والرجوع إلى أهل الاختصاص للاستيثاق منه؛ فإن الإعلام من أهم أدوات الحرب الناعمة التي سنّها أعداء الإسلام، أما الساذج الغافل الذي يروج الأخبار الكاذبة المرجفة بالمجتمع المسلم أو المؤدية إلى تزلزل عقائدهم وانحراف أخلاقهم وسلوكهم أو تخريب ثقافتهم فإنه يبوء بإثم عظيم.

وخير مثال على من يعدّ العدة للعمل أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) كحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة الأسديين فإنهما تخفياً^(١) في عشيرتهما بعد أن خذل أهل الكوفة مسلم بن عقيل (رضوان الله عليه) حتى استشهد، وأحكم عبيد الله بن زياد قبضته على الكوفة، وطوّقها من جميع الجهات، وكان مصير شيعة علي القتل والاعتقال، فلم يشاء أن يُحرما من نصرة الإمام الحسين (عليه السلام)، وظلا يتحرّيان أخبار الإمام (عليه السلام) حتى سمعا بنزوله أرض كربلاء فخرجا إلى نصرته بخطة أفلتا بها من الحصار المضروب على الكوفة، حتى نالا شرف الشهادة بين يدي أبي عبد الله (عليه السلام)، فطوبى لهم وحسن مآب وحشرنا الله تعالى في زمرتهم مع النبي وآله الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين).

(١) إِبْصَارِ الْعَيْنِ، لِلْسَمَاوِيِّ: ٧٦، ٨٢.

القبس/٧٨

سورة التوبة: ﴿٤٩﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾

موضوع القبس: فتنة توظيف العناوين الدينية لأهواء شخصية

معنى الآية باختصار: أن من المنافقين من يقول لرسول الله (ﷺ) أئذن لي في ترك الجهاد والتخلف عن جيش المسلمين الذاهب مع رسول الله (ﷺ) لقتال الروم في تبوك ويبرّر ذلك بأن تكليفه بالجهاد يوقعه في المعصية ومخالفة الأمر الشرعي ويسبب له الفتنة عن الدين فيجيبه الله تعالى بأنه بسلكه المخادع هذا قد وقع في الفتنة عن الدين وارتكب معصية كبيرة.

والآية الكريمة تكشف عن حالة منافقة يسقط فيها بعض افراد المجتمع المسلم الذين يتبعون أهواءهم ويكون همّهم إرضاء أنانياتهم فإنهم حينما يريدون التنصل من مسؤولياتهم الاجتماعية وعدم أدائهم لواجباتهم تجاه دينهم وأمتهم أو يريدون تحقيق مكاسب شخصية فإنهم يسوّقون أعذاراً بعناوين دينية متظاهرين بالورع والخوف على الدين لإقناع الآخرين ومحاولة خداعهم ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ٩٦).

وكشاهد على ذلك نذكر الحادثة التي نزلت فيها الآية الكريمة بحسب ما ذكره أرباب الحديث والسير والتاريخ وذلك أن النبي (ﷺ) لما بلغه اجتماع الروم في بلاد الشام لغزو المدينة والقضاء على الإسلام قرّر الذهاب لهم لمواجهتهم في عقر دارهم فاستنفر المسلمين وحثّهم على الجهاد فاستجاب له

عدد كبير من أهل المدينة وقبائل العرب التي دخلت الإسلام رغم العسرة التي كان المسلمون فيها وقعد قوم من المنافقين وغيرهم (ولقي رسول الله ﷺ) الجد بن قيس - وهو من وجوه بني سلمة من بطون الخزرج وكان من المنافقين - فقال له: يا أبا وهب الا تنفر معنا في هذه الغزاة لعلك ان تحتفد - أي تستخدم - من بنات الأصفر - وهم الروم - ؟ فقال: يا رسول الله إن قومي ليعلمون أنه ليس فيهم أحد أشد عجباً بالنساء مني، وأخاف إن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر فلا تفتني وائذن لي أن أقيم^(١)، وقال لجماعة من قومه: لا تخرجوا في الحر، فقال ابنه: تردّ على رسول الله ﷺ وتقول ما تقول؟ ثم تقول لقومك لا تنفروا في الحر؟ والله لينزلن الله في هذا قرآناً يقرؤه الناس إلى يوم القيمة، فأنزل الله على رسوله في ذلك: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ثم قال الجد بن قيس أيطمع محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم؟ لا يرجع من هؤلاء أحد أبداً^(٢)، فادعى هذا الشخص أنه يخاف على دينه لو أمره رسول الله ﷺ بالجهاد من فتنة النساء الروميات أو من فتنة الانتصار ومكاسبه عموماً أو من ويلات الحرب فيضعف أمامها أو أنه يخشى ترك أهله وأمواله فيطلب من النبي ﷺ الإذن له بترك الجهاد حتى لا يقع في المخالفة، ولكنه بتخاذله ونفاقه وقع في الفتنة التي زعم أنه يريد تجنبها.

(١) وفي رواية ابن إسحاق (فاعرض عنه رسول الله ﷺ) وقال: قد أذنت لك).

(٢) تفسير القمي: ٢٩٢/١.

وتضمنت آية أخرى ما ظاهره العتاب لرسول الله (ﷺ) على إعطائه (ﷺ) الإذن بالتخلف عن الجهاد، لكنها قدّمت أولاً الدعاء له بالعفو قال تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة: ٤٣) ﴿٤٣﴾ ولو جعلهم (ﷺ) على المحك ولم يأذن لهم، حتى يفتضحوا وينكشف عزمهم على المخالفة وتقاعسهم عن أداء الواجب حتى لو أمرهم رسول الله (ﷺ) بالخروج ولكيلا يجعلوا الإذن غطاء لشرعنة ارتكابهم هذه المعصية الكبيرة، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ (التوبة: ٤٦) ﴿٤٦﴾، وروى علي بن إبراهيم في تفسيره عن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسيرها (تعرف أهل العذر والذين جلسوا بغير عذر)^(١).

فأريد من هذا الخطاب الموجه إلى النبي (ﷺ) تنبيه الأمة إلى أن هذه الأعداء لا تنظلي على الله تعالى ورسوله (ﷺ) لكن النبي (ﷺ) لكرم أخلاقه ستر عليه ورأى عدم الفائدة في خروجه بل إن وجوده وأمثاله ضارٌّ بجيش المجاهدين ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ٤٧) ﴿٤٧﴾، فترك الله تعالى نبيه (ﷺ) ليتصرف وفق ما تقتضيه أخلاقه الكريمة ثم أنزل ما يفضح أولئك المنافقين فتحقق بالنص الإلهي ما لم يتحقق لو لم يسبقه التصرف النبوي.

(١) تفسير القمي: ٢٩٤/١.

ولخطورة هذه الفتنة فقد أحرَّ الله تبارك وتعالى التنبيه عليها لما بعد ظروف المعركة، ولولا حكمة النبي (ﷺ) لاستطاع هذا المنافق أن ينشر فتنته في المجتمع لأنه غلَّفها بإطار ديني تنخدع به فئة من الناس ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾، نعم هناك معذورون عن الجهاد ذكرتهم الآيات الكريمة وليس هؤلاء المتخاذلون منهم.

وفي مقابل هؤلاء المتخاذلين كان المؤمنون الصادقون سباقين لطاعة الله تعالى ورسوله (ﷺ) من دون تردد ومناقشة ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٤١).

هذه الحالة المنحرفة للهروب من المسؤولية وتبرير مخالفة أوامر الله تعالى وتسخير الواجهات الدينية لتحصيل المصالح الشخصية موجودة على كل المستويات، وأخطرها على الإطلاق ما حصل بعد رحيل رسول الله (ﷺ) حيث برَّر الانقلابيون مخالفتهم لرسول الله (ﷺ) في وصيته بأمر المؤمنين (عليه السلام) بأنهم خافوا الفتنة إن أمروا علياً (عليه السلام) ولم يتصدوا هم للسلطة وخلافة النبي (ﷺ) فقالوا تارة ((ان قريشاً كرهت ان تجتمع فيكم - أي بني هاشم - النبوة والخلافة، فتجحفون على الناس))^(١) وقالوا ((فاختارت قريش لأنفسها فأصابنا ووفقت))^(٢)، وكان الآية الكريمة تفضح نوايا الانقلابيين وما عزموا عليه قبل وقوع الحدث بستين تقريباً وقد كشف الله تبارك وتعالى محاولاتهم العديدة في

(١) المراجعات للسيد شرف الدين: ٣٥٠، وقد نقله عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٠٧/٣،

والكامل لابن الاثير: ٢٤/٣ في أحوال عمر،

(٢) تاريخ الطبري: ٢٨٩/٣،

إخفاء الحق لكن الله تبارك وتعالى أظهره وأتمه في يوم الغدير، قال تعالى ﴿لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة: ٤٨) فجاء الحق وظهر أمر الله في يوم الغدير وهم كارهون معاندون ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة: ٤٥).

أيها الأحبة الكرام

لقد ذكرتهم السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) بهذه الآية الكريمة فقالت (عليها السلام): (فلما اختار الله لنبِيِّه دار أنبيائه ومأوى أصفِيائه ظهر فيكم حسكة النفاق) الى أن قالت (عليها السلام) (زعمتم خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فهيات منكم وكيف بكم وأنى تؤفكون وكتاب الله بين أظهركم؟ أموره ظاهرة وأحكامه زاهرة وأعلامه باهرة وزواجه لائحة وأوامره واضحة وقد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون أم بغيره تحكمون ﴿بئس لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١).

ثم بينت (عليها السلام) لهم خطورة الفتنة التي أحدثوها فقالت (ويحهم أنى زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة والدلالة ومهبط الروح الأمين والطيبين^(٢) بأمور الدنيا والدين ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(٣) فتبين السيدة

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١/ ١٣١.

(٢) الطيبين: الفطن الحاذق العالم بالاشياء.

(٣) الاحتجاج للطبرسي: ١/ ١٣٨.

الزهراء (عليها السلام) لهم أنهم بفعلهم هذا سقطوا في قعر الفتنة وإن ادّعوا أنهم يريدون وقاية الأمة منها ففضحت زيف دعاواهم ونواياهم الحقيقية وعظم جنائتهم على حاضر الأمة ومستقبلها حيث جرّ هذا الانقلاب الولايات والكوارث على الأمة من تحريف الدين وسفك الدماء وهدر الأموال وتسلط الأشرار وتشريد الصالحين وضياع القيم والمبادئ الإنسانية وغير ذلك^(١).

وقد اعترف قادة الانقلاب بأن ما جرى في السقيفة كان فتنة تمزق الأمة وتؤدي الى انحرافها عن طريق الصلاح والكمال لكنهم ادّعوا أنها مرّت بسلام قال عمر في كلمته المشهورة التي تناقلها المؤرخون وكتاب السير^(٢) (ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وقي الله شرها فمن دعاكم إلى مثلها فاقتلوه)^(٣) وقال ابن الأثير في معنى الحديث ((أراد بالفلتة الفجأة، ومثل هذه البيعة جديدة بأن تكون مهيجة للشر والفتنة فعصم الله من ذلك ووقى، والفلتة: كل شيء فعل من غير روية وإنما بُودر بها خوف انتشار الأمر))^(٤).

وقد زرعوا هذه الفكرة في اذهان الناس لتضييع الحقيقة مما دعا الأئمة الى بيانها، روى الشيخ الكليني في روضة الكافي بسنده عن ابي المقدم قال قلت لأبي

(١) راجع تفصيل ذلك في موسوعة (خطاب المرحلة: ٢١٧/١) خطاب بعنوان (ماذا خسرت الأمة حينما ولّت أمرها من لا يستحق) وفي تفسير من نور القرآن، في ذيل قيس قوله تعالى: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٤٩).

(٢) مثل تاريخ يعقوبي وشرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد والإمامة والسياسة لابن قتيبة والصواعق المحرقة لابن حجر والملل والنحل للشهرستاني.

(٣) بحار الأنوار: ٤٤٨/٣٠.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤٦٧/٣ مادة (فلت).

جعفر الباقر (عليه السلام): ان العامة يزعمون ان بيعة ابي بكر حيث اجتمع الناس كانت رضا لله عز ذكره، وما كان الله ليفتن أمة محمد (ﷺ) من بعده، فقال أبو جعفر (عليه السلام) أو ما يقرأون كتاب الله، أو ليس الله يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤) (١).

وأي فتنة أعظم من تصدي غير المؤهلين لقيادة الأمة والتسلط على رقاب الناس في ذلك الزمان وفي كل زمان سواء بالخداع والمكر أو بالتضليل الإعلامي أو بالانقلابات العسكرية أو عبر الانتخابات المزورة أو باستخدام المال السياسي المسروق من قوت الشعب فينتشر الفساد والانحلال وتسرق ثروات الشعب وتهدر كرامته وتسفك الدماء المحرمة وتشيع الفوضى ويختل النظام والأمن وتضيع العدالة الاجتماعية ويؤول أمر البلاد الى الخراب.

إن هذه الفئة المتخاذلة والمتعاسة عن أداء واجباتها هي نفسها التي كانت تواجه أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما كان يستنهضهم لجهاد الباغين بالأعداء الواهية من الحر والبرد ففضحهم أمير المؤمنين (عليه السلام) وكشف عن حقيقة نفاقهم بقوله ﴿فَإِذَا أَمَرْتُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَذِهِ حَمَازَةُ الْقَيْظِ أَمْهَلْنَا يُسَبِّحُ عَنَّا الْحَرُّ وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَذِهِ صَبَارَةُ الْقُرِّ أَمْهَلْنَا

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ٨ / ٢٩٤ / ح ٣٩٨.

يَنْسَلِخَ عَنَّا الْبَرْدُ كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللَّهِ مِنَ السَّيْفِ أَفْرُ^(١).

إن فتنة هذه التبريرات تكون أخطر حينما تُغلف بدعوة دينية كما في دعوى هؤلاء المنافقين الذين ذكرتهم الآية فأنهم يريدون التفريق بين الرسول والرسالة فيعصون الرسول ويزعمون أن ذلك من حرصهم على الالتزام بالرسالة كادعائهم الخوف من الفتنة عن الدين أو دعوى أصحاب السقيفة خوفهم على الناس من الارتداد ومن تمزق المجتمع، وكانهم أعلم من رسول الله (ﷺ) فيما ينبغي فعله وكانهم يتهمونهم في عدم إرادة صلاح الأمة، أو أنهم أعلم من الله تعالى بمصالح العباد وأحرص منه سبحانه على الدين وأحكامه قال الله تعالى مستنكراً ذلك منهم ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٦) ويذكروهم الله تعالى بأن نواياهم الحقيقية لا تخفى على الله تعالى وانه سبحانه يميز بين الحقائق والادعاءات ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ (البقرة: ١٣٣).

وختمت السيدة الزهراء (عليها السلام) تحذيرها بالعاقبة التي ذكرتها الآية الكريمة ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فهم محاطون بالنار من جميع الجهات ولا يستطيعون التخلص منها، والتعبير باسم الفاعل (لمحيطه) الذي يدل على فعلية الاتصاف يعني أنهم الآن واقعون حقيقة في نار جهنم التي أججوها بمعاصيهم^(٢)

(١) نهج البلاغة: ٧٠/١.

(٢) وفي الحديث إن رسول الله (ﷺ) كان قاعداً مع أصحابه فسمعوا هدة عظيمة فارتاعوا فقال رسول الله (ﷺ) أتعرفون ما هذه الهدة، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: حجر ألقى من أعلى جهنم منذ

الا انهم لغفلتهم لا يشعرون بها ككثير من الحقائق التي هم غافلون عنها ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق:٢٢).

ويمكن أن يكون معناها إن الكافرين صائرون حقيقة إلى هذه النتيجة فالتعبير باسم الفاعل يفيد الوقوع الأكيد لهذه النتيجة الآن أو في المستقبل.

أو إن إحاطتها بهم بلحاظ الأسباب والمقدمات أي انهم الآن محاطون بأسباب الوقوع في جهنم وهي الذنوب ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٨٨)، وقد أحاطت بهم ذنوبهم على مستوى النيات والأفعال.

إن هذه الحالة التي تحذر منها الآية الكريمة لا تختص بواجب الجهاد بل سائر المسؤوليات الشرعية حيث تجد الذين في إيمانهم نقص وفي قلوبهم شك يقدمون أعداءراً واهية لا تخفى على من يستمع إليها وربما سوقوها بعناوين دينية وقد يكون صاحبها ممن له اطلاع على الفقه فيغلفها بمصطلحات دينية لتمريرها لكن أعدارهم ونواياهم الحقيقة لا تخفى على الله تعالى ولا على الواعي الفطن، أعاذنا الله تعالى وإياكم من الفتنة.

سبعين سنة وصل الآن الى قعرها وسقوطه فيها هذه الهدية فما فرغ من كلامه الا والصراخ في دار منافق من المنافقين قد مات وكان عمره سبعين سنة فكبر رسول الله (ﷺ) وعلم الحاضرون أن الحجر هو ذلك المنافق الذي كان يهوي في جهنم مدة عمره فلما مات استقر في قعرها (حكاه السيد عبدالله الجزائري في كتاب (التحفة السنية: ١٧) عن كتاب اليقين للفيض الكاشاني: ١٠٠٢/٢، أقول: أصل الحديث رواه مسلم في صحيحه ص ١٠٠٧ رقم ٢٨٤٤.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾

موضوع القبس: العطاء في سبيل الله تعالى غنيمة وليس خسارة

تبيّن الآية الكريمة صفة من صفات المنافقين من أعراب وغيرهم وهي أنهم يعدّون ما ينفقون من أموال ليحافظوا على وجودهم في المجتمع الإسلامي مغرمًا أي تلفًا وخسارةً وتضييعًا للأموال لأنهم لم يعطوها عن إيمان وعقيدة ونية مخلصة لله تعالى حتى يبتغوا بها الأجر والعوض، وإنما انفقوها رياءً أو سمعة أو ليتظاهروا بأنهم ملتزمون بالدين وهم يستبطنون التمرد على الله تعالى وعدم الاعتراف بشريعته فلا يستفيدون مما انفقوا شيئًا فينتابهم الأسى لما فقدوا من أموال بلا فائدة من وجهة نظرهم.

ولو كانوا صادقين في إيمانهم لاعتبروا ما ينفقون في سبيل الله تعالى ونصرة نبيه (ﷺ) ونشر دينه والمساهمة في المشاريع الخيرية ومساعدة المحتاجين (مغرمًا) لأنه سيعود عليهم بالخير الكثير في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأنه سينمي المال ويزيده وإنما سميت الزكاة بهذا لأنها سبب لنمو المال وزيادته وكذا الصدقة فإنها تستنزل الرزق وتدفع البلاء.

وأما في الآخرة فإن الله تعالى يضاعف الأجر لمن أنفق في سبيله أضعافاً مضاعفة حتى قال تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

(البقرة: ٢١٧) فالإنسان الواعي ذو البصيرة يجد ما ينفق في سبيل الله غنيمة ورزقاً لا يمكن تفويته فيسعى اليه ويحرص عليه، سواء تعلق الانفاق بالمال أو الجهد أو الوقت أو التفكير والاهتمام أو الكلمة الطيبة وغيرها ويرتقي ليكون الانفاق بالنفس والولد.

فيرى المنافقون - وربما بعض ضعاف الايمان - ان من يصرف المال لبناء مسجد أو تزويج شاب مؤمن أو إقامة مشروع خيري، قد أضاع ماله الذي جمعه بجهود مضيئة، ويرى ان من يقتل في سبيل الله وحماية المقدسات مغرراً به قد خسر دنياه وهكذا.

ولأن المنافقين يعتبرون كل هذا الانفاق مغرماً وخسارة وعملاً عبثياً لا فائدة منه فهم يثبطون العاملين واثنونهم عن عزمهم على فعل الخير والمعروف ويطلبون منهم ان يوفروا مالهم ووقتهم وجهدهم لشؤونهم الشخصية وعدم تضييعها في المشاريع العامة المثمرة، فعلى المؤمنين الواعين الذين يعرفون جيداً ان هذا العمل والانفاق مغنم وخير وبركة ان لا يتأثروا بأراجيف المنافقين.

وإذا استوعب الانسان هذه الحقيقة فانه سيتجاوز الكثير من المصائب والمصاعب وسيندفع نحو عمل الخير، خذ مثلاً ما جاء فيمن فقد جنيماً سقط من بطن أمه قبل اكتمال نموه عن الإمام الصادق (عليه السلام) حيث نقل قول جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) (إن السقط يجيء محببناً على باب الجنة فيقال له: أدخل الجنة، فيقول: لا، حتى يدخل أبواي الجنة قبلي)^(١).

(١) وسائل الشيعة: ٢٠ / ١٤ / أبواب مقدمات النكاح، باب ١ / ح ٢.

لاحظوا كيف تحول المغرم إلى مغنم والألم إلى أمل بفضل الله تعالى وان من مرّت به مثل هذه المصيبة قد انفتحت امامه فرصة عظيمة لطاعة الله تعالى والفوز برضوانه ذلك بأن هذا الجنين الذي مات سيكون شفيعه يوم القيامة ولا يدخل الجنة الا ويدخل أبويه معه، فأى غنيمة أعظم من هذه؟ فتهون عليه المصيبة ويرضى بقضاء الله تعالى.

وهكذا من يجمع الأموال بعرق جبينه ثم يضعها في مشروع خيري فإنه لا يرى نفسه قد خسر شيئاً وانه أضاع ماله بل قدمه ثمناً لغنيمة عظيمة. أقول: هذا لاطمأن أحبّتي من المواكب والجمعيات الخيرية وسائر المؤسسات الدينية والإنسانية والاجتماعية المباركة الذين يواصلون الليل والنهار في خدمة الناس وعمل المعروف وإقامة شعائر الدين ان لا يشبّطهم كلام الكسالى والمرائين وفاقدي البصيرة ومسلوبي التوفيق.

وقد حكى لنا التاريخ مواقف لعظماء عرفوا قيمة هذه الغنيمة مثل عبدالله بن عمرو الأنصاري والد جابر بن عبدالله الأنصاري فإنه بعد ان فاضت روحه الطاهرة شهيداً في معركة أحد مع رسول الله (ﷺ) تلقته الملائكة وسأله الله تبارك وتعالى عن ماذا يريد وماذا يطلب؟

فقال: أريد ان ارجع الى الدنيا لأقاتل وأقتل شهيداً مرة أخرى لما رأى من الكرامة التي تمنح للشهيد^(١).

(١) روى طلحة بن خراش الأنصاري قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: نظر إلي رسول الله (ﷺ) فقال: "ما لي أراك منكسراً مُهْتَمّاً؟" قلت: يا رسول الله، قتل أبي وترك ديناً وعيالاً. فقال: "ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحداً قطّ إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كِفَاحًا، فقال: يا عبدي، سلمي أعطك. قال:

وهكذا كان أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) يقفون بين يديه ويسلمون عليه ويتمنى أحدهم أن يقتل ثم يحيى ثم يقتل سبعين مرة دفاعاً عن الإمام الحسين (عليه السلام) ولا يرى في ذلك مغرمًا وتلفاً بل مغنماً وربحاً كقول زهير بن القين ((والله لو ددت لو أني قُتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى اقتل كذا الف قتلة، وإن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك))^(١) ومثله قال سعيد بن عبد الله الحنفي.

ومثله ما ورد في خطاب العقيلة زينب (عليها السلام) للطاغية ابن زياد لما قال لها متشفياً (كَيْفَ رَأَيْتِ صَنَعَ اللَّهُ بِأَخِيكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ؟ فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ فَبَرَزُوا إِلَيَّ مَضَاجِعِهِمْ، وَسَيَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ فَتُحَاجُّ وَتُخَاصِمُ، فَانظُرْ لِمَنْ الْفَلَجُ يَوْمَئِذٍ)^(٢).

أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية! قال: إنه قد سبق مني أنهم لا يردون إليها ولا يرجعون. قال: يا رب، أبلغ من ورائي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

أخرجه الترمذي في التفسير تفسير سورة آل عمران: ٣٦٠ - ٣٦١ وصححه الحاكم في المستدرک: ٢٠٣/٣ وزاد السيوطي نسبه للطبراني وابن خزيمة وابن مردويه والبيهقي في الدلائل " الدر المنثور: ٣٧١/٢ وأخرجه الواحدي بسنده في أسباب النزول ص (١٦٢). وقال الألباني في تخريج السنة: إسناده حسن رجاله صدوقون على ضعف في موسى بن إبراهيم بن كثير.

(١) تاريخ الطبري: ٤١٨/٥، الكامل في التاريخ: ٥٥٩/٢، الارشاد: ٩١/٢، وغيرها من المصادر التي ذكرها ريشهري في كتاب الصحيح من مقتل سيد الشهداء: ٦٢٨.

(٢) راجع المصادر في الصحيح من مقتل سيد الشهداء: ١٠٥٢/ح ١٥٢٣.

وهذه الحقيقة القرآنية ثابتة بالاتجاه الآخر إذ قد يعدُّ أهل الدنيا والمغترّون بها والغافلون عن الآخرة أن بعض ما يعتبرونه مغنماً هو مغرم ووبال عليهم لأنهم لم يتورعوا في تحصيله ولا وضعوه في موضعه ولا أدوا فيه حقوق الله تعالى. وعبرت العقيلة زينب (عليها السلام) بوضوح عن هذه الحقيقة في خطابها الذي هزّ عرش يزيد الطاغية بقولها (ولئن اتَّخَذْتَنَا مَغْنَمًا، لَتَجِدَنَّا وَشِيكًا مَغْرَمًا، حين لا تجدُ إلا ما قدَّمْتَ وما ربُّك بظلامٍ للعبيد)^(١).

(١) الاحتجاج: ٢/١٢٣، بحار الأنوار: ٤٥/٢١٥٧ ح ٥.

القبس/٨٠

سورة التوبة: ﴿١٧٨﴾

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾

موضوع القبس: الفوائد النفسية والاجتماعية في التردد على
المساجد

﴿فِيهِ﴾ أي في المسجد إشارة الى ما تقدم من الآية الكريمة ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾.

فالمسجد الذي يُشَيَّد على أساس التقوى والاخلاص هو الذي يستحق ان تقوم فيه للصلاة والذكر وسائر الطاعات، لا المسجد الذي يؤسس رياءً وسمعة أو نفاقاً أو ضراراً وتفريقاً بين المسلمين أو نحو ذلك، لأن مسجد التقوى يضم أناساً يحبون أن يتطهروا بحضورهم في المساجد أي يتزهدوا عن الرذائل والنقائص والعيوب، فتراهم يتسابقون لنيل الكمالات الروحية وتهذيب نفوسهم وتنقية قلوبهم، وقد وصفت آية أخرى جانباً من تطهرهم في قوله تعالى ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۗ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور: ٣٦-٣٧).

وهذا التطهر المعنوي شامل في أول درجاته للتطهر المادي من الخبث لذا وردت بعض الروايات التي تفسر التطهر بغسل موضع الغائط بالماء، ثم التطهر المعنوي من الحدث بالوضوء، ويظهر من الآية أن وجود هؤلاء المتطهرين في

المسجد المؤسس على التقوى بيان لصفة من صفات هذا المسجد، أو إنه علة وكأنه هو السبب الذي جعله أحق ان تقوم فيه للصلاة.

وهؤلاء المهتمون بالتطهير يحبهم الله تعالى، وهي الحقيقة التي أكدها قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢) فلا يريدون من حضورهم في المساجد رياءً ولا سمعة ولا لخداع الناس أو التسلط عليهم والتعالي باسم الفضيلة.

وهذا العنوان الجميل ﴿ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ يلخص كل ما يتصف به هؤلاء من معاني النقاء والسمو والعفاف والنبل والخير والمعروف، والواقع يشهد على ذلك فان المسلمين هم الأمة الوحيدة التي تعني بالطهارة المفصلة من الخبائث، ونظافة البدن والثوب من اعيان النجاسات، وكثرت فيها أحكام الشريعة حتى كان كتاب الطهارة من أضخم الكتب الفقهية، وقد عرفهم به اعداؤهم أيضاً حينما أرادوا أن يلخصوا توصيف سلوكهم العفيف وتحليلهم بالفضائل واجتنابهم الفحشاء والمنكر والبغي والظلم والخبائث قالوا عنهم ﴿ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (النمل: ٥٦) ولكن ماذا كان ردهم العاجز ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٨٢) وقد تكرر الحدث في القرن الماضي عندما انفصل المسلمون عن الهندوس في الهند وأسوا دولة جديدة اسمها باكستان وهي تعني دولة الانقياء والمتطهرين.

والتطهير سبب لتلقي الكمالات والمعارف الإلهية، قال تعالى ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (الواقعة: ٧٨-٧٩) أي أن حقائق القرآن

الكريم ومعارفه التي فيها تبيان كل شيء في كتاب مكنون في لوح محفوظ لا يصل اليه ولا يطلع عليه الا المطهرون، ومن هم المطهرون؟ انهم النبي وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين)، لأنهم بلغوا الغاية في الطهارة والعصمة قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) أما غيرهم فينالون من حقائق الكمال والمعرفة بقدر درجاتهم من الطهارة المعنوية، قال تعالى ﴿فَسَأَلَتْ أَودِيَةٌ بِقَدْرِهَا﴾ (الرعد: ١٧).

وتطهير القلب من الاغلال، والنفس من الادران هو غرض التشريعات الإلهية قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٣) وقال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣) وقال تعالى ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة: ٦) وقال تعالى ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٨) وقال تعالى ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُؤَاكُمُ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ (المجادلة: ١٢).

هذا بيان مختصر لمعنى الآية، وما نريد أن نقبسه من نورها أنها تبين عنوانين رئيسيين للثمرات الحاصلة من التردد على المساجد والتجمعات الإيمانية وهما:

١- نيل الكمالات الروحية بتطهير القلب وتهذيب النفس وتنزيههما عن الرذائل الخلقية والنقائص والعيوب.

٢- اعلان الانتماء الى الجماعة الصالحة المؤمنة وهم المتطهرون.

ويتضمن كل من العنواين عدة ثمرات جمعها أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله (من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو يسمع كلمة تدلّه على هدى، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردّه عن ردى، أو يترك ذنباً خشية أو حياءً)^(١)، أي يحصل على احداهن على الأقل والا فان المتوقع تحصيلها جميعاً بفضل الله تعالى، ونقل الشيخ الصدوق أيضاً حديثاً آخر بلفظ مقارب عن الحسن بن علي (عليه السلام) عن رسول الله (ﷺ).

ويمكن توضيح هذه الثمرات ضمن نقاط:

١- نيل الثواب والقرب من الله تعالى والسمو الروحي: باعتبار أنّ هذا العمل فيه طاعة لله تبارك وتعالى وذكر له ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، فيوفّر فرصة للعبد المؤمن في التقرب إلى الله سبحانه والرقى في مدارج الكمال، وتفيد الأحاديث الشريفة ان مجرد الحضور في المسجد يحقّق هذه الثمرة، فاذا صلّى فيه تضاعف، فاذا كانت الصلاة في جماعة تضاعف أكثر، وقد ذكرنا جملة من هذه الأحاديث في قيس ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ١٨) ومنها قول رسول الله (ﷺ) (من مشى الى مسجد من مساجد الله فله بكل خطوة خطاها حتى يرجع الى منزله عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات)^(٢)، وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من أقام في مسجد بعد صلاته انتظاراً للصلاة فهو ضيف الله، وحقّ على الله أن يُكرم ضيفه)^(٣).

(١) كتاب الخصال للشيخ الصدوق: ج ٢ / ص ٤٠٩.

(٢) وسائل الشيعة: ٥ / ٢٠١ / ح ٣، ط. آل البيت (عليه السلام).

(٣) بحار الأنوار: ٣٥١ / ٨٥.

وكلُّ منَّا يحس بوجوده حالة السكينة والطمأنينة وسمو الروح وهو يدخل هذه المشاهد المشرفة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة، لأنَّ الجنة فيها رضى نفسي، والجامع فيه رضى ربي)^(١).

٢- الجهة التربوية: فإن المسجد أحد المراكز التي يتلقى الإنسان فيه تربيته كالبيت والمدرسة، بل إنَّ ما يناله الفرد من التربية في المسجد أهم وأكمل باعتباره متمحضاً في الخير، ولا يتصور فيه الانحراف والزيغ كالذي يمكن في البيت أو المدرسة، وإنَّ الكثير من المؤمنين لم يحصل على تربيتهم فيهما لخلوهما من الصلاح، وإنَّما نالوا تربيتهم في المسجد، ومهما تراجع دور البيت والمدرسة في تنشئة الجيل نشأةً صالحة فإن المسجد باقٍ يؤدي وظيفته، كما أنَّ هناك بعض الجرعات الإيمانية الواعية تعجز عن إعطائها الأسر الاعتيادية لأنائها فيضطلع بها المسجد الذي ما زال يركّز في نفوس مرتاديه حب الله وعدم الانخداع بأمور الدنيا ونبذ العادات السيئة كالكلام الفاحش والتنايز بالألقاب والمزاح المهين، والتغلب على الأمراض النفسية كالبخل والحرص والغرور والغضب والتكبر والعجب والرياء وحب النفس، والتحلي بالأخلاق الفاضلة كالإيثار والصبر والحلم والشجاعة والكرم والعطف واللين والتسامح والتواضع وحب الخير للآخرين، وبهذا تكتمل شخصية الفرد المؤمن وينعكس ذلك واضحاً منه على علاقاته الاجتماعية وعلى أسرته، بل نراه يرجع إلى أسرته التي لم تعطه ما أعطاه المسجد فيفيض عليها مما رزقه الله من فيوضاته في المسجد، والشواهد على ذلك

(٣) وسائل الشيعة: ٥/ ١٩٩، ج ٦، ط. آل البيت (عليه السلام).

كثيرة في مجتمعنا^(١).

٣- الجهة العلمية والثقافية: فإن المسجد سيفتح لمرتابه فرصاً عديدة للاستزادة من العلم النافع والثقافة المفيدة من خلال الدروس والمحاضرات الفقهية والأخلاقية والعلمية التي تعقد في المسجد، أو الاستفادة من إصدارات ونشرات العلماء والمفكرين التي تصل إلى المسجد، أو إجابة الأسئلة المختلفة التي تصل إلى أمام المسجد، أو استعارة الكتب الموجود فيه، أو من خلال اللقاءات والحوارات التي تدور مع المثقفين والواعين من مرتابي المسجد.

٤- الجانب الانتمائي والارتباطي: فإن الإنسان بطبعه يميل إلى الانتماء للجماعة ولا يجد لنفسه قيمة الا عندما يكون جزءاً من جماعة. ولا يستطيع أن يعيش وحده، فلا يحس بوجوده الكامل إلا من خلال انتمائه للجماعة، فترى أحدهم يفتخر بانتمائه الى القومية أو البلد أو العشيرة لأنه يحس بأن انتمائه هو هويته، وآخر ينتمي إلى جماعة الرياضيين وتؤسس روابط لمشجعي أندية الكرة، وآخر ينتمي إلى رواد الفن واللهو، وآخرون إلى الاتجاهات السياسية والفكرية وغيرها، وأي انتماء أفضل من ذلك الذي يحققه له وجوده في المسجد فيشعر بأنه عضو في الجماعة المؤمنة الصالحة هذا الكيان المقدس الذي رأسه رسول الله (ﷺ) وأركانهم أمير المؤمنين والأئمة الطاهرون (عليهم السلام) من ولده، وأفراده المتبعون لسيرتهم من الراضين المرضيين الفائزين، والجميع تحت ظل ورعاية وولاية الله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا

(١) فكثير من الشباب هم الذين أثروا في آباءهم وأمهاتهم وذويهم بسبب المسجد فأصبحت العملية معكوسة فالمسجد هو الذي يربي.

مَوْلَى لَهُمْ ﴿١﴾ (محمد: ١٠١)، وكفى بذلك خسراناً للذين لهم أولياء من دون الله تبارك وتعالى.

٥- الاحساس بقوة وعزة الإسلام ووحدة صف المسلمين، وتوحي بهذا صلاة الجماعة والجمعة والعيدين والشعائر الاجتماعية الأخرى التي هي من أبرز مظاهر قوة الإسلام والمسلمين، وتدلل على اهتمام الإسلام وتشريعاته بنظام الكيان الموحد والروح الجماعية.

٦- تقوية الأواصر الأخوية الإيمانية بين الأفراد من خلال تعرّف بعضهم على بعض، وإليه أشار في حديث الثمانية: (أخاً مستفاداً في الله) والتواصل والتزاور بينهم، والتكافل الاجتماعي بين المسلمين من خلال المساعدة في قضاء حوائجهم، وحل مشاكلهم، والتفكير في المشاريع الخيرية ذات المصلحة العامة كبناء وترميم المدارس والجمعيات التعاونية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية خصوصاً الأرملة والأيتام، وقد يكون المسجد وسيلة للتعارف المؤدي الى التزويج أو الى إيجاد فرص عمل باعتبار أن الأمان الحضور فيه شاهد على تحقق صفة الأمانة والوثاقة.

٧- حصول الاستقرار والسكون في نفس الإنسان المؤمن عند لقائه بإخوانه في المسجد، ويدلّ عليه قول الإمام الصادق (عليه السلام): (إنّ المؤمن ليسكن إلى المؤمن كما يسكن الظمآن إلى الماء البارد)^(١).

٨- تحقق الفرصة الواسعة لممارسة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي أسمى الفرائض وأشرفها كما وصفها الإمام (عليه السلام) اذ المتوقع أن

(١) الكافي: ٢/٢٤٧.

يضمّ المسجد من يعينه على ذلك ويشخّص له التصرف السليم، وإليها أشار حديث الثمانية: (أو كلمة تردّه عن ردى أو يسمع كلمة تدلّه على هدى)^(١).

٩- يعتبر المسجد المشخّص الأول لما موجود في المجتمع من سلبات لأنه ملتقى كلّ الطبقات، وإليه ترد جميع أنواع السلبات والمشاكل، وبذلك فالتوجهات بخصوص هذه المشاكل تصدر منه، والمجتمع يكون ميدان تطبيق ما يأمر به المسجد.

١٠- اطلاع المسلمين على القضايا والأحداث الآنية التي تهمهم ومواكبتها خاصة تلك التي تهدد كيان الإسلام ووحدته، لذا فالمسجد يربّي المجتمع على الاهتمام بأمور المسلمين، وقد ورد في الحديث: (من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم)^(٢).

١١- يمثل المسجد مظهراً لوحدة المسلمين وتذويب خلافاتهم، ويوجّه دعوة للتقريب بينهم، لأن القلوب تتوحد فيه على ذكر إله واحد، وتتوجه نحو قبلة واحدة، وتتلو كتاباً واحداً في صفوف مترابطة لا يفرّق بينهم اختلاف توجهاتهم ما دامت كلها تستقي من منابع الرسالة، وخير موضع تتجسد فيه هذه الحقيقة المسجد الحرام في مكة المكرمة حيث يدرك المسلمون إنهم وإن تفرقت أقطارهم واختلفت أنسابهم وألسنتهم وألوانهم، تجمعهم جامعة الدين والعقيدة، وأنه إذا جدّ الجدّ وجب أن يضحى كلّ فريق منهم بمصالحة الخاصة في سبيل المصلحة المشتركة.

(١) أمالي الصدوق: ٣١٨ / ١٦.

(٢) بحار الأنوار: ٦٦ / ٧٥.

١٢- يمثل المسجد جهة إعلامية مرعبة لأعداء الإسلام، وذلك لأنه المبرز لنقاط القوة في الدين الإسلامي، والتي تميزه عن باقي الأديان والاعتقادات والأيدولوجيات، وهو بذلك ليساهم بشكل فعال في تحسين سمعة الدين الإسلامي، وترغيب أفراد باقي الأديان للدخول فيه، وقد اعتنق كثيرون الإسلام لما شاهدوا مساجد المسلمين وشعائرتهم ومشاعرهم^(١).

١٣- المسجد وسيلة مهمة لتقليل الفوارق الطبقيّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة بين أفراد المجتمع، ولعل أوضح مصداق من المساجد في تطبيق هذه الفائدة هو المسجد الحرام وذلك أثناء شعائر الحج حيث اللباس الواحد والحركة الواحدة. والخلاصة ان الإسلام بقوته وعزته وأحكامه وتشريعاته ووحدة أبنائه وقدرته على إصلاح الناس وإسعادهم يتجسد في المسجد الفاعل المبني على التقوى، وإن المسجد ليس فقط محل عبادة بل هو مقر قيادة ومدرسة للتربية والوعي ومنطلق لأعمال الخير والمعروف وحصن من الضلال والانحراف والفساد وعلينا ان نلتفت ان محور تحصيل هذه الثمرات وتحقيقها هو إمام المسجد مما يرفع سقف طموحنا بأن لا نكون من رواد المساجد فقط بل أئمة فيها لنحصل على مجموع الفوائد التي يحصل عليها جماعة المسجد بفضل الله تعالى وكرمه، وهذا نداء للحوزة العلمية أن تأخذ دورها في تفعيل هذه التجمعات المباركة، وللشباب المثقف الواعي الرسالي أن يلتحق بالحوزة العلمية ليؤهل نفسه لنيل هذا الشرف العظيم وهو من استجابة الدعاء للدولة الكريمة في زمان الغيبة (وتجعلنا

(١) تقرأ قصصاً كثيرة عن الذين اعتنقوا الإسلام كما في كتاب (لماذا اخترنا الإسلام؟) للسيد محمد رضا الرضوي، وهناك الكثيرون ممن دخل الإسلام متأثراً بمشاعر المسلمين داخل مساجدهم.

فيها من الدعاة الى طاعتك والقادة الى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة).
هذه الثمرات وغيرها^(١) تجعل الحياة في المساجد ألدّ وأحبّ حالة يعيشها
الانسان ويصوّرُها لنا الإمام السجاد (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بما رواه حفيده الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ)
قال: (إن علي بن الحسين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) استقبله مولى له في ليلة باردة وعليه جبة خزّ
ومطرف خزّ وعمامة خزّ - وهي ألبسة غالية جداً - وهو متغلف بالغالية - وهو
أرقى أنواع العطر - ، فقال له: جُعِلْتُ فداك في مثل هذه الساعة على هذه الهيئة
إلى أين؟ قال: إلى مسجد رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أخطب الحور العين إلى الله عزّ
وجلّ^(٢) .

(١) راجع المزيد من التفاصيل في كتاب (شكوى المسجد) ضمن كتاب (ثلاثة يشكون).

(٢) الكافي: ج ٦/ ص ٥١٧.

القبس/٨١

سورة التوبة: ﴿١٣١﴾

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾

موضوع القبس: تأسيس بناء الإنسان على التقوى

بنيان التقوى ورضوان الله تعالى:

تُبَيِّنُ الآيَةُ قَاعِدَةً أُخْرَى مِنْ قَوَاعِدِ السُّلُوكِ الْمَعْنَوِيِّ وَالْبِنَاءِ الصَّالِحِ لِلْإِنْسَانِ وَالْمَجْتَمَعِ، وَقَدْ عُرِضَتْ بِشَكْلِ اسْتِفْهَامٍ لَطَلْبِ الْمَقَارَنَةِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ بِنْيَانَيْنِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ اسْتِفْهَامًا حَقِيقِيًّا لِاسْتِحَالَتِهِ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَلَوْضُوحِ الْجَوَابِ، بَلْ هُوَ اسْتِفْهَامٌ اسْتِنكَارِيٌّ لِتَوْبِيخِ الْجَهْلَةِ وَأَهْلِ الْغَفْلَةِ وَالتَّمَعِّصِينَ وَالتَّمَنِّاقِينَ الَّذِينَ لَا يَمِيزُونَ بَيْنَهُمَا، وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ لِتَرْسِيخِ الْإِسْوَاسِ الْمَتِينَةِ لِلْبِنْيَانِ الصَّحِيحِ.

وَجَاءَتِ الْآيَةُ بَعْدَ الْمَقَارَنَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهَا ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (التوبة: ﴿١٣٧﴾-﴿١٣٨﴾).

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَقَّ الَّذِي تَقُومُ فِيهِ هُوَ الثَّانِي لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْمَسْجِدِيَّةِ مَتَوَفَّرَةٌ فِيهِ وَأَهْدَافُ الْمَسْجِدِ مَتَحَقِّقَةٌ مِنْهُ وَلِأَنَّ فِيهِ رِجَالًا يَسْعَوْنَ لِلتَّطَهُّرِ وَالْكَمَالِ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ بِعَكْسِ الْأَوَّلِ الَّذِي ظَاهِرُهُ الْمَسْجِدِيَّةُ وَشِعَارُهُ دِينِي الْإِسْلَامِ أَنْ كُلَّ أَهْدَافِهِ هِيَ حَرْبٌ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ.

وهنا يأتي الاستفهام الاستنكاري والتقرير الذي بدأنا به فإن البنيان المثمر الراسخ الرصين هو ما أسس على ركيزتين: التقوى ورضوان الله تعالى، فالأساس الاول التقوى المأخوذة من الاتقاء والاجتناب والاحتماء تعني تجنب كل شيء سيء وخبيث سواء على مستوى النيات أو الأعمال فلا رياء ولا سمعة ولا حب الجاه والدنيا ولا مصادر غير مشروعة للمال وأساليب ماكرة في العمل، والأساس الثاني هو الرضوان الذي يعني اشتراك كل العناصر الإيجابية من نظافة الأيدي وسلامة النيات والصدق في العمل وابتغاء الخير والإحسان.

ويقابله بنيانٌ فاشلٌ في مهب الريح وبالُّ على أصحابه يشبهه القرآن الكريم بمن بنى على (شفا) أي حافة (جرف) وهي حافة النهر أو البئر التي جرف الماء ما تحتها فهو (هارٍ) أي متصدع مشرف على السقوط والانهيال في أي لحظة لأنها حافة منحورة متآكلة فيسقط في هذا الوادي المرعب العميق. ولا يختلف اثنان في أن البنيان الأول هو الثابت الجيد الذي يطلبه العقلاء فعليهم أن يتوجهوا الى مثله، ويتجنبوا الثاني.

مسجد ضرار:

والآيات وإن نزلت في حالة قائمة في زمن النبي (ﷺ) وهما مسجد ضرار^(١) الذي بناه جمع من المنافقين في قضية معروفة للأهداف المذكورة في الآية: ١٠٧ المتقدمة وقد أمر النبي (ﷺ) بإحراقه، وفي مقابله مسجد قبا أو

(١) حكى بعض المطلعين ان موقع مسجد ضرار الى اليوم لا يتقبل الاعمار والبناء ويقول من هناك انه كلما غمَّرَ احترق وتهدمَ والله العالم.

مسجد النبي (ﷺ) الذي أسس على التقوى الا أنها - كما هو شأن سائر الآيات القرآنية - عامة شاملة لكل بنيان لذا قلنا انها تؤسس لقاعدة عامة من قواعد السلوك، روى في مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تأويل الآية قوله (عليه السلام) (وكل عبادة مؤسسة على غير التقوى فهي هباء منثور)^(١).

ركائز النجاح القرآني:

وفي ضوء هذا المعنى الواسع للآية الكريمة تكون النتيجة أن كل حالة أو مؤسسة أو مشروع فردي أو جماعي يراد له أن يكون صالحاً ومثمراً ومتميناً ويدوم عمله لا بد أن يشتمل على ركنين:

١- أن يكون الغرض الذي اسس من أجله والهدف الذي يصبو الى تحقيقه نبيلاً سامياً والنية التي تدفعه اليه حسنة مستندة الى تقوى الله تبارك وتعالى وطلب رضوانه ﴿أَسَّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾.

٢- أن يكون القائمون على هذا البنيان والمدبرون لأمره والعاملون فيه مؤمنين مخلصين يحبون الخير والتطهر والكمال ويسعون اليه ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُجِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا﴾.

وإلا فان البناء ينهار ولا يحقق شيئاً بل يكون وبالاً على أصحابه في الدنيا والاخرة وإن رفع شعارات وأسماء دينية لخداع الناس وسوقهم لتحقيق المصالح الشخصية فلا يصح أن يكون الانسان مغفلاً وينخدع بالعناوين الفارغة من المحتوى الصحيح.

(١) نور الثقلين: ٢ / ٢٦٨.

المنهج الإصلاحى فى القرآن الكريم:

وينبغى ملاحظة نقطة مهمة فى المسيرة الإصلاحية للشريعة المقدسة وهى أنها تقدم البديل الصالح حينما تهدم الحالة الفاسدة ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ - اى مسجد ضرار والبديل - أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ - وهو المسجد المؤسس على التقوى﴾ وهو منهج ربانى اعتمده الشريعة منذ أول كلمة نطق بها الرسول الكريم (ﷺ) (لا اله الا الله) فهى فى الوقت الذى تبطل الآلهة المزيفة المصطنعة تُقيم عبادة التوحيد لله تبارك وتعالى، فلنتعلم اننا حينما نريد هدم حالة معينة فاسدة اجتماعية او ثقافية او عقائدية علينا ان نؤسس ونبنى البديل الصالح، فحينما نريد معالجة الفساد الاخلاقى والانحراف الجنسى علينا ان نيسر امور الزواج ونساعد عليه وهكذا.

بناء مستقبل الشباب:

أيهما الأحبة من الشباب وطلبة الجامعات^(١) الذين وفدتم الى النجف الأشرف لتعزية أمير المؤمنين (عليه السلام) باستشهاد زوجه بضعة النبي (ﷺ). استحضروا هذا المعنى وأنتم تتلون هذه الآية الشريفة واجعلوها نبراساً وبوصلةً لحياتكم لأنكم بصدد وضع حجر الأساس لعدد من مشاريع البناء: المشروع الاول: بناء النفس والذات والمستقبل المعنوي والعلاقة مع الله تعالى التى هى أساس الحياة الآخرة الباقية لأن الفتى الذى يبلغ سن الرشد ويلتحق

(١) الكلمة التى وجهها سماحة المرجع اليعقوبى (دام ظله) الى آلاف الطلبة الجامعيين من مختلف الجامعات العراقية ضمن فعاليات اقيمت لهم على قاعة النجف الكبرى بمناسبة ذكرى استشهاد الصديقة الطاهرة الزهراء (عليها السلام) مساء يوم الاثنين ٢/جمادى الآخرة/١٤٣٦ هـ - المصادف ٢٣/٣/٢٠١٥ م.

بالبالغين هو في بداية حياة جديدة يُشرف فيها بالتكاليف الالهية وتفتح امامه فرص التكامل والقرب الالهي عليه ان يلتفت الى بناء حياته على تقوى من الله ورضوان، ويكون كما أراد الإمام السجاد (عليه السلام) في دعائه (وَأَجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، والوفاء راحةً لي من كل شر^(١))، لذلك أعطت الأحاديث الشريفة قيمة كبيرة لمن ينشأ من أول أمره ويؤسس بنيان نفسه على طاعة الله تعالى، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال (سبعة في ظلّ عرش الله عز وجل يوم لا ظل الا ظله: إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل...) (٢) وفي حديث آخر عنه (صلى الله عليه وآله) (فضل الشاب العابد الذي تعبّد في صباه على الشيخ الذي تعبّد بعدما كبرت سنّه كفضل المرسلين على سائر الناس) (٣) وعنه (صلى الله عليه وآله) قال (إن أحب الخلائق الى الله عز وجل شاب حدث السن في صورة حسنة جعل شبابه وجماله لله وفي طاعته، ذلك الذي يباهي به الرحمن ملائكته، يقول: هذا عبدي حقاً) (٤).

المشروع الثاني: إن الطالب الجامعي الذي يُنهي دراسته ويتوجه الى العمل والكسب عليه أن يفهم أنه يبني مستقبله ويحدد بوصلة حياته القادمة فلا بد أن يحدد اختياره لنوع الوظيفة والعمل ويضع برنامج عمله وفق هذه الاسس المتينة للبناء.

المشروع الثالث: إنكم مقبلون على الزواج إن شاء الله تعالى بعد المشروع

(١) مفاتيح الجنان: ٥٢ / دُعاء يوم الثلاثاء.

(٢) الخصال: ٣٤٣ / ح ٨.

(٣) كنز العمال: ٤٣٠٥٩.

(٤) كنز العمال: ٤٣١٠٣.

الثاني والزواج وُصفَ في بعض الأحاديث الشريفة أنه بيان، عن أبي جعفر (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (مَا بُنِيَ بِنَاءٌ فِي الإِسْلَامِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ التَّرْوِيجِ) ^(١) فالذي يريد أن يبني حياة زوجية سعيدة صالحة مثمرة عليه أن يبنيها من أول خطوة عندما يبحث عن الزوجة أن يجعل أساس اختياره التقوى ورضوان الله تعالى في صفات الزوجة ومعدنها وفي نيته من مشروع الزواج، وليس البحث عن الامور الدنيوية الزائلة، وهو ما نطقت به الأحاديث الشريفة، كقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (عليك بذات الدين) ^(٢)، والمرأة يوجه لها نفس الخطاب قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه) ^(٣).

المشروع الرابع: ما بعد الزواج وهو إنجاب ذرية طيبة صالحة تكون عاقبتهم الى خير عليه وذلك بأن يؤسس بنيانهم ويلتفت الى تربيتهم من أول أيامهم على الخير وطاعة الله تعالى والأخلاق الفاضلة وتجنب الرذائل فإن بناءه سيكون رصيناً ثابتاً مستقيماً حتى ورد عن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قوله (من تعلم في شبابه كان بمنزلة الرسم في الحجر) ^(٤) وعن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال (العلم من الصغر كالنقش على الحجر) ^(٥) أما إذا لم يكن أساسه كذلك وحصل اعوجاج فيحتاج الى مشقة كبيرة لإصلاحه وقد يتعذر ذلك كما هو واضح.

(١) وسائل الشيعة: كتاب النكاح، ابواب مقدماته وآدابه، باب ١/ ح ٤.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ٣٣٢/٥.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٠٣/ ص ٣٧٢/ ح ٣.

(٤) بحار الانوار: ٢٢٢/١ ح ٦.

(٥) بحار الانوار: ٢٢٤/١ ح ١٣.

فليلتفت أحببتنا الشباب وأولياء امور الفتیان والصغار الى هذا المعنى.
وهكذا تتوسع الحالة الى الذي يتصدى لقيادة دينية أو سياسية في مساحة صغيرة أو مساحة واسعة ويريد أن يبني مجتمعاً صالحاً فانه لا بد أن يكون أساس بنيانه تقوى الله تعالى وطلب رضوانه، روي في الحديث الشريف (صنفان من امتي ان صلحا صلحت وان فسدا فسدت: العلماء والامراء)^(١).

فيه رجال يحبون أن يتطهروا:

وهنا علاقة تكاملية متبادلة بين البنيان والباني فكما أن حال الباني المعنوي المستند الى التقوى ورضوان الله تعالى مؤثر في صلاح البنيان واستقامته وديمومته، كذلك فإن البنيان الصالح المبارك - كالمشاهد المقدسة - مؤثر في صفاء نفوس رواده وسمو حالتهم المعنوية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾، كما أن البناء المستند الى الرياء والنفاق وخبث الباطن يؤثر في نفوس وقلوب مرتاديه، فلا بد للإنسان أن يلتفت الى الركن الثاني فيختار صحبة الصالحين ولا يكتفي بالركن الأول، وحينئذ يحظى بمحبة الله تبارك وتعالى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾.

إحباط المشاريع الهدامة:

وعلى أي حال فهذه قضية خطيرة أثارها القرآن الكريم لا نستطيع بهذه العجالة بيان كل تفاصيلها، بحيث أن النبي (ﷺ) يأمر بعض أصحابه أن يحرقوا مسجد الضرار لإحباط هذا المشروع المناق الخثير الذي يمزق وحدة المجتمع المسلم مع أنه في ظاهره مشروع ديني، وهذا الكلام له بيان آخر.

(١) الخصال: ص ٣٦-٣٧/ح ١٢.

دور الأسرة المسلمة في البناء الاجتماعي الصالح:

لكن ما اريد أن اقله أنا في كل تفاصيل حياتنا في عملية بناء ابتداء من بناء أنفسنا الى اسرتنا الى مؤسساتنا الى مجتمعنا الى البشرية كلها فلا بد من الالتفات الى الاسس الرصينة التي تقوم هذا البناء وتحسنه ليؤدي أهدافه بشكل تام. وكما هو واضح فإن في كل الحالات المتقدمة وأنواع البنين المذكور فان المرأة هي المدير التنفيذي - كما يُقال - لتلك المشاريع وهي المهندس المباشر لتنفيذ مراحل البناء واستقامته وانما سُميت امّا لأنها الاصل في هذا الوجود، ولذا ورد عن السيدة الزهراء (عَلَيْهَا السَّلَام) قولها: (الزم رجلها - أي الام - فان الجنة تحت اقدامها)^(١).

أما الرجل فهو المهندس المصمم لتلك المراحل والمخطّط لها والمقوم لمسيرتها.

وقد كانت السيدة الزهراء (عَلَيْهَا السَّلَام) أكمل مثال للنجاح في بناء كل هذه المشاريع، فعلى صعيد الذات هي من الخمسة أهل الكساء أكمل الخلق وقد خُلِقَ الوجود لأجلهم: فاطمة وأبوها وبعلمها وبنوها (صلوات الله عليهم أجمعين) وهي محور هؤلاء الخمسة.

وعلى صعيد الاسرة فاسرتها أسعد وأطيب وأطهر اسرة هي وأمير المؤمنين وفي ظل رعاية أبيها رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

وعلى صعيد الذرية فهي أصل الذرية الطيبة الطاهرة المعصومة ومنها ذرية رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وعلى صعيد العطاء المثمر المبارك سمّاها الله تعالى ﴿الكَوْثَرَ﴾

(١) كنز العمال: ١٦/٤٦٢/١٦ ح ٤٥٤٤٣.

وجعلها هبة الله تبارك وتعالى لرسول الله (ﷺ) ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾
(الكوثر) والكوثر تعني الخير الكثير.

هذه الحقيقة القرآنية تكشف عن أهمية نشر فروع الحوزة العلمية في المحافظات المختلفة للرجال والنساء وتكتسب شرفها وأهميتها من وظيفتها في بناء الانسان والمجتمع على أساس التقوى ورضوان الله تعالى من خلال نشر المعارف القرآنية والأحكام الشرعية والأخلاق الفاضلة فابنوا مشروعكم على هذه الاسس الرصينة من أول يوم الى آخره وارفدوه دائماً بالنخبة الصالحة الطيبة من الشباب ليكون لكم صدقة جارية بكل كلمة تدل على هدى أو ترد عن ضلالة. وأدعوكم الى التنويع في آليات عملكم وعدم التوقف عند طريقة معينة على طول المدة لان من طبيعة الانسان والحياة التغيير والتجديد.

القيس ٨٢/

سورة التوبة: ﴿١١٦﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

لكي نفهم الآية الكريمة، ونعرض انفسنا عليها ونتحقق من نسبة التزام الامة بها، مع ما يتضمن ذلك من دروس جليلة نلفت النظر الى عدة امور:

١- اول ما يلاحظ في الآية استعمال اداة النداء ﴿يَا أَيُّهَا﴾ وجعل المنادى هم المتصفون بصفة الايمان مع ان الجميع مخاطبون^(١) بهذا الامر، وذلك لعدة نكات:

(منها) تشريف المؤمنين بتوجيه الخطاب اليهم دون غيرهم من المأمورين.
 (ومنها) لألفات عناية المؤمنين واثارة انتباههم الى ما يكمل به ايمانهم.
 (ومنها) اشعارهم بمسؤوليتهم الخاصة كمؤمنين عن هذا الذي دعوا اليه أي انكم بصفتكم مؤمنين يجب ان تكونوا كذلك، ولو كانت الجملة بلا اداة نداء ومنادى واقتصر على بيان الامر المطلوب ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ لما حصلت هذه العناية ولا الالتفات الى المسؤولية او كانت بدرجة اقل، كما انك حين تخاطب الشباب بتوجيه ما تبتدئ كلامك بـ(يا أيها الشباب) لالفات نظرهم الى ان هذا الخطاب موجه لهم بما هم شباب، او تقول ايها العراقيون عند طرح

(١) جميع الناس مخاطبون حتى غير المسلمين لانهم مكلفون بالفروع - أي الأحكام الشرعية الواجبة والمحرمة - كتكليفهم بالأصول - أي الاعتقاد بالتوحيد والنبوة والمعاد، وورد التصريح بالعموم لمثل هذا الخطاب في آيات مماثلة كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣).

قضية وطنية تهمهم، او يا طلبة الحوزة العلمية.

والخلاصة ان الآية تفيد انكم اذا كنتم تريدون ان تكونوا مؤمنين حقا فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين ولها دلالة بالاتجاه المعاكس أي انكم اذا اتقيتم الله ووجدتم انفسكم في صف الصادقين فأنكم مؤمنون حقا، وإلا ينطبق عليكم قوله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤)، فالآية هنا تنفي بعض مراتب الايمان الصادقة حقيقة، وهناك آيات اخرى تثبت بلحاظ المراتب الأدنى كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦).

وبتعبير اخر: ان حقيقة الايمان التي تكون سبب فوز الانسان وسعادته لها ثلاثة ابعاد او انها لا تكتمل الا باجتماع ثلاثة عناصر:

أ- الايمان بالله وبأنبيائه ورسالاته واليوم الآخر والاصياء وسائر العقائد الحقّة، وهذا بُعد اعتقادي قلبي.

ب- تقوى الله والالتزام بما يريد الله تعالى وتجنب ما يسخطه تعالى وهذا بُعد عملي سلوكي.

ت- ان تكون مع الصادقين بالمعنى الذي سنذكره ان شاء الله تعالى وهذا بعد اجتماعي في العلاقة مع القيادة.

٢- ان الامر بالكون مع الصادقين مطلق ولم يحدد بناحية او مورد معين، هذا له دلالات عديدة على مستوى الالزام والاثبات وعلى مستوى المنع والنفي.

اما على مستوى الاثبات فان الأمر بالكون مع الصادقين يعني الاعتقاد بهم والاحذ عنهم واتباعهم والتسليم لهم والسير على نهجهم ويعني ايضا حمل

رسالتهم والتحرك بها في كل اتجاه ونصرتهم ومعونتهم في الشدة والرخاء والعافية والبلاء، ويعني ايضا الرجوع اليهم في كل تفاصيل الحياة من غير فرق بين العقيدة والشريعة او السلوك، ولا بين احكام العبادات والمعاملات وسواء كانت في الاحوال الشخصية او السياسية او الاقتصاد والاجتماع وغيره.

واما على مستوى النفي فان الكون مع الصادقين يعني عدم الانسياق وراء الشهوات والاهواء وعدم اتباع أي داع لم يأمر به الصادقون، ويعني رفض الشعور بالإحباط واليأس التوجه نحو العزلة والانزواء والانسحاب من العمل الرسالي المثمر كرد فعل لحصول بعض الحالات، ويعني الكون مع الصادقين رفض الوقوف على الحياد والكون بمسافة واحدة من الجميع، وهذا كله يحتاج الى جهد وجهاد كبيرين وثبات على الصراط وصبر ومصابرة ومرابطة ولذا سبقه الامر بالتقوى لانها تعين على ذلك كله.

٣- حينما يوصف الخبر بالصدق فهذا يعني مطابقته للواقع، كما لو اخبرت عن زيد انه قائم وهو قائم فعلا فان الخبر صادق، اما وصف الانسان بانه صادق فهذا يعني مطابقة ظاهره لباطنه واقواله لأفعاله وموافقته جميعاً للحق، لاحظ قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون: ١) فكلمتهم حق وصدق لكنهم لم يكونوا صادقين لان باطنهم لم يكن كظاهريهم وفعلهم ليس كقولهم، لذا ثبت الله تعالى صدق الكلمة ووصفهم بالكاذبين، ولو وصفوا بالكاذبين من دون تثبيت هذه الحقيقة لكان وصفهم بالكذب يشمل ما شهدوا به وهو خلاف الواقع.

والمؤمنون ليسوا كلهم صادقين في ايمانهم، ولهم درجات متفاوتة في ذلك

لذا مدح الله تعالى قوما من المؤمنين لانهم صدقوا وثبتوا على الصدق قال تعالى:
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٣٢).

والمستفاد من القران الكريم ان انطباق عنوان الصادقين له درجات متفاوتة بحسب درجة كمال عناصره من الايمان بالله ورسله وكتبه والجهاد في سبيل الله بالأموال والانفس والصبر في المواطن وفعل المعروف وتجنب المنكر ونحو ذلك كقوله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر: ٨).

وقال تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

ووصف مرتبة اعلى من الصادقين بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥).

هذا ولكن العنوان اذا اطلق فانه ينطبق على المعصومين (عليه السلام) لانهم من ينطبق عليهم التعريف اعلاه بقول مطلق أي على الدوام من دون استثناء او

اختراق، وتشهد نفس الآية على أن المراد بالصادقين المعصومون (عليه السلام) بدلالة أكثر من قرينة:

أ- لأنها أمرت بالكون معهم مطلقاً ولا يتعلق مثل هذا الأمر إلا بالمعصوم، لأن غير المعصوم معرض للخطأ فكيف يأمرنا الله تعالى بالكون معه مطلقاً.

ب- ان الآية امرت اولاً بالتقوى ثم بالكون مع الصادقين، فلو كان المراد بالصادقين ما هو أوسع من المعصومين لكان الأمر بالكون من الصادقين وليس معهم، أو قل ان امر المتقين بان يكونوا مع الصادقين يكشف عن سمو مرتبة الصادقين على المتقين، ولا يصح ذلك الا في المعصومين (عليه السلام).

وقد أذعن جملة من أعلام السنة لهذه الحقيقة لكن بعضهم أولها بما لا وجه^(١) له لذا وردت روايات كثيرة من طرق الفريقين تبين ان المراد بالصادقين هم امير المؤمنين (عليه السلام) وأولاده المعصومون (عليه السلام)، ففي الكافي وبصائر الدرجات للصفار بسندهما عن بريد بن معاوية العجلي قال: (سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: ايانا عنى)^(٢).

وفي الكافي ايضاً بسنده عن ابن ابي نصر عن ابي الحسن الرضا (عليه السلام) قال

(١) قال الفخر الرازي في تفسيره ان المعصوم هو جميع الامة لا انه فرد واحد فتكون الآية دليلاً على حجية اجماع المؤمنين وعدم خطأ مجموع الامة (التفسير الكبير: ٢٢٠/١٦) وردّه واضح لان المقصود من الصادقين لو كان مجموع الامة فان الامة مكونة من الناس المخاطبين بالكون مع الصادقين وستكون النتيجة وحدة التابع والمتبوع. مضافاً الى ما ذكرناه في هذه النقطة من سمو مرتبة الصادقين.

(٢) أصول الكافي - الكليني: ٢٠٨/١ ح ١، - بصائر الدرجات - الصفار: ٥١ ح ١.

(سألته عن قول الله عز وجل - قال: (الصادقون هم الأئمة الصديقون بطاعته)^(١) وفي كتاب سليم بن قيس - في حديث المناشدة- قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (فأنشدتكم الله جل اسمه، أتعلمون ان الله انزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فقال سلمان: يا رسول الله: أعامه هي أم خاصة؟ فقال: أما المؤمنون فعامه لان جماعة المؤمنين أمروا بذلك، واما الصادقون فخاصة في علي والاصياء من بعده الى يوم القيامة؟ قالوا اللهم نعم)^(٢).

وروى في المناقب عن بعض التفاسير^(٣) العامة بسنده عن ابن عمر قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ قال: أمر الله تعالى الصحابة أن يخافوا الله، ثم قال ﴿وَكَونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يعني مع محمد وأهل بيته).

وعن مصدر آخر لهم في قوله تعالى قال: هو علي بن ابي طالب خاصة وعن مصدر آخر قال (محمد وآله)^(٤).

٤- ان الآية مطلقة من حيث الزمان فهي تأمر المؤمنين في جميع الأزمنة الى نهاية الدنيا أن يكونوا مع الصادقين الذين هم المعصومون (عليه السلام) وهذا يعني لزوم وجود المعصوم في كل زمان، وهذا دليل على صحة عقيدة الشيعة الإمامية في الأئمة الاثني عشر وبقاء قائمهم الى آخر الزمان، وبدون هذه العقيدة سيبقى

(١) أصول الكافي - الكليني: ٢٠٨/١ ح ٢.

(٢) كتاب سليم بن قيس الهلالي: ٢٩٨.

(٣) وتوجد مصادر اخرى من كتب العامة في كون المراد من الصادقين خصوص اهل البيت (عليه السلام) ذكرها في تفسير الفرقان: ٢٢١/١٣.

(٤) راجع مصادرها في تفسير البرهان: ٣٤٥/٤.

الزمان بلا صادق فكيف يمثل المؤمنون لواجب الكون مع الصادقين.
وقد اعترف بهذه الحقيقة بعض أعلام السنة كالفخر الرازي قال في تفسيره
(انه تعالى أمر المؤمنين بالكون مع الصادقين ومتى وجب الكون مع الصادقين
فلا بد من وجود الصادقين في كل وقت)^(١).

٥- إن ورود الامر بالكون مع الصادقين عقيب الامر بالتقوى التي هي خير
الزاد ليوم المعاد ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة: ١٩٧) ولا ينجو الانسان
الا بالتقوى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا • وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ١٠-١١)
﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى • فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾
(النازعات: ٤١-٤٢) فالتعاقب بين هذين الامرين لأجل هداية المؤمنين والمتقين
الى أن طريق التقوى شائك وصعب وكثير المنزقات والابتلاءات والمصاعب ولا
يمكن سلوكه بنجاح الا بالكون مع الصادقين واتباعهم والتمسك بهم.
كما انه يلفت نظر المتقين الى ان المتوقع منكم كمتقين ان تكونوا مع
الصادقين فلا تقوى من دون الكون معهم، كما ان الكون معهم بالمعنى الدقيق
الذي ذكرناه يكشف عن انك من المتقين.

أغلب الأمة لم تكن من الصادقين:

وبعد ان اتضحت هذه الأمور يمكننا القول بأسف ان المخاطبين بالآية لم
يعملوا بها ولم يكونوا مع الصادقين بل اصطف قسم مع اعدائهم وتقاعس قسم
اخر وتركوهم وحدهم منذ رحيل رسول الله (ﷺ)، ونقرأ هذه الحقيقة في دعاء

الندبة (لَمْ يُمْتَثَلْ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) فِي الْهَادِينَ بَعْدَ الْهَادِينَ، وَالْأُمَّةُ مُصِرَّةٌ عَلَى مَقْتِهِ مُجْتَمِعَةٌ عَلَى قَطِيعَةٍ رَحِمِهِ وَأَقْصَاءِ وَوَلَدِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ مِمَّنْ وَفِي لِرِعَايَةِ الْحَقِّ فِيهِمْ، فَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ، وَسَبِيَ مَنْ سَبِيَ وَأُقْصِيَ مَنْ أُقْصِيَ^(١).

لذا تكررت شكوى المعصومين (عليهم السلام) من قلة العدد وخذلان الناصر فمن كلمة السيدة الزهراء (عليها السلام) مع أمير المؤمنين (عليه السلام) لما رجعت من المسجد مهضومة مظلومة: (حتى حبسني قيلة نصرها والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمة وعدت راغمة، شكواي الى ربي وعدواي الى ربي، اللهم انك أشد منهم قوة وحولا، وأشد بأساً وتنكيلا)^(٢).

وهكذا كلمات أمير المؤمنين المملوءة بالألم والاسى كقوله في الخطبة الشقشقية (وَطَفِقْتُ أُرْتَبَى بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدِ جَذَاءٍ - أَي مَقْطُوعَةٍ لِعَدَمِ وَجُودِ النَّاصِرِ - أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءٍ - وَهِيَ الظُّلْمَةُ - فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَّرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذَى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا - وَهُوَ مَا اعْتَرَضَ فِي الْحَلْقِ مِنْ عَظْمٍ وَنَحْوِهِ -)^(٣).

وقوله (عليه السلام) متظلما (فنظرت فاذا ليس لي معين الا اهل بيتي، فظننت - أي بخلت - بهم عن الموت، واغضيت على القذى وشربت على الشجا، وصبرت على اخذ الكظم وعلى امر من العلقم وآلم للقلب من وخز الشفار)^(٤).

(١) مفاتيح الجنان: ٦٠٨.

(٢) الاحتجاج: ١/١٣٧.

(٣) نهج البلاغة: ٤٨ الخطبة ٣.

(٤) نهج البلاغة: ٦٨ الخطبة ٢٦، ص ٣٣٦ الخطبة ٢١٧.

ومثلها كلمات الإمامين الحسن والحسين والأئمة الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) التي تعبر عن الوحدة وخلان الناصر، وفي ذلك روى عنبة قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول: اشكو الى الله وحدتي وتقلقلي من اهل المدينة حتى تقدموا وأراكم وأسرُّ بكم، فليت^(١) هذا الطاغية اذن لي فاتخذت قصراً فسكنته واسكنتكم معي، واضمن له ان لا يجيء من ناحيتنا مكروه ابداً^(٢).

فتصورو الى أي درجة وحدة الإمام ووحشته وغرته بين اهل المدينة بحيث ان الإمام (عليه السلام) كان ينتظر قدوم وفد من مواليه من الكوفة او خراسان او أي مدينة اخرى ليؤنسوا وحشته ويرفعوا غرته ووحده.

وفي ختام الحديث يمكن تلخيص عدة دروس من الآية:

- ١- لا يكتمل الايمان الا بالتقوى واتباع المعصومين (عليهم السلام).
- ٢- لا حياد ولا وقوف على مسافة واحدة من الجميع بل يجب ان نكون مع الصادقين عقيدة وسلوكاً ونصرة، ويلزم من هذا معرفة الصادقين اولاً.
- ٣- ان في الآية دلالة على وجود الإمام صاحب العصر والزمان وعصمته.

(١) هذا موقف سياسي مهم على القادة الاسلاميين ان يستفيدوا منه لرسم علاقتهم مع السلطات الطاغوتية ، وقد فصلناه في كتاب (فقه المشاركة في السلطة).

(٢) بحار الانوار: ١٨٥/٤٧/ ح ٣١، عن رجال الكشي: ٣٦١ رقم ٦٧٧.

ملحق: كن في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عَلَيْهِ السَّلَامُ)

للنبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أحاديث كثيرة في فضل أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ومنزلته وخصاله الكريمة، وفي وجوب اتباعه والأخذ منه^(١)، ومن تلك التوجيهات النبوية الشريفة: أنه إذا افترت الأمة واختلفت وتعددت فيها الاصطفافات والتخندقات والتيارات والاتجاهات فكونوا في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بلا نقاش ولا تأمل، ولا تبحثوا عن الدليل والحجة فإنّ نفس وجود علي بن أبي طالب (عَلَيْهِ السَّلَامُ) دليل على كونك في الموضع الصحيح الذي فيه رضا الله تعالى ورسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (عليّ مع الحق والحق مع علي، يدور معه حيث دار)^(٢)، وعنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (إذا اختلفتم في شيء فكونوا مع علي بن أبي طالب)^(٣).

وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مخاطباً عمار بن ياسر (يا عمار تقتلك الفئة الباغية، وانت إذ ذاك مع الحق والحق معك، يا عمار بن ياسر: إن رأيتَ علياً قد سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فإنه لن يدلك في ردى ولن يخرج من هدى)^(٤).

وعنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (يا بن عباس: سوف يأخذ الناس يميناً وشمالاً، فإذا كان كذلك فاتبع علياً وحزبه فإنه مع الحق والحق معه، ولا يفترقان حتى يردا عليّ

(١) راجع موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عَلَيْهِ السَّلَامُ) في عشر مجلدات بإشراف الشيخ الريشهري.

(٢) الفصول المختارة: ١٣٥، ٩٧.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب: ٣٠/٢.

(٤) تاريخ بغداد: ١٨٧/١٣ الرقم ٧١٦٥.

الحوض) (١).

فالنبي (ﷺ) يحذر الأمة من اتباع الوسائل غير الدقيقة لمعرفة الحق كالانخداع بالعناوين الكبيرة والرموز التي صنعت لها هالة اجتماعية كما حصل في معركة الجمل حين انخدع كثيرون بفلانٍ وفلانٍ وفلانة بحجة قربهم من رسول الله (ﷺ)، وجاء تعليق أمير المؤمنين (عليه السلام) لايقاظ هؤلاء الغافلين حيث قال له أحدهم: (أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة) فقال (عليه السلام): (يا حارث انك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه) (٢).

كان أبان بن تغلب من اجلاء أصحاب الأئمة السجاد والباقر والصادق (صلوات الله عليهم أجمعين) وكان الأئمة يعطونه مكانة خاصة، كان الإمام الباقر (عليه السلام) يقول له: (يا أبان اجلس في مسجد المدينة وافت الناس، فإنني أحب أن يرى في شيعتي مثلك) (٣)، روى بعضهم قال: (كنا في مجلس أبان بن تغلب فجاءه شاب فقال: يا أبا سعيد كم شهد مع علي بن أبي طالب (عليه السلام) من أصحاب النبي (ﷺ) قال: فقال له أبان: كأنك تريد أن تعرف فضل علي (عليه السلام) بمن تبعه من أصحاب رسول الله (ﷺ) قال: فقال الرجل: هو ذاك، فقال: والله ما عرفنا فضلهم إلا باتباعهم علياً) (٤) فنبهه إلى هذا المقياس المقلوب في معرفة الحق ولم يكن

(١) كفاية الأثر: ١٨.

(٢) نهج البلاغة: قصار الكلمات رقم: ٢٦٢.

(٣) رجال النجاشي: ١٠.

(٤) معجم رجال الحديث: ١/١٣٣.

مراد السائل لينطلي على مثل أبان فإن الحق حق ولا يضره قلة أتباعه، أو كثرة خصومه وعناوينهم الاجتماعية.

وقسم آخر من الناس يجعل بعض الاعتبارات مقياساً لكون الحق معه كجريان الأمور على ما يريد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ (الحج: ١٧) أو يجعل الانتصار في المعركة دليلاً على كونه محقاً فإذا خسر الجولة شكك وتردد وتمرد وكان بعض من يُقاتل مع أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفين على هذا النحو، فكان عمار بن ياسر يقاتل وهو يقول: (قاتلت تحت هذه الراية مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) ثلاثاً، وهذه الرابعة، والله لو ضربونا حتى يبلغ بنا السعفات من هجر - في جنوب الجزيرة العربية - لعلمنا أنا مع الحق وأنهم على الباطل)^(١).

فهذا نموذج للراسخين في إيمانهم والواثقين بقيادتهم الذين لا تزلزلهم الأراجيف والارهاصات وقد أثنى عليهم أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد استشهادهم في صفين فيقف على المنبر ويقبض على شيبته الكريمة وهو يبكي ويقول (أين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار أين ابن التيهان وأين ذو الشهادتين، وأين نظراؤهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على المنية وابتدروا برؤوسهم إلى الفجرة، أوّه على اخواني الذين تلووا القرآن فأحكموه وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة وأماتوا البدعة دعوا للجهاد فأجابوا ووثقوا بالقائد فاتبعوه)^(٢).

(١) الخصال: باب الخمسة، في بعث النبي (صلى الله عليه وآله) بخمسة أسياف، ح ١٨.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٨٢.

وهذا المقياس الصحيح للحق - وهو الكون في صف علي بن أبي طالب (عليه السلام) - جاري في كل زمان إذا تعددت الانشاقات والاصطفافات والمواقف والجهات فإنه إذا كان مخلصاً وطالباً للحقيقة فإن الله تعالى سيصره بالصف الذي يكون فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قال (عليه السلام) (من كان مقصده الحق أدركه ولو كان كثير اللبس)^(١).

قال أبان وهو يعرف اتباع الحق في كل جيل الذين يقفون في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام) (يا أبا البلاد: تدري ما الشيعة؟ الشيعة الذين اذا اختلف الناس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخذوا بقول علي (عليه السلام)، وإذا اختلف الناس عن علي (عليه السلام) أخذوا بقول جعفر بن محمد)^(٢).

وفي هذا جواب على من يريد أن يخلط الأوراق ويلبس على الناس ويقول لا فرق بين السنة والشيعة فكلاهما ينتهي سند أحاديثه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والجواب أن الفرق في أن تعرف عمّن تأخذ اذا اختلف الناس، فإذا اختلف الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخذوا بقول أمير المؤمنين (عليه السلام) وإذا اختلف الناس بعد الحسين (عليه السلام) أخذوا بقول السجاد (عليه السلام) وإذا اختلفوا بعد الباقر (عليه السلام) أخذوا بقول الصادق (عليه السلام) وبذلك تُعزل الفرق الكثيرة التي انشقت في كل مفترقات الزمان ومراحل التاريخ.

فلنطبق هذا الشعار (كن في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام)) في كل حياتنا ونجعله البوصلة التي تحدد مساراتنا، وسوف يهدينا الله تعالى إلى

(١) غرر الحكم: ٩٠٢٤.

(٢) رجال النجاشي - النجاشي: ص ١٢.

الموقف الصحيح، مثلاً عندما أقام السيد الشهيد الصدر الثاني (قده) صلاة الجمعة وافترق الناس، منهم من التحق به وشهد هذه الشعيرة المباركة واستضاء بنورها، ومنهم من عارضها وخذل عنها ووصفها بما يشينها كالفتنة والبدعة وحينئذ يسأل المتردد نفسه: أترى لو كان عليٌّ (عليه السلام) موجوداً فأين يكون صفه لأكون فيه؟ وستجد الجواب حاضراً بلا تردد أنه لا يمكن أن يكون في صف المعادين لإقامة هذه الفريضة المباركة التي وردت مئات الروايات في فضلها ووجوب اقامتها والحضور فيها وبركاتها على الدين والأمة.

وأنقل لكم هذه الحادثة، فعندما أقام السيد الشهيد الصدر (قده) صلاة الجمعة وعين المساجد التي تُقام فيها، كان أحدها من المساجد المهمة التي فيها حضور لافت كمّاً وكيفاً وفي منطقة حسّاسة من محافظة مهمة، يروي إمام المسجد الراتب وهو من أسرة دينية معروفة ويتبع المرجعية الأخرى، أن سلطات الأمن علمت بالقرار فأبلغته رفضها لإقامة الجمعة في هذا المكان، فوسّطني لإقناع السيد الشهيد (قده) بتغيير المكان ولم ينجح، وفي صباح يوم الجمعة طلب منه مدير الأمن الحضور في المسجد لإعطاء شرعية لتصرفاتهم وحضر المدير وضباطه وجلاوزته، وكان الشباب الرساليون والمؤمنون المضحون يتقاطرون على المسجد وبأيديهم المصاحف وسجادات الصلاة ليفرشوها ويتلون القرآن انتظاراً لوقت الصلاة، ويزداد العدد كل ما مضى الوقت ومدير الأمن يتصل بالقيادة ويبلغها بالحاجة الى مزيد من قوات الأمن لأن الموقف سيخرج عن السيطرة وهكذا مر الوقت على هذا الإمام وهو يحدث نفسه: يا لسوء عاقبتى بعد العمر الطويل في إمامة الصلاة والخطابة والعمل الديني أقف في صف الذئاب المفترسة

من أزلام صدام في مواجهة هذه الجموع المؤمنة الصالحة، وقد رحم الله تعالى تائب ضميره بهذا المقدار وانفضَّ الجمعان بلا مواجهة ونُقلت الصلاة إلى موضع آخر، ومحل الشاهد أنه ليس صعباً أن تعرف الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام) لتكون فيه.

والشاهد الآخر عندما قُدِّم القانون الجعفري إلى الحكومة لمناقشته وعرضه على البرلمان، حصل اصطفاغان، فريق يسعى لإقامة شريعة الله تعالى في الأرض ويحمي الناس من الوقوع في المحرمات ويدلهم على الهدى والصلاح، وفريق رفع شعار اجهاض القانون الجعفري ضمّ دعاة الانحلال الأخلاقي والمعادين للدين مدعومين من قبل قوى الكفر العالمي وهذا ليس غريباً والمواجهة معهم طبيعية، لكن الغريب أن يكون بعض من يسمّى بمراجع دين ومعمّنين يتمون إلى الحوزة العلمية هم أوّل من أوقد نار الاعتراض وأججها وشجع اولئك على رفع أصواتهم بالاعتراض، فعلى هؤلاء أن يراجعوا أنفسهم ويمتحنوها بأنّ علي بن أبي طالب (عليه السلام) في أيّ صف؟ أليس في صف قانون ولده جعفر الصادق (عليه السلام) الذين هو قانونه وهل رسالة علي (عليه السلام) غير رسالة الله تعالى ورسالة النبي الكريم (صلى الله عليه وآله) ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣) ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (الحج: ٤١).

وهكذا تستمر المواقف التي تختلف فيها الأمة، فعندما وجّهت النساء المؤمنات العفيفات بأن لا يخرجن لزيارة الأربعين من المدن البعيدة كالبصرة والناصرية والعمارة إلى كربلاء مشياً ويقطعن الصحارى والقفار ويقضين أياماً بلا ترتيب للأوضاع التي تؤمن مسيرتهن ويحصل ما يحصل مما لا يرضى به الله

ورسوله وأيدها الواعون الغيورون والتزمت بها غالب النساء لأن التوجيه عبر عمّا كان يتلجلج في صدور المؤمنين إلا أنهم يتخوفون من اعلانه لاتهامهم بمعادات الشعائر الحسينية، وهنا رفع المتاجرون بالدين عقيرتهم ضد هذا التوجيه ومارسوا أنواع التسقيط والتشويه والافتراء وخلط الأمور لإثارة الجهلة والبسطاء من عوام الناس وتحريضهم على لعن من يريد الاصلاح لثنيهم عن عزيمتهم مستخدمين هذا الارهاب الفكري والاجتماعي.

وهنا يأتي دور البوصلة لتوجه المسار الصحيح، فإنّ علياً (عليه السلام) لو كان موجوداً فإنه لا يرسل ابنته العقيلة زينب لتسير وحدها في الصحراء لا يعرف عند من تبيت وماذا يجري لها بل إنّ هؤلاء المعترضين أنفسهم يروون أنه (عليه السلام) كان إذا أرادت العقيلة زينب زيارة جدها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمها الزهراء (عليها السلام) خرج أبوها أمامها وأخواها الحسنان حولها (وبيته (عليه السلام) ملاصق للمسجد ولا يقطعون مسافة)^(١) وأطفاً قناديل المسجد وأخرج من فيه لثلاً يرى أحداً شخصها، فلماذا يقف هؤلاء في غير صف أمير المؤمنين (عليه السلام).

إن من لم يكن في صف علي بن أبي طالب (عليه السلام) فريقان:

أولهما: الواقف على الحياد بمسافة واحدة من الحق والباطل، متظاهراً بالاحتياط والتقديس والحذر من الوقوع في الفتنة ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ (التوبة: ٤٩) كالذين لم يبايعوا أمير المؤمنين (عليه السلام) لأغراض شتى مثل سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر وسعيد

(١) زينب الكبرى - الشيخ جعفر النقدي: ٢٢.

بن مالك وحسان بن ثابت وهؤلاء قال فيهم أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن سعيداً وعبد الله بن عمر لم ينصرا الحق ولم يخذلا الباطل)^(١).

فقد سولت لهم أنفسهم وغرّهم الشيطان بأنهم يحسنون صنعا، حينما يقفون محايدين بين الحق والباطل لكنهم ارتكبوا كبيرتين وتركوا فريضتين عظيمتين: نصرة الحق ومواجهة الباطل، فنصروا الباطل مرتين.

ثانيهما: الصف الذي يقف في مواجهة علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهؤلاء طبع الله على قلوبهم ومنهم من يفخر بذلك ومنهم عبد الله بن الزبير الذي يقول: من مثلي وقد وقفت في الصف بأزاء علي بن أبي طالب^(٢) هذا وهو يعلم منزلة أمير المؤمنين وقد سمع من أبيه الزبير وخالته عائشة ما لا يحصى في ذلك لكن الإمام الصادق (عليه السلام) يقول: (ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى أدرك فرخه ونهاه عن رأيه)^(٣).

نسأل الله تعالى أن يجعلنا دائماً في الصف الذي فيه أمير المؤمنين (عليه السلام) ويدلنا عليه بلطفه وحسن توفيقه كما وعدنا (عليه السلام): (من كان مقصده الحق أدركه ولو كان كثير اللبس).

(١) نهج البلاغة: قصار الكلمات رقم ٢٦٢.

(٢) بحار الأنوار: ١٤٣/٤١ عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، قال: انتبه معاوية يوماً فرأى عبد الله بن الزبير جالساً تحت رجله على سريره فقال له عبد الله يداعبه: يا أمير المؤمنين لو شئت أن أفتك بك لفعلت. فقال: لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر، قال: وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت في الصف بأزاء علي بن أبي طالب. قال: لا جرم أنه قتلك وأباك بيسرى يديه وبقيت اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها.

(٣) الخصال، أبواب الثلاثة، ح ١٩٩ في بيان ثلاث خصال في السفرجل.

القبس/٨٣

سورة التوبة: ﴿١٢٢﴾

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا
فِي الدِّينِ﴾

موضوع القبس: وجوب التحاق النخب بالحوزات العلمية

الآية تدعو نخباً من الأمة لكي ينفروا لطلب العلم والتفقه في الدين ثم التحرك بهذا العلم والفقهاء إلى سائر الناس ليرشدوهم ويعلموهم ويأخذوا بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم، ففي الآية تكليفان الأول لعموم الأمة، والثاني للنخبة الذين التحقوا بمعاهد العلم والحوزات الدينية ليؤدوا الرسالة التي تحملوها، والتقصير متحقق بكلا الاتجاهين، وسنتحدث هنا عن التكليف الأول وهو حث الأمة على التفقه في الدين، لأن الثاني نوجهه إلى الحوزة العلمية.

وإنما قلت للنخب من الأمة لأنه ليس الكل مؤهلين لهذه الوظيفة الإلهية وهذا التشريف المبارك، كآية الأخرى في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٤) ثم شرحت الرواية صفات هذه الجماعة المكلفة بهذه الوظيفة^(١).

إن هذا الحث الإلهي ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ مصداق لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤) والتفقه في

(١) راجع وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي، باب ٢.

الدين هو الذي يحيي العقول ويطهر القلوب ويهذب النفوس ويسمو بالروح، فلا يسع الأمة إلا الاستجابة لهذه الدعوة.

عدد النافرين الى الحوزات:

وتحدد الآية النسبة المعقولة لعدد النافرين إلى الحوزات العلمية للتفقه في الدين بطائفة من كل فرقة والطائفة في اللغة أقلها ثلاثة، ومعدل الفرقة ثلاثة آلاف، فالنسبة المعقولة هي واحد من كل ألف، وأن لا يقتصر الانضمام إلى الحوزة العلمية على فئة أو شريحة أو مدينة أو أسرة بل المطلوب أن تنفر طائفة من كل فرقة من المسلمين سواء أكانت الفرقة عشيرة أو أهل مدينة أو ريف أو حي سكني ونحوها.

وما زالت الأمة بعيدة كل البعد عن تحقيق الاستجابة لهذه الدعوة على صعيد شعبنا في العراق فكيف إذا لاحظنا مسؤوليتها عن حركة الإسلام في العالم كله لأن النجف الأشرف والعراق عاصمة الإسلام ومنطلق الدعوة العالمية لدولة الحق والعدل.

ألسنا جميعاً ندعوا بما علمنا به الإمام المهدي (عليه السلام) في زمان الغيبة أن ندعوا: (اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة) وفيه (وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك)^(١) فكيف نكون من طالبي هذه الدولة الكريمة والممهدين لها والدعاة إلى طاعة الله تعالى والقادة إلى سبيله من دون التفقه في الدين وتحصيل العلوم الدينية الشريفة؟

(١) انظر مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح من أعمال شهر رمضان المبارك.

وتتحدث الآية عن تكليف موجه للنخب من الأمة ليتفقهوا في الدين وهو غير تكليف عموم الأمة بمعرفة أساسيات دينها، حيث تحفل كتب الحديث بالروايات التي تلزم الناس بالتفقه في الدين، والحد الأدنى منه الذي لا يعذر فيه أحد هو التفقه في العقائد والأحكام الابتدائية كأحكام الطهارة والصلاة والصوم والخمس ونحوها، والأحكام المختصة بالعمل الذي يعمل فيه كالتاجر في تجارته، والمعلم في مدرسته والطبيب في مستشفاه والسياسي عند ممارسة عمله المليء بالمزلق والمرديات وهكذا.

حث أهل البيت (عليهم السلام) على التفقه:

في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا أعراباً فإن من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة، ولم يزك له عملاً^(١)).

وعنه (عليه السلام) قال: (لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا)^(٢).

وروي أنه (قال له رجل: جعلتُ فداك رجل عرف هذا الأمر - إمامتهم (عليهم السلام) - لم يمتهم ولم يتعرف إلى أحدٍ من إخوانه، قال: فقال: كيف يتفقه هذا في دينه؟)^(٣).

وسئل الإمام الكاظم (عليه السلام) (هل يسع الناس ترك المسألة عما يحتاجون

(١) الكافي: ج ١/ ص ٣١.

(٢) الكافي: ج ١/ ص ٣١.

(٣) المصدر السابق.

إليه؟ فقال: لا^(١).

وروى الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عن جده رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: قال رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أُمَّ لِرَجُلٍ لَا يُفَرِّغُ نَفْسَهُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ لِأَمْرِ دِينِهِ فَيَتَعَاهَدُهُ وَيَسْأَلُ عَنِ دِينِهِ^(٢).

وعن الإمام الباقر (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (تذاكر العلم دراسةً والدراسة صلاةً حسنةً).
وورد في لزوم تفقه التاجر في أعمال السوق قول الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ):
(من أراد التجارة فليتفقه في دينه ليعلم بذلك ما يحل له مما يحرم عليه، ومن لم يتفقه في دينه ثم اتجر تورط في الشبهات)^(٣) وبحسب مناسبة الحكم والموضوع يُعلم أن الوجوب متوجه لكل شخص لكي يتفقه في عمله.

مستويات التفقه:

فهذا هو النحو من التفقه الذي يشمل بوجوبه كل الناس وله مستويان، عام:
أي في المسائل الابتلائية التي يشترك فيها كل الناس كالطهارة والصلاة والصوم والخمس، وخاص: أي بخصوص مسؤولياته كعمله أو إدارة أسرته كالعلاقة مع الوالدين أو الزوجة أو الأبناء وتربيتهم وهكذا.

ومن نعم الله تعالى على أهل هذا الزمان وجود منافذ كثيرة لهذه المعرفة كالمحاضرات الدينية في المساجد وخطب الجمعة والمجالس الحسينية

(١) انظر الكافي: ج ١، كتاب فضل العلم، باب ١.

(٢) هذا الحديث والذي يليه في أصول الكافي، ج ١، كتاب فضل العلم، باب سؤال العام وتذاكره، ح ٥، ٩.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب التجارة، أبواب آداب التجارة، باب ١، ح ٤.

والكتب والنشرات وما تعرضه الفضائيات الدينية من برامج نافعة.

أما النحو الآخر من النفقه وهو الالتحاق بالحوزات العلمية لتحصيل علوم أهل البيت (عليه السلام) في العقائد والأخلاق وأحكام الشريعة ثم إيصالها إلى عموم الناس لهدايتهم فهو تكليف نخب من الأمة.

وقد ذكرنا أن العدد الذي يريده الله تبارك وتعالى لم يتحقق بعد ولا زالت الحاجة على أشدها لالتحاق النخب المخلصة الواعية المثقفة العارفة بأمور زمانها بالحوزة العلمية، حتى لو قلنا أنه وجوب كفايي كما قيل فإنه لا يسقط حتى يتحقق الواجب وإلا يآثم الجميع وقد اتضح أن العدد لم يتحقق، فهل نفر من المحافظة التي سكانها مليونان ألفان لطلب العلم؟ إذن لا زالت المسافة بعيدة لنخرج من عهدة هذا التكليف.

ولقد اتخذنا هنا عدة خطوات لتوسيع هذه الفرصة أمام الجميع فنشرنا فروع جامعة الصدر الدينية في لمحافظات حتى تجاوزت عشرين فرعاً، فمن لم يتيسر له الإقامة في النجف للدراسة نقلنا حوزة النجف إليه ووفرننا المتطلبات التي تُيسّر الدرس والتحصيل، مع تشجيع المؤهلين لمواصلة الدراسة في النجف الأشرف، كما تتوفر الأقراص المدمجة التي تضم دروس أساتذة متخصصين لجميع مراحل الدراسة ولكل مفرداتها، وهذا أسلوب آخر ميسّر لتحصيل العلوم الدينية والارتقاء فيها.

اللطف خاص:

وينبغي الالتفات إلى أن سلوك هذا الطريق لا يتيسر لكل أحد إلا بلطف خاص من الله تعالى، وليس كل أحد يوفق إليه ويوفق فيه، فألحوا في الدعاء

والطلب من الله تعالى وأصلحوا أنفسكم وأخلصوا نياتكم كي يختاركم الله تعالى لحمل هذه الأمانة الإلهية العظيمة، لما ورد من الفضل العظيم والدرجة الرفيعة لحملة العلم، وأنقل لكم رواية واحدة تغنيكم عن الباقي وهي كافية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ففي رواية صحيحة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (قال رسول الله ﷺ): من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به، وإنه يستغفر لطالب العلم مَنْ في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر^(١).

منزلة بكير بن أعين:

وأنقل لكم رواية في منزلة أحد حملة علوم أهل البيت (عليهم السلام) ورواية أحاديثهم لتكونوا كلكم مثله وفي منزلته ولا يكلفكم ذلك شيئاً كما كلفهم في ذلك الزمان، ففي رواية صحيحة أن الإمام الصادق (عليه السلام) لما بلغه وفاة بكير بن أعين قال: (أما والله لقد أنزله الله بين رسول الله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما) وعن عبيد بن زرارة بن أعين قال: (كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فذكر بكير بن أعين فقال: رحم الله بكيراً، وقد فعل، فنظرت إليه وكنت يومئذٍ حديث السن،

(١) أصول الكافي: ج ١، كتاب فضل العلم، باب ثواب العالم والمتعلم.

فقال: إني أقول إن شاء الله^(١).

التفقه في كل الدين:

إن مسؤوليتنا لا تقف عند حدود تلقي العلوم المتعارفة في الحوزة العلمية والتي تختص بالأحكام الشرعية وما يرتبط بها، مع أن المطلوب في الآية الشريفة هو التفقه في الدين كل الدين^(٢) كالعقائد وتفسير القرآن والمعرفة بالله تعالى وتهذيب النفس بالأخلاق الفاضلة وسيرة المعصومين (عليه السلام) وكل ما يتصل بالدين من علوم ومعارف وما نحتاجه في حركة الإسلام العالمية ونشره وإقناع البشرية به والدفاع عنه ورد الشبهات ومواجهة الفتن والحوار مع الأديان والحضارات والأيديولوجيات الأخرى، وهذا باب واسع ينكشف منه بوضوح الجهل والتقصير اللذان يكتنفان الأمة بكل طبقاتها.

إن أيسر شيء اليوم وأبخس الأشياء ثمناً هو الكتاب ووسائل التثقيف والتعلم والاطلاع متيسرة وبتقنيات عالية، فلا عذر لأي أحد في عدم التفقه في الدين، في حين كان أحدهم في الأزمنة السابقة يدفع حياته ثمناً للحصول على كتاب ديني وكانوا يتبعون مختلف أساليب التمويه والتستر للوصول إلى المعلومة.

(١) الروايتان أوردهما الكشي في رجاله ونقلهما السيد الخوئي (تت) في معجم رجال الحديث:

٣٥٣/٣.

(٢) شرحنا معنى مفردة (الفقه) بحسب المصطلح القرآني في تفسير من نور القرآن قبس قوله

تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠).

أهمية العلم والعلماء في الإسلام:

إن للمسلمين أن يفخروا بأن دينهم سبق المجتمع البشري بقرون في الاهتمام بالعلم والعلماء وتفضيلهم ولزوم طلب العلم وإلزام العلماء بتعليم الأمة وإرشادها مما يعرف اليوم بالتعليم الإلزامي ومكافحة الأمية.

إن وظائف المرجعية والحوزة العلمية المرتبطة بالمرجعية ليست علمية فقط بل هي مسؤولة عن قيادة الأمة والدفاع عن كيائها وهويتها وتحقيق مصالحها وحل مشاكلها ورفع الحيف والظلم عنها مضافاً إلى الدور العالمي في إعلاء كلمة الله تبارك وتعالى ونشر الإسلام وتعاليم أهل البيت (عليه السلام) وهذا يتطلب قاعدة واسعة من العاملين الرساليين المخلصين، ولذا قلنا بعدم الاستغناء بوسائل تحصيل العلوم الدينية عن الالتحاق بالحوزات العلمية.

وهذا كله يكشف عن فظاعة التقصير في تطبيق هذه الآية الشريفة ويدعونا إلى يقظة وحركة نحو رفق الحوزات العلمية بالكفاءات المختصة الواعية ونشر الكتاب الديني وتحبيب مطالعته إلى الناس والله الموفق.

فهذه الآية وكل آية لم تعمل بها الأمة تشكو الى الله تعالى ويشكو النبي (صلى الله عليه وآله) من أمته يوم القيامة لهجرهم كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣)، وورد مثله في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام): (ثلاثة يشكون إلى الله عز وجل: مسجد خراب لا يصلي فيه أهله، وعالم بين جهال، ومصحف معلق قد وقع عليه غبار لا يُقرأ فيه)^(١)، والهجران الذي يشكو منه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليس فقط من ترك قراءته وتلاوته، بل الأخطر من ذلك هو هجران العمل به، قال الإمام الباقر

(١) الخصال: ١٤٢/١ باب الثلاثة، ح ١٦٣.

(عليه السلام) وهو يذكر أنواع قراء القرآن: (ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده وأقامه إقامة القدح^(١)، فلا كثر الله هؤلاء من حملة القرآن)^(٢).

وليس فقط القرآن ككل يشكو بل تشكو كل آية من آياته التي لم يعمل بمضمونها، فتشكو آية ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى: ٢٣) من الذين تتبعوا عترة النبي (عليه السلام) تحت كل حجر ومدبر قتلاً وسجناً وتعذيباً وتشريداً أو أقصوهم عن مقامهم الذي يستحقونه.

وتشكو آية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧) من الذين انقلبوا على الأعقاب ولم يعملوا بوصية رسول الله (عليه السلام) في الأئمة من بعده.

وتشكو آية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩) من الذين عطلوا هذا الحكم ولم يوقّعوا على إعدام الإرهابيين القتلة رغم ثبوت الجرائم الفظيعة عليهم بحجة معاهدات حقوق الإنسان ونحوها. وهكذا بقية الآيات الشريفة.

(١) القِدْح هو السهم، وكان العرب يستقسمون بالأزلام باستعمال القِداح، وقال الطريحي في المجمع (كأنه الذي يستقسم ويلعب به - يعني القرآن في الحديث أعلاه - كما يستقسم بالقِداح، والله العالم) ولعل استعمال الإمام (عليه السلام) للتشبيه من باب أن السهم يوضع بالمقلوب في جفير السهام. وربما يكون اللفظ (القِدْح) وهو الإناء الكبير قال الطريحي: (وفي حديث النبي (عليه السلام) (لا تجعلوني كقِدْح الراكب) يعني لا تؤخروني في الذكر، لأن الراكب يعلق قدحه في آخر رحله عند فراغه من رحاله ويجعله خلفه) مجمع البحرين: ٤٦٢/٣، وجميع المعاني المحتملة مقبولة في وصف شأن الناس مع القرآن.

ملحق: التبليغ رسالة الأنبياء (عليه السلام) التي ورثتها الحوزة العلمية

أكد المرجع الديني سماحة الشيخ محمد يعقوبي (دام ظله) على ضرورة النظر بعين الاهتمام والمسؤولية للجنبتين المتلازمتين اللتين دعت إليهما آية (النفر) الشريفة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢)، وعدم التفكيك بينهما بحالٍ من الأحوال، وهما طلب العلم والدعوة إلى الله وتبليغ أحكامه.

وتأسف سماحته (دام ظله) - خلال كلمة ألقاها بمكتبه في النجف الأشرف، على جمع من الفضلاء وطلبة العلم، قبل شروعهم بمهمة التبليغ الديني، خلال أيام الزيارة الاربعينية المباركة - على الثقافة السائدة في أوساط الحوزة العلمية وبين الكثير من طلبة العلم حيث يُقصر عن إهتمامهم على المسؤولية الأولى التي دعت إليها الآية الكريمة، وهي طلب العلم والتحصيل والاشتغال بالدروس فقط، دون النظر إلى المسؤولية الأخرى، وهي الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ أحكام الدين والعقائد الحقّة، وتوعية الناس وتبصرتهم.

وأعتبر سماحته (دام ظله) أن هذا النمط من التفكير يكشف عن قصورٍ في فهم هذه الآية الكريمة وخللٍ في تطبيق مصاديقها على أرض الواقع، ومخالفة لما أراده الشارع المقدس عبر الموروث الروائي عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، إذ ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) (إن تلك المجالس أحبها، فأحيوا أمرنا، فرحم الله من أحيأ أمرنا)^(١).

(١) بحار الأنوار: ج ٤٤ / ص ٢٨٢ / ح ١٤.

وروى الهروي في عيون أخبار الرضا (عليه السلام) قال: (سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) يقول: رحم الله عبد أحيا أمرنا فقلت له: وكيف يحيي أمركم؟ قال: يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا)^(١).

فترى الملازمة بين الوظيفتين واضحة في بيان الإمام الرضا (عليه السلام)، وهذا من أوضح مصاديق تنمة الآية الكريمة ﴿وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، لافتاً الى عدم كفاية الانكفاء على الدروس والتحصيل - لأن ذلك يمثل نصف الطريق، ولا تتحقق به الغاية أبداً- ما لم يقترن بالفهم الصحيح لمسؤولياتنا كطلبة علم، فلنتزم بها ونتحرك باتجاهها، على أوسع نطاق وبكل الوسائل المتاحة (الممكنة).

وأوضح سماحته إن التبليغ هو رسالة الأنبياء (عليهم السلام) ووظيفتهم ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (الأحزاب: ٢٠)، وفي ضوء ذلك ينبغي لطلبة العلم أن يقتدوا بهم (عليهم السلام) وأن يتحلوا بالشجاعة وأن يخرجوا من ربة القيود التي فرضتها التقاليد الموضوعية وأصبحت متعارفة الآن، ولا أساس شرعياً لها، بل هي خلاف سيرة المعصومين (عليهم السلام) وما جرى عليه الكثير من العلماء العاملين الذين قالوا كلمتهم وأخلصوا لله تبارك وتعالى ولم يضعوا نصب أعينهم الا الله عز وجل فَحَلَّدَ ذِكْرَهُمْ فِي سَجَلِ الْخَالِدِينَ، وما قيل أو يقال في تشييط عزائم الحوزة العلمية، وتبرير قعودهم عن

(١) بحار الأنوار: ج ٢/ ص ٣٠، عن معاني الأخبار، عيون أخبار الرضا (عليه السلام).

أداء رسالة التبليغ، وهم من تسويلات الشيطان ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥).

وأبدي سماحته (دام ظله) أسفه لهذا الحال ولشروع هذه (الثقافة) التي يعمل (البعض) على تكريسها فيجري عليها السواد الأكبر من طلبة العلم بطريقة السلوك الجمعي من دون تفكير أو تأمل.

وتساءل سماحته مستغرباً!! ألم يكن رسول الله (ﷺ) خطيباً؟ ألم يكن أمير المؤمنين (عليه السلام) خطيباً؟ ألم يكن الإمامان الحسن والحسين (عليهما السلام) خطيبين؟! إذن فلماذا يعتبر حديث العلماء المباشر مع الأمة نقصاً أو مثلبة؟! ولماذا لا تسمع الأمة مباشرةً من قادتها وتأخذ الكلام من عين صافية، وبين أيدينا الكثير من تراث الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وكان من جملة توصياته لقثم بن العباس عامله على مكة (ولا يكن لك الى الناس سفيراً الا لسانك ولا حاجباً الا وجهك)^(١)، اي لتسمع الناس منكم مباشرة من دون واسطة تتحدث نيابة عنكم ونحو ذلك، وهذه هي سياسة أمير المؤمنين (عليه السلام) وهذا هو أدب المعصومين (عليهم السلام) الذي ينبغي السير على هداه والأخذ به.

وكرر سماحته (دام ظله) دعوته لاغتنام أجواء الزيارة الاربعينية المباركة في الدعوة الى الله تبارك وتعالى، وتوعيه الناس وإرشادهم ونبذ كل عوامل التفرقة والتقاطع، فقد أخذت الناس ترتقب هذه الزيارة من عام إلى عام وهي فرصة كبيرة للملايين لأن يلتقوا بطلبة الحوزة العلمية ويسمعون منهم مباشرةً ويشاهدون مواكب الوعي والإرشاد ويعيشون أجواء روحية سامية يفيضها الله تعالى كرامة

(١) نهج البلاغة: ج ٣/ ص ١٢٧.

لأبي الأحرار (عليه السلام) لأنهم منقطعون طول السنة عن مراكز الاشعاع الديني ومنشغلون بهموم الحياة.

كما أن هذه الزيارة المباركة أصبحت بفضل الله وبمرور الزمن ملتقى عالمياً كبيراً تجتمع فيه مختلف الجنسيات والقوميات، وهي سوق رائجة للدعوة إلى الله وبث الوعي والمعرفة، مستشهداً بالحديث الشريف الذي روته السيدة الزهراء (عليها السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قالت سمعت أبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: (إن علماء شيعةنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدّهم في إرشاد عباد الله حتى يخلع على الواحد منهم ألف خلعة من نور، ثم ينادي منادي ربنا عز وجل: أيها الكافلون لأيتام آل محمد والناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم)^(١).

وأشار سماحته إلى الأمرين المهمين الواردين في الحديث وهما شرط الفوز بخلع الكرامات، وأولها (كثرة علومهم) وهذا وحده لا يكفي لتحقيق المطلوب، بل يعود بالنفع على نفس الطالب بأن يصبح (علامة) مثلاً، أو يُلقى الدروس العالية ك(الكفاية والمكاسب) ويجتمع حوله عدد من الطلبة، كل هذا وحده لا يكفي، ما لم يتحقق الشرط الثاني وهو (جدّهم في إرشاد عباد الله) وهذا هو الهدف الأهم والغاية من ذلك، ففي تنمة الحديث الشريف (أيها الكافلون لأيتام آل محمد، الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم)، فهؤلاء الناس أيتام انقطعوا عن آبائهم الحقيقيين (يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة)^(٢)، وحرّموا من

(١) بحار الأنوار: ج ٧/ ص ٢٢٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣٦/ ص ١١.

بركاتهم.

ثم وجه سماحته خطاباً الى هذا التجمع من الفضلاء والى جميع أساتذة وفضلاء الحوزة العلمية الشريفة: (وأنتم أيها العلماء ورثة الانبياء كما جاء في الحديث الشريف (العلماء ورثة الأنبياء)^(١)، وأنتم أيضاً بمثابة الآباء لهذه الأمة وهؤلاء (أيتامكم) ويقعون تحت مسؤولياتكم، فبادروا ولا تدخروا وسعاً في هدايتهم ورعايتهم، فمن يدري لعل بعض هؤلاء (الأيتام) يستوقفنا يوم الحساب ويأخذ بتلابينا، ويقول أنا جارك أو أنا البقال الذي كنت تشتري منه أو: أنا سائق التاكسي الذي كنت تستأجره أو أنا زميلك في العمل أو رفيقك في سفرة الحج، وقضينا أياماً معاً ولم تعلمني هذه المسألة ولم تصحح لي الوضوء والصلاة ولم ترشدني الى هذا الخير، ولم تحذرنني من ذلك السوء، ولم تذكرني بهذه الموعظة، ونحو ذلك.. وعلى ذلك يمكنكم أن تقيسوا غيرها، فكم من شخص سيوقفنا يوم القيامة وسنسال عنه، وعن حقه؟

وفي ختام كلمته دعا سماحته (دام ظله) المبلغين لأن تكون لهم نظرة ميدانية فاحصة بحيث يعرفون ما ينبغي التحدث به مع الزوار بمختلف أجناسهم وجنسياتهم وأعمارهم وانتماءاتهم، وبما يقتضيه الوضع الراهن والمناسبة والتحديات المعاصرة والمسائل والمشاكل المستحدثة فكرياً وعقائدياً واجتماعياً وأخلاقياً، وعلى رأس هذه الأمور حث الناس على إقامة صلاة الجماعة في كل أوقات الصلاة، وشرح الأحكام الشرعية الأساسية كالوضوء والصلاة ووجوب الرجوع إلى المرجع الديني الجامع للشرائط في سائر الأمور، مضافاً إلى كلمات

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ١ / ٣٤ / باب ثواب العالم والمتعلم / ح ١.

الموعظة والإرشاد والتوجيه بما ينفعهم في ظل الفتن المتتالية على العالم الإسلامي، حتى لا يكونوا فريسة للمطامع الشبهات والمزالق.

وأن يقرأوا حركة الإمام الحسين (عليه السلام) بوعي وبصيرة ونحن نصفه (عليه السلام) في الزيارة الأربعينية بأنه (بِذَلِكَ مُهَجَّتَهُ فِيكَ لَيْسْتَنْقِدَ عِبَادَكَ مِنَ الْجَهَالَةِ وَخَيْرَةَ الضَّلَالَةِ)^(١) فلا يصح أن تعود الملايين من زيارته (عليه السلام) وهي خالية من الزاد الروحي.

كما أوصى سماحته (دام ظله) بالتذكير بالإمام المهدي (عليه السلام) والتعريف بقضيته المقدسة وسبل إحيائها، والتمهيد لها بالشكل الصحيح وتفنياد الادعاءات التي تنسب له بشكل أو بآخر.

(١) مفاتيح الجنان - الزيارة الأربعينية.

﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾

ذكرت الآية ١٢٨ من سورة التوبة عدة أوصاف وملكات للنبي (ﷺ)، قال تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) وهي صفات يجب ان يتحلى بها كل أولياء الأمور ابتداءً من رب الأسرة إلى رئيس الدولة تأسياً بالنبي (ﷺ) بحسب ما حثت عليه الآية الكريمة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١).

ومحل الكلام وصفه (ﷺ) بأنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ويُعَرَّفُ الحرص لغةً بأنه أعلى درجات الرغبة المفرطة الشديدة مقرونة بالعمل من أجل جلب نفع أو دفع ضرر.

وهو بذاته لا يوصف بمدح أو ذم الا بحسب متعلقه، فقد يكون مذموماً كالحرص على الدنيا، قال تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ (البقرة: ٩٦)، وروى الشيخ الكليني (قدس سره) في الكافي عن رسول الله (ﷺ) قوله (من علامات الشقاء جمود العين وقسوة القلب وشدة الحرص في طلب الدنيا، والإصرار على الذنب)^(١)، وقد يكون محموداً، وصفة كمال كما في الآية محل البحث، فتعريف الراغب في المفردات بأنه ((فرط الشره وفرط الإرادة)) إن أراد

(١) الكافي: ٢٩٠/٢.

به المذموم خاصة كما يظهر منه فهو قاصر، لأن حكمه يتبع متعلقه مدحاً وذمّاً.
وقد يطلق الحرص في الأحاديث الشريفة الدائمة له بلا ذكر المتعلق ويراد به ما كان متعلقه مذموماً لأنه الغالب في الناس كقول رسول الله (ﷺ) (الحرص محروم، وهو مع حرمانه مذموم في أي شيء كان، وكيف لا يكون محروماً وقد فرّ من وثاق الله) ^(١) وقول أمير المؤمنين (عليه السلام) (الحرص ذميم المغيبة) ^(٢) وقوله (عليه السلام) (الحرص ذل وعناء) وقوله (عليه السلام) (الحرص عبد المطامع).

وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن رسوخ هذه الصفة السيئة لدى الإنسان الا من عصمه الله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج: ١٩-٢١) وقال تعالى ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾ (النساء: ١٢٨).

وبالرجوع إلى الآية الكريمة، فإنّ من صفات النبي (ﷺ) أنه حريص عليكم جميعاً أيها الناس ولا تختص بالمؤمنين برسالته أكثر من حرص الأم على أولادها، ولم يذكر المتعلق للدلالة على العموم، فهو يجتهد في هدايتكم وإصلاحكم وسعادتكم، ويتفانى في جلب نفع الدنيا والآخرة لكم ودفع الضرر عنكم، وكل ما يصدر منه (ﷺ) يؤدي إلى هذا الغرض وإن لم يستطيعوا فهمه أحياناً.

ولعل الغرض من وجود الآية في سورة التوبة التي تتحدث عن غزوة تبوك وما رافقها من عناء ومشقة وجهد وبلاء هو لتثبيت إيمانهم بالقيادة النبوية

(١) بحار الأنوار: ١٦٥/٧٣/ح ٢٦.

(٢) وما بعده، غرر الحكم: رقم ٤٣٠، ٦٩١، ٦٢٥.

المباركة، وإنَّ كل ما يأمر النبي (ﷺ) به وينهى عنه إنما هو نابع من هذه الصفات المباركة، فلا يتوهموا أن تكليفهم بالأفعال الشاقة كالجهاد وإنفاق المال في تلك الغزوة الشاقة العسيرة يعبر عن عدم اهتمام واكتراث بهم.

ولم يدخر (ﷺ) جهداً في ذلك إلى درجة أنه (ﷺ) أشرف على الهلاك من شدة الجهد النفسي والبدني والتأسف لعدم استطاعته هداية كل الناس وهي لعمرى أعلى درجات الحرص عليهم، فأشفق الله تبارك وتعالى عليه وخاطبه بقوله عزَّ من قائل ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦) وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣) والبخع قتل النفس غمًّا، فحسَّه الله تبارك وتعالى على أن لا يهلك نفسه حزناً وأسفاً وليدعهم وما يختارون ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ١٦٦) ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْتَةٍ﴾ (الأنفال: ٢٢).

روى البخاري بسنده عن أنس قال: أن غلاماً يهودياً كان يخدمُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم فمرض فأتاه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم يُعُودُهُ فقال له النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم: (أسلم) فنظر إلى أبيه وهو جالسٌ عند رأسه فقال له أطمعُ أبا القاسم قال: فأسلم قال: فخرج النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم من عنده وهو يقول: (الحمدُ لله الذي أنقذه من النار)^(١)، ويقدر هذا الشكر الصادر من أعماق قلبه الشريف، كان الأسف لو أفلتت منه نفس إلى النار.

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز / باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على

ورغم كل هذا الجهد كانت النتيجة كما ذكرها الله تعالى بقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: ١١٣) فالتقصير ليس من جهة النبي (ﷺ) لأنه عمل بأعلى درجات الحرص، الا أنهم لم يكونوا موفقين في خياراتهم بسبب اتباعهم الشهوات والاهواء، وطاعتهم للشياطين الذين يخدعونهم بأمر زائفة زائلة، وينسونهم الحياة الآخرة الباقية، فيكلهم الله تبارك وتعالى إلى ما اختاروا ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (النحل: ٢٧) فالحرص على هدايتهم لا يكفي ما لم يقترن بإرادة حقيقية منهم للتغيير نحو الأحسن.

إن الحرص على الناس صفة عظيمة تستحق التركيز عليها وبيانها وتعبئة الأمة للاتصاف بها، وكلما ازدادت دائرة الحريصين على مصالح الأمة ونفع العباد وهدايتهم إلى ما يصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة فإن المجتمع يكون بخير، كما أن فقدان هذه الصفة هو الذي يفسر الأحوال السيئة التي تعيشها الأمة مع وفرة الإمكانيات المادية والبشرية التي من الله تعالى بها عليها، وذلك لأنها ابتليت بتسلط شرذمة متجردة من هذه الصفة النبوية المباركة.

إن خير من يجسد هذه الصفة اليوم هو إمامنا المهدي الموعود (صلوات الله عليه) فإنه أولى الناس باتباع جده المصطفى (ﷺ)، وهذا ما يزيد الموالين اطمئناناً وسكينةً بأنهم في رعاية أحرص الناس عليهم، ولو لم تكن في انتظاره (ﷺ) وترقب ظهوره الا هذه الفائدة لكفى، وقد عبّر عن ذلك في رسالته إلى الشيخ المفيد (رحمه الله تعالى) بقوله (أنا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء أو اصطلمكم الأعداء فاتقوا الله جل جلاله

وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم يهلك فيها من حم أجله ويحمى عنها من أدرك أمله^(١).

فعلينا أن نربّي أنفسنا على هذه الصفة الحميدة، وأخص بالذكر الحوزة العلمية والمؤمنين الرساليين فهم أولى الناس بالتأسي برسول الله (ﷺ) وآله الكرام، روى أحد السادة الفضلاء أنه اعتاد أن يروي لأسرته بعض قصص الذين تشرفوا بلقاء الإمام المهدي (عليه السلام) والمعجزات التي جرت على يديه الشريفتين من التي ذكرها الميرزا النوري (رضوان الله تعالى عليه) في كتابه (النجم الثاقب) وغيره، وكان يلمس تأثيرها الروحي على المتلقين، فانقذت في ذهنه فكرة أن يدوّن مجموعة منها في كراس وجعل له عنوان (رسالة شفاء) ويوزعه على المرضى المصابين بأمراض مستعصية عجز الأطباء عن معالجتها، وقام بهذه الجولات، وكانت المفاجأة: ان مئات من هؤلاء شفوا ببركة تعلقهم بإمامهم الحريص عليهم، وما بعثه فيهم من الأمل والاطمئنان والسمو الروحي عند اطلاعهم على هذه الرسالة، وكانوا ينهمكون بقراءتها ساعات يذهلون فيها عن أنفسهم وعمّا حولهم، بحيث كان الأطباء يتعجبون من حصول هذا التغيّر غير الطبيعي في حالتهم.

فما الذي دفع هذا السيد الفاضل إلى القيام بهذا العمل المضني والمكلف غير هذه الخصلة الكريمة التي تعلّمها من القرآن الكريم وسيرة النبي العظيم (ﷺ) ولا تجدها عند غير من تربى في هذه المدرسة الشريفة.

(١) الاحتجاج: ٢ / ٣٢٣.

إنّ الناس حينما يجدون هذه الصفة في الواعظ والمبليغ والمربي والمعلم والمسؤول فإنهم ينقادون اليه ويأخذون منه، لأنهم يجدونه صادقاً في جلب الخير لهم وتحقيق مصالحهم وهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة لوجه الله من دون ان ينتظر منهم ﴿جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٩).

لذا فإن لهذه الصفة أهميتها في نجاح الدعوة إلى الله تبارك وتعالى لرسوخ قناعة الناس بحاملها، وأما فقدانها فإنه يكون منقراً من صاحبها، وإذا كان ذا عنوان ديني فالنفور يكون من الدين نفسه.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾

موضوع القبس: موجبات الفرح الحقيقي

حالة الفرح لدى الإنسان:

يحصل الإنسان في هذه الدنيا على الكثير من النعم التي يفرح بها، ويحقق الكثير من الانجازات والأعمال المفرحة كالتاجر يربح بصفقته ربحاً غير متوقع، أو المعدلات العالية التي حققتها في الامتحانات العامة للسادس العلمي خصوصاً إذا كانت الدرجات أكثر مما كان يظن وفق تقييمه لأجوبته.

وهذا الفرح حالة وجدانية طبيعية لا يمكن الغاؤها والاعتراض عليها، وإنما يحتاج إلى وضعه في مساره الصحيح المثمر، وفي ضوء هذا نفهم ما ورد في قوله تعالى ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ﴿٧٦﴾) والمشكلة ليست في نفس الفرح والحل في قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص: ﴿٧٧﴾) فالفرح بالمال والموقع الوظيفي والجاه والنفوذ لا يكون لذات هذه الأمور لأنها زائلة ولذتها وقتية وهي لو حدها غير قادرة على تحقيق السعادة للإنسان، والشاهد على ذلك كثرة الانتحار وشيوع الأمراض النفسية والعصبية والتفكك الأسري والعنصرية والتمايز الطبقي وأمثالها من الأمراض الاجتماعية التي تؤدي إلى نشوء مافيات العنف والقتل في الدول الأكثر ترفاً ورفاهية، وقد كثر ما تنقله وسائل الاعلام عن مثل هذه الحوادث في

الولايات المتحدة بحيث تعجز قوات الامن عن قمع الاضطرابات وإيقاف المواجهات وتضطر السلطات الى اعلان حالة الطوارئ.

ما يوجب الفرح الحقيقي:

فالآية تدلنا على ما يوجب الفرح الحقيقي بهذه النعم من خلال توظيفها واستثمارها في الوصول إلى الهدف الحقيقي وهو نيل رضا الله تعالى من خلال الالتزام بطاعته تبارك وتعالى فإنها توَفِّرُ السعادة الحقيقية للإنسان ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨)، من كلام لأمير المؤمنين (عليه السلام): (فإن المرء ليفرح بالشيء الذي لم يكن ليفوته، ويحزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلتَ في نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاءً غيظ، ولكن اطفاء باطل أو إحياء حق، وليكن سرورك بما قدّمت، وأسفك على ما خلّفت، وهمك فيما بعد الموت)^(١).

الفرح للنعم المعنوية:

والذي ينبغي أن يوجب الفرح أكثر هو التوفيق للنعم المعنوية والاهتداء إليها كنعمة القرآن الكريم الذي وصفت آثاره الآية السابقة عليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٨) فهذه النعم الإلهية (الموعظة، شفاء الصدور، الهدى، الرحمة) هي التي تستحق ان يفرح بها الإنسان فرحاً يحركه للحصول عليها

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٦٦.

والاستزادة منها، وهي آثار مترتبة يوفرها القرآن الكريم للإنسان فأول أثر للقرآن هو أن يطرق باب النفوس الغافلة المتعلقة بالدنيا وزخارفها اللاهثة وراء الماديات، والقلوب المملوءة بالردائل فيعظها ويوقظها من الغفلة والجهل فيحركهم نحو الطريق الصحيح.

فإذا لموا هذا الطريق أخذ القرآن في تهذيب نفوسهم وتطهير قلوبهم بمدة قد تطول وقد تقتصر بحسب استعداد الشخص وهمته وقوة عزمته حتى يطهره منها ويشفيه من عللها وهذه هي المرتبة الثانية.

وحينئذ تكون قلوبهم صافية ونفوسهم سالحة متهيئة لتلقي الأخلاق الفاضلة والمعارف الحققة والأعمال الصالحة التي يرتقون بها في درجات الكمال، وهذا هو الهدى في المرتبة الثالثة.

وبذلك يستحقون منازل الرحمة ودار الكرامة عند ربهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

لذا ورد في الدر المنثور^(١) في تفسير الآية عن ابن عباس (قل بفضل الله) القرآن (وبرحمته) حين جعلهم من أهل القرآن، وفي حديث مروى عن رسول الله (ﷺ) يبين فيه آثار القرآن التي تستحق أن يفرح الإنسان بها ويعمل لتحصيلها، قال (ﷺ) (إن اردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحسرة والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان)^(٢) ويصف الإمام السجاد (عليه السلام) أنسه وفرحه

(١) الدر المنثور - السيوطي: ٣٠٨/٣.

(٢) بحار الأنوار: ١٩/٨٩.

بالقرآن بقوله (لومات من بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي)^(١) فهذه هي النعم الحقيقية التي تستحق الفرح بها.

نعمة الإسلام واتباع النبي وأهل البيت (عليهم السلام):

والنعمة الأخرى التي يستحق الفرح بها رسول الله (ﷺ) الذي هدانا الله تعالى به للإسلام وعلمنا القرآن وأرسله إلينا رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، ونعمة أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي ثبت به الإسلام وحافظ على إصالته ونقاوته وحفظ مسيرة المسلمين من الانحراف والتزييف.

لذلك كثرت الروايات في كتب المسلمين^(٢) عامة أن المراد بفضل الله في الآية رسول الله (ﷺ) وبرحمته علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ومن بعد أمير المؤمنين الأئمة الطاهرون (عليهم السلام) ومن بعدهم العلماء العاملون المخلصون المتفانون في اعلاء كلمة الله تعالى وهداية الناس وخدمتهم، فإذا كان النظر إلى وجه العالم عبادة، وزيارته كمن زار رسول الله (ﷺ) ونحو ذلك مما دلت عليه الروايات الشريفة^(٣) ألا يكون مثل هؤلاء العلماء نعمة تستحق الفرح بوجودهم وأخذهم لموقعهم الذي يستحقونه؟ فالتفوا حولهم واستفيدوا منهم وخذوا بتوجيهاتهم.

فضله تعالى غير رحمته:

وظاهر الآية أن فضل الله له معنى غير رحمته لارتباط كل منهما بباء السببية،

(١) أصول الكافي: كتاب فضل القرآن، ح ١٣.

(٢) أنظر: البرهان في تفسير القرآن: ٣٧٦/٥.

(٣) من لا يحضره الفقيه - الصدوق: ٢٠٦/٢، مستدرک الوسائل - المحدث النوري: ١٥٢/٩.

وقد ذكر المفسرون وجوهاً لإعطاء معنيين مختلفين للفضل والرحمة منها:

١- ((أن يكون المراد بالفضل ما يبسطه الله من عطائه على عامة خلقه، وبالرحمة خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإن رحمة السعادة الدينية إذا انضمت إلى النعمة العامة من حياة ورزق وسائر البركات العامة كان المجموع منهما أحق بالفرح والسرور وأحرى بالانبساط والابتهاج))^(١) ويؤيده تقييد الرحمة بالمؤمنين في هذه الآية وغيرها.

٢- إن المراد^(٢) بالفضل الإلهي النعم الظاهرية أو قل المادية وقد ورد بهذا المعنى في عدة آيات كقوله تعالى ﴿وَلْتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النحل: ٥١) وقوله تعالى ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (الجمعة: ١٠)، والرحمة إشارة إلى النعم الباطنية أو المعنوية.

٣- إن الفضل الإلهي بداية النعمة ويساعد عليه المعنى اللغوي للفضل وهو بذل النعمة وهبتها، والمراد بالرحمة دوام النعمة، وهذا يناسب ما ذكرناه من تفسير فضل الله برسول الله (ﷺ) ورحمته بعلي بن أبي طالب (عليه السلام) لأن النبي (ﷺ) كان السبب في هدايتنا إلى نعمة الإسلام والإمام علي (عليه السلام) سبب بقاءه واستمراره وكما قيل أن النبي (ﷺ) علة محدثة وموجدة، وأمير المؤمنين (عليه السلام) علة مبقية.

أن يكون الفضل إشارة إلى نعم الجنة، والرحمة إشارة إلى العفو عن الذنب وغفرانه.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧٧/١٠.

(٢) حكى هذا الوجه وما بعده في تفسير الأمل: ٤٩٩/٥.

القبس/٨٦

سورة يونس: ﴿٦١﴾

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾

موضوع القبس: نستشعر الرقابة الإلهية^(١)

غالباً ما يدفع الشعور بالمراقبة من قبل الغير بالإنسان إلى سلوك معين مختلف عن سلوكه لو لم يكن يشعر بكونه مراقباً، وهذا أمر واضح وله عدة أمثلة وتطبيقات في الواقع، فالإنسان يفعل في السر أموراً يخشى ويخجل من فعلها في العلن، ولو علم حينها أنه مراقب لما فعلها بكل تأكيد، فسائق السيارة مثلاً حين يواجه إشارة المرور في طريقه ولا يجد أثراً لشرطي المرور فإنه يتجاوز الإشارة الحمراء دون تردد، لكنه لو كان يعلم بأن هناك كاميرات خفية تقوم برصده وأن هناك من يراقبه لما أقدم على تجاوز حدوده في الشارع، وهكذا كثير من أفعال الإنسان التي يقوم بها في السر وهو في غفلة عمن يراقبه فيها.

وأوضح مصاديق ذلك وأشدّها غفلة وخسارة هي عدم الشعور بكون الله تعالى رقيباً عليه، فتجد الإنسان قد يؤمن نظرياً بأن الله تبارك وتعالى يراه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾

(١) يوم الاثنين ٢/ذو الحجة الموافق ٢٠١٠/١١/٨م زار وفد من إحدى حملات الحجّاج في الكرامة الشرقية في بغداد مقر بعثة سماحة الشيخ (دام ظله) في مدينة مكة المكرمة، وألقى مرشد الحملة كلمة بهذه المناسبة وطلب من سماحة الشيخ كلمة إرشادية فاستجاب (دام ظله) لطلبهم وألقى هذه الكلمة فيهم، وتجد كلمات أخرى لسماحة الشيخ تحدث بها في رحلة الحج المباركة موزعة في هذا الكتاب بحسب موضع القبس من السورة القرآنية.

وَلَا أَكْبَرَ ﴿يونس: ٦١﴾ لكن من حيث التطبيق لا تجد هذا الاعتقاد منعكساً على أفعاله، وهو علامة على أن إيمانه لم يكن واقعياً، وإلا لو كان كذلك لظهر أثر واقعية الإيمان في فعله.

وقد أشارت بعض نصوص الأدعية الشريفة إلى هذه المفارقة، فمن ذلك قول الإمام الحسين (عَلَيْهِ السَّلَام) يوم عرفة: (يا من سترني من الآباء والأمهات أن يزجروني، ومن العشائر والإخوان أن يعيروني، ومن السلاطين أن يعاقبوني، ولو اطعوا يا مولاي على ما اطلعت عليه مني إذن ما أنظروني، ولرفضوني وقطعوني)^(١)، وقال (عَلَيْهِ السَّلَام) فيه (عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم يجعل لها من حبك نصيباً).

ومنه قول الإمام السجاد (عَلَيْهِ السَّلَام) في دعاء أبي حمزة: (فلو اطلع اليوم على ذنبي أحد غيري ما فعلته، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته، لا لأنك أهون الناظرين إليّ وأخف المطلعين عليّ، بل لأنك يا رب خير الساترين وأحكم الحاكمين، وأكرم الأكرمين، ستار العيوب، غفار الذنوب، علام الغيوب، تستر الذنب بكرمك، وتؤخر العقوبة بحلمك، فلك الحمد على حلمك بعد علمك، وعلى عفوك بعد قدرتك)^(٢).

من مصاديق الغفلة:

ومن مصاديق ذلك أيضاً الغفلة عن الموت مع الاعتقاد به يقيناً، حتى قال

(١) مفاتيح الجنان: ص ٣١١.

(٢) السابق: ص ٢٢٤.

أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما رأيت يقيناً أشبه بشك من الموت)^(١)، فنحن نؤمن بأن الموت حق، وأنه لا بد أن يختطفنا في أية لحظة من لحظات العمر، ولكن كم واحد منا يؤمن بذلك عملياً، بمعنى أنه استعد له وتهيأ وأدى ما عليه واجتنب كل ما حرم الله عز وجل، والحال أنك تجد العكس من ذلك، فالكثير منا يعمل وكأنه سيظل خالداً في هذه الدنيا.

الغفلة عن إمام الزمان (عليه السلام):

ومن مصاديق الغفلة والتصرف بخلاف وجود المراقبة ما ذكرته الرواية الشريفة: (والله إن صاحب هذا الأمر ليحضر الموسم كل سنة يرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه)^(٢) وهي رواية موجودة وصحيحة، إذن نحن بمرأى من الإمام (عليه السلام)، فمن يستشعر الخجل والحياء من فعل أمر أمام الناس علناً في حين يفعله في السر، مثل هذا الإنسان كيف به إذا اعتقد أن إمامه يراه دائماً، بالتأكيد إن ذلك سيدفعه إلى أن يكون أكثر مراقبة لنفسه في تعاملاته وتصرفاته، وبطبيعة الحال إن مثل هذه الأحاديث حين يمر بها الإنسان ويستشعر كل هذه الكاميرات التي تراقبه فإنه لن يتعامل مع الآخرين وكأنه في مغالبة على الدنيا، وسعي إلى الحصول على الغنائم والمكاسب الدنيوية، بل يستشعر مسؤوليته أكثر، ويحاسب نفسه أكثر، لأننا لن نُترك سدىً وليس الأمر منتهياً، صحيح أن حلم الله تبارك وتعالى طويل لكنه يؤجلهم إلى يوم ﴿لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا

(١) بحار الأنوار: ٢٤٦/٧٥.

(٢) الغيبة: ١٨/٩.

حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١٨٦﴾ (الكهف: ١٨٦).

نسأل الله تبارك وتعالى أن يعيننا على طاعته وأن ينقذنا من الغفلة وأن نكون
ذاكرين لله تبارك وتعالى ولإمامنا (عَلَيْهِ السَّلَام) الشريف، والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

القَبَسُ/٨٧

سورة يونس: ﴿٩٨﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾

موضوع القبس: من البلاء ما نستطيع دفعه

قال الله تبارك وتعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس: ٩٨).

(كولاً) أداة حث وتحضيض، فالآية الكريمة تحث أهل الدنيا جميعاً بأن يرجعوا الى الله تعالى وأن يعودوا إلى طريق الاستقامة لينفعهم ذلك في كشف البلاء ورفع العذاب النازل عليهم أو دفعه قبل حلوله بهم، لكن هذا الحث مشوب بالتأسف والحسرة لعدم استجابة الأمم لهذه الدعوة المخلصة إلى أن ينزل بهم البلاء وتحل الكارثة ويرونها بأعينهم حيث لا ينفعهم الرجوع، كما أنبأت الآياتان المتقدمتان ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۗ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس: ٩٦-٩٧) ومثل هذا الايمان باللسان الذي يحصل عند نزول العذاب لا ينفع في رفعه لأنه لا يكون عن صدق وإخلاص نية كالذي حصل لفرعون، قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠) فهذا ليس إيماناً صادقاً بالله تعالى لأنه ليس إيماناً اختيارياً منتجاً رغم الإنذارات والعلامات

المتكررة وإنما تظاهروا به خوفاً من العذاب والبأس بعد حلوله.

وهذه من السنن الإلهية الثابتة التي لا تختص بقوم يونس قال تبارك وتعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٥﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: ٨٥-٨٥) وقال تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (الأنعام: ١٥٨) وتجري هذه السنة في كل عاصٍ مسوفٍ للتوبة يخدع نفسه بالأمل من دون أن يصدقه بالعمل، ولا يحذر فوات فرصة التوبة بحلول الأجل.

وترغبهم الآية الكريمة بأن يكونوا كقوم يونس وتقول لهم هلاً كنتم كقوم يونس الذين استثنتهم فأنهم آمنوا قبل حسم الأمر بنزول العذاب وبمجرد أن رأوا علاماته ونذره وتيقنهم من صدق ما وعدهم به نبينهم يونس (صلوات الله عليه) فنفعهم إيمانهم وكشف عنهم العذاب، وقد وصفتهم الآية بصدق الايمان ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾.

روى القمي في تفسيره بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (ما رد الله العذاب إلا عن قوم يونس، وكان يونس يدعوهم إلى الاسلام فيأبون ذلك، فهم أن يدعو عليهم وكان فيهم رجلان: عابد وعالم، وكان اسم أحدهما مليخا، والآخر اسمه روبيل، فكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم، وكان العالم ينهأ ويقول: لا تدع عليهم فإن الله يستجيب لك، ولا يجب هلاك عباده، فقيل قول العابد ولم يقبل من العالم فدعا عليهم، فأوحى الله إليه: يأتيهم العذاب في سنة كذا وكذا، في شهر كذا وكذا، في يوم كذا وكذا، فلما قرب الوقت خرج

يونس من بينهم مع العابد، وبقي العالم فيها، فلما كان في ذلك اليوم نزل العذاب، فقال العالم لهم: يا قوم افرعوا إلى الله فلعله يرحمكم ويرد العذاب عنكم، فقالوا: كيف نصنع؟ قال: اجتمعوا واخرجوا إلى المفازة وفرقوا بين النساء والاولاد، وبين الابل وأولادها، وبين البقر وأولادها، وبين الغنم وأولادها، ثم ابكوا وادعوا، فذهبوا وفعلوا ذلك وضجوا وبكوا فرحمهم الله وصرف عنهم العذاب)^(١) والموقف يبين الدور العظيم للعالم الواعي الذي يقود أمته ببصيرة نحو الأمان.

ومما ورد في هذه الرواية مما يبين سعة رحمة الله تعالى وشفقته على عباده حتى الكفار منهم، أنه لما ألقى الحوت النبي يونس (عليه السلام) على الشاطئ مريضاً ضعيف البدن: وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ليتغذى منها^(٢) ويستظل بها (فلما أن قوي واشتد بعث الله دودة فأكلت أسفل القرع فذبلت القرعة ثم يبست، فشق ذلك على يونس فظل حزينا فأوحى الله إليه: مالك حزينا يا يونس؟ قال: يا رب هذه الشجرة التي تنفعي سلطت عليها دودة فيبست، قال: يا يونس أحزنت لشجرة لم تزرعها ولم تسقها ولم تعن بها إن يبست حين استغنيت عنها، ولم تحزن لأهل نينوى أكثر من مائة ألف؟ أردت أن ينزل عليهم العذاب؟ إن أهل نينوى قد آمنوا واتقوا فارجع إليهم)^(٣).

فالآية الكريمة تقدم علاجاً شافياً لكثير من مشاكلنا ومعاناتنا التي تؤلمنا

(١) بحار الأنوار: ٣٨١/١٤، ح ٢، عن تفسير القمي ٤٩/٢.

(٢) أثبتت الدراسات والتجارب العلمية فوائد القرع في تقوية جهاز المناعة وصحة القلب والشرابين وتزويد الجسم بالفيتامينات والمعادن الأساسية.

(٣) بحار الأنوار: ٣٨٣/١٤.

وندعو الله تعالى أن يخلصنا منها ولا نعلم أن طرف الحل بأيدينا. وإن من البلاء الذي يقع على الانسان يستطيع دفعه بنفسه، وذلك لأن جملة من هذه الصعوبات التي يمرّ بها الإنسان هي من صنعه وكسب يديه، فلو أراد التخلص منها فليتجنب الأسباب التي أدّت إليها وهي الأفعال السيئة، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١) والباء هنا سببية أي بسبب ما كسبوا، وإن ما حصل لهم هو نتيجة لبعض ما جنت أيديهم، وإلا فإن استحقاقهم أكثر لكن الله تعالى يعفو بكرمه وحلمه عن كثير، قال تعالى ﴿أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٤٢) أي يهلكهن - وهي السفن في البحر - بأهلهن بإرسال الرياح العاتية عليها بما كسبوا من الذنوب، ولكن الله تعالى يعفو عن الكثير وقال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٤٣).

والخلاصة أن كثيراً من البلاء يستطيع الإنسان دفعه قبل حصوله، وليس فقط رفعه بعد حصوله من خلال اجتناب مسبباته، ولكن الإنسان لا يلتفت إلى هذه الحقيقة، أو لا يلتفت إلى ما تكسبه يده من أعمال، وإذا التفت فإن الكثيرين يستصغرون ما يصدر منهم من أقوال وأفعال ولا يقدرّون عواقبها، فيتساهلون فيما يصدر منهم بينما حذر المعصومون (عليه السلام) من الاستهانة بالذنوب بكل مراتبها (لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر لمن عصيت)^(١)، ولو على مستوى كلمة غير مسؤولة قد تقال هنا وهناك تسبب سفك الدماء وهتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل، ولكي نقرب فكرة أن خطأ بسيطاً قد يؤدي إلى عواقب وخيمة، بما

(١) بحار الأنوار: ج ٧٧ / ص ٧٩.

يحصل أحيانا من أن غفلة صغيرة من سائق السيارة أو التفاته تؤدي إلى حادث مفرج. كما يتساهل السياسيون والمتنفذون في تجاوز على المال العام، الذي هو ملك عموم الناس الذين هم أيتام آل محمد (ﷺ) المقطوعون عن إمامهم فمن أكل أموالهم كان مشمولاً بالآية الشريفة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠)، ولذلك تجد في الكثير من الأدعية أن الأئمة المعصومين (عليهم السلام) يعلموننا الاستغفار مما نعلم ومما لا نعلم من الذنوب، وما ظهر منها وما بطن.

ولكي نقرأ هذه السنّة الإلهية بشكل دقيق لا بد من ملاحظة ما يلي:

١- إن بعض البلاء يجريه الله تعالى على عباده الذين اصطفاهم ليرفع درجاتهم ولينالوا المقام المحمود عند الله تعالى قال تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وفي أخبار مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) إن جده رسول الله (ﷺ) قال له: (إن لك في الجنة درجات لا تنالها إلا بالشهادة)^(١) فمثل هذا البلاء ليس سببه ما ذكرنا من أفعال سيئة والعياذ بالله تعالى.

٢- إن الله تبارك وتعالى حينما يترك بعض الناس يمرّون ببلاء معين ولا يتدخل لرفعه وإن ألح صاحبه بالدعاء والطلب فليس ذلك انتقاماً منهم سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً وإنما يريد لهم الخير وما يصلح حالهم فقد يكون الفقر أصلح لحال شخص من الغنى لأن الغنى يبطره ويبعده عن الله تعالى ويوقعه في المعاصي، ويحرم آخر من الذرية لأنه لو رزق منها لكانت شريرة وبالأعلى عليه

(١) بحار الأنوار: ج ٤٤/ص ٣١٣.

بسبب الظروف المحيطة بهم وهكذا.

٣- بعض الذنوب الاجتماعية عامة لا تقتصر في آثارها على مرتكبيها فقط بل تشمل كل الناس حتى الصالحين قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ومثل هذه الابتلاءات يدفع ضربيتها ناسٌ لم يكونوا السبب فيها، وعلى رأسها ما يحصل من آثار سلبية بسبب ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذكرتها الأحاديث الشريفة كتسلط الأشرار فأن صلحاء الأمة قبل فساقها يشملهم هذا البلاء.

ومن أمثلة البلاءات العامة التي لا تقتصر آثارها على فاعليها من حياتنا المعاصرة سوء اختيار الناخبين عند الادلاء بأصواتهم في صناديق الاقتراع فإن النتيجة تحكّم الفاسدين والظلمة والمنحرفين الذين لا يرقبون في الأمة إلا ولا ذمة فتحصل كوارث اقتصادية واجتماعية واخلاقية وفكرية وبيئية بسبب حماقات وسياسات ظالمة لبعض المتصدين لكن شرها عمّ الجميع ولم يقتصر على الناس الذين يستحقون ذلك لأنهم هم من انتخب أولئك الحمقى الأنانيين وأجلسوهم في مواقع المسؤولية.

القبس/ ٨٨

سورة هود: ﴿٧﴾

﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

موضوع القبس: تمام حسن العمل بإتقانه والمداومة عليه^(١)

العمل وحده لا يكفي:

أن الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى لها مدى واسع يستوعب الخلق كلهم، وهنا نقول أن القيام بالعمل الصالح وحده لا يكفي بل يوجد ما يتممه ويعطيه قيمته وهو أهم من العمل نفسه لأنه بدونه يبقى عملاً فارغاً وشكلياً لا قيمة له، كما ورد في بعض الروايات إن من الصلاة لما يقبل نصفها وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر، وإن منها لما يلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها^(٢)، وإنه (كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ، وكم من قارئ للقرآن والقرآن يلغنه)^(٣) وما ورد في الحج أن أحد أصحاب الأئمة أعجب بكثرة الحجيج وارتفاع أصواتهم بالتلبية والتكبير والحمد لله تعالى فقال له الإمام (عليه السلام): ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج.^(٤)

(١) الخطبة الثانية لصلاة الجمعة التي أقامها سماحة الشيخ المرجع في مكة المكرمة في يوم الجمعة ٢٧/ذو القعدة/١٤٣١هـ - الموافق ١١/٥/٢٠١٠م.

(٢) البحار: ٨٤ / ٢٦٠ / ٥٩.

(٣) نهج البلاغة: ٤/ من حكمه (عليه السلام) الحكمة رقم (١٤٥) وفيه (وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء، حبذا نوم الأكياس وإفطارهم).

(٤) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٦١.

فالعَمَل وحده لا يكفي لنيل رضا الله تبارك وتعالى والفوز عنده، بل قد يكون وبالاً على صاحبه كما ورد في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة (إلهي كم طاعة بنيتها، وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك بل أقالني منها فضلك)^(١) فقد كنت أتصور أن ميزاني ثقيل بالأعمال الصالحة التي قدّمتها وعوّلت عليها لكنها لما عُرضت على الموازين القسط ليوم القيامة وإذا بها لا قيمة لها، بل صرت أهرب وأتبرأ منها وأطلب الإقالة والعفو عنها.

لنضرب لكم مثالا:

وقد تستغرب ذلك لكنني أقرب القضية بمثال: فلو أن ملكاً دعا شخصاً حقيراً للقائه وضيافته فلبى الدعوة وكان الملك مقبلاً عليه وهياً له كل أسباب التكريم والجوائز الثمينة لكن المدعو كان مُعرضاً عنه ولا يلتفت إليه ومتشاعلاً بأمور أخرى، ألا تعد هذه إساءة في الأدب مع الملك ويعاقب عليها؟ فالصلاة دعوة للقاء الله تبارك وتعالى ومناجاة معه فإذا كان المصلي مشغولاً عن ربه وشارد الذهن عن صلاته فهو كهذا الشخص مع حقارة قدره أمام ملك الملوك فماذا سيكون جزاؤه؟ فهذا هو حال صلاتنا التي هي أهم العبادات وعمود الدين فكيف نرجوا الثواب عليها؟ إلا بلطف الله تعالى وكرمه وفضله وصفحه.

اقتران العمل بتحسينه:

فلا بد أن يقترن العمل بأمرين لينتج الغرض المطلوب وهما:

الأول: تحسين العمل، قال تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ

(١) بحار الانوار: ج ٩٥ / ص ٢٢٥.

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿١﴾ (الملك: ١) فليس المهم كثرة العمل وإنما حسنه، وقد حثت آيات كثيرة على حُسن العمل وإن القبول بحسب الإحسان في العمل. قال تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦) ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٣٠).

كيف يمكن تحسن العمل؟

وإحسان العمل يتحقق بجمللة أمور:

منها: إخلاص النية لله تبارك وتعالى والإتيان بالعمل لنيل رضاه وليس لأي هدف آخر، فهذا الحج قد يأتي به شخص للمباهاة أو للرياء وليقال له (حاج فلان) أو للسياحة والاطلاع على تلك المشاهد المقدسة وغيرها من النوايا غير المخلصة، فهذا لا يكون عملاً مقرباً إلى الله تعالى وإن كان الحاج لا يحرم الأجر مطلقاً مهما كانت نيته لكن قد يكون أجره في الدنيا كما ورد في بعض الروايات. ومنها: إتقان الأحكام الشرعية للعمل وحفظ حدوده، فللحج أحكام وتفصيل لا بد من معرفتها وأداء العمل بشروطه لأن الإخلال بها إخلال بالعمل نفسه وقد يقع باطلاً، لذا لا بد من اختيار المرشدين العارفين الورعين والآخذ منهم ومتابعتهم وسؤالهم عن دقائق الأمور، فالعمل التام لا بد أن يقترن بالعلم والإخلاص، ورد في الحديث الشريف (الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطرٍ عظيم) ^(١).

ومنها: الالتفات إلى أسرار العمل ومعانيه وحقائقه، فإن وراء هذه

(١) جامع السعادات: ٢٢٠/١.

الأعمال الجوارحية حقائق هي المطلوبة من العمل وليس هذه الحركات الشكلية، كالأمثال التي تُضرب وتراد منها الحقيقة التي صورت على شكل هذا المثل، وكالرؤيا الصادقة في المنام التي لها حقيقة تؤول إليها الرؤيا وترجع إليها لذا سميت تأويل الأحلام فمثلاً ملك مصر رأى في المنام سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات وكانت حقيقة هذه الرؤيا ما فسرها به يوسف الصديق (عليه السلام).

فيحسن التعرف إلى الأسرار المعنوية لمناسك الحج والأغراض المقصودة من حر كاته وأفعاله وهي على مستويات وتحتاج إلى بحث مفصل كالذي ورد في رواية الإمام السجاد (عليه السلام) مع الشبلي^(١).

المداومة على العمل:

الثاني: المداومة على العمل وحفظه ومواصلته، ولا نعني بهذا الأمر تكرار الحج لأن هذا غير متيسر إلا نادراً فللمداومة أنحاء عديدة ربما نتعرض لشرحها في خطبة مستقلة بإذن الله تعالى^(٢).

لكننا نريد الإشارة هنا إلى أن الإنسان قد يوفق في مثل هذه المواسم الروحية الخالصة إلى أعمال إضافية لم يكن معتاداً عليها فيؤديها بسبب ارتفاع الهمة للطاعة والأجواء المشجعة ومصاحبة المؤمنين الصالحين والتعلم منهم كصلاة الليل أو تلاوة القرآن (الذي يستحب ختمه في رحلة الحج) أو صلاة جعفر الطيار التي كان السلف الصالح يهتم بها ويواظب عليها، أو الصلاة في

(١) راجعها في رسالة مناسك الحج لسماحة الشيخ، ص ٢٤٤، الطبعة الثالثة.

(٢) تجد الخطبة في كتاب خطاب المرحلة: ج ٥/ ص ٤٠٦، بعنوان: كيفية إدامة حالة الطاعة كالحج.

أوقاتها ومنها صلاة الصبح وصلاة الجماعة والاستماع إلى التوجيهات الدينية وغيرها، فالمطلوب منه أن يستمر على هذا التقدم ويحافظ على هذا الانتصار الذي حققه على النفس الأمارة بالسوء فيواظب على هذه الأعمال التي وُفق إليها وذاق حلاوة أدائها.

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يحافظ على كل المكاسب التي يحققها في جهاده مع نفسه مما يُوفق له في الأزمنة الشريفة -كشهر رمضان- أو الأمكنة الشريفة أو المواسم المباركة كالحج.

لاحظوا ما ورد في من حفظ سورة من القرآن الكريم أو آية ثم نسيها وهي عدة روايات معتبرة منها صحيحة أبي بصير قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (من نسي سورة من القرآن الكريم مثلت له في صورة حسنة ودرجة رفيعة في الجنة فإذا رآها قال: ما أنتِ فما أحسنك ليتك لي؟ فتقول: أما تعرفني أنا سورة كذا وكذا ولو لم تنسي رفعتك إلى هذا)^(١).

ومن المداومة على العمل إدامة آثاره كالانتهاء عن الفحشاء والمنكر بالنسبة للصلاة قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥) فيجعل المؤمن صلاته نصب عينيه ويتذكرها دائماً لتردعه عن الهم بأي معصية أو منكر، فهذه مداومة على الصلاة، وقد وعد الله تعالى بأن (الحاج لا يزال عليه نور الحج ما لم يلمّ بذنب)^(٢).

(١) أصول الكافي: كتاب فضل القرآن، باب (من حفظ القرآن ثم نسيه).

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الحج، أبواب وجوب الحج وشرايطه، باب ٣٨، ح ١٤.

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

موضوع القبس: الإسلام وإعمار الحياة

في معنى الاستعمار:

هذه الفقرة من الآية تبيّن واحدة من قواعد الرؤية القرآنية لدور الانسان في الحياة وعلاقته بما حوله، فتكون أساسا ومنطلقا لسلوكه وبرنامجه في الحياة. (استعمر) على صيغة استفعل والمعروف في معناها انها طلب الفعل كقولك (استخرج) أي طلب الإخراج، ويمكن ان يكون لها عدة معانٍ اخرى، فتأتي بمعنى الفعل الثلاثي المجرد نحو (استقرّ) أي قرّ، وغير ذلك. فيكون معنى الآية أن الله تعالى خلقكم من الأرض واستعمركم فيها أي طلب منكم اعمارها وفوض اليكم أمر إصلاحها والانتفاع بها، أو أنه تعالى عمّركم فيها أي جعل لكم أعماراً مديدة فيها لأن إعمار الأرض يحتاج الى عمر مديد، ولو كانت الأعمار قصاراً لما استطعنا إنجاز شيء، ويمكن أن يكون ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ بمعنى أنه تعالى اعطاكم قدرات وجعلكم بوضع تقدرون فيه على الإعمار.

والعمارة نقيض الخراب، وهي تعني جعل الشيء واستعماله على النحو الذي ينتفع به ويحقق الغرض منه، وهي لكل شيء بما يناسبه من ذلك، ((فالعمارة تحويل الأرض الى حال تصلح بها أن يُنتفع من فوائدها المترقبة منها كعمارة الدار للسكنى والمسجد للعبادة والزرع للحرث والحديقة لاجتناء فاكهتها والتنزه فيها،

والإستعمار هو طلب العمارة بان يطلب من الإنسان أن يجعل الأرض عامرة تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها^(١).

إعمار الأرض:

ولان الغرض من وجودنا على هذه الارض إعمارها فان وظيفة كل فرد هو اعمار واصلاح ما يقع في دائرة مسؤوليته، فربّ الاسرة يعمر اسرته ومدير المدرسة يعمر طلابه، والقائد يعمر اتباعه ومريديه وهكذا القائد السياسي، لذا جعل امير المؤمنين (عليه السلام) من الوظائف المهمة للحاكم عمارة الأرض، قال (عليه السلام) في عهده الذي كتبه لمالك الأشر لمّا ولّاه مصر: (وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارةٍ أخرج البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً)، وقال (عليه السلام): (ولا يثقلن عليك شيءٌ خففت به المؤونة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك)^(٢).

ملاحظات وتفسيرات:

ويمكن ملاحظة عدة امور في الآية:

١- إن الله تعالى يذكر عباده بنعمه العظيمة عليهم وذلك لأنه خلقهم من نفس هذه الأرض مباشرة - كخلقه لآدم (عليه السلام) - أو انه خلق الانسان من نفس عناصر الأرض ومكوناتها وغذائها ومع ذلك فإنه أعطاهم هذا التكريم العظيم

(١) الميزان: ٢٩٨/١٢.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٢٩١.

وفضّلهم على مخلوقاته ومكّنهم من هذه الأرض ليعمروها واستخلفهم عليها كجنس بشري أو كأفراد باعتبار أنهم يخلفون من سبقهم في التملك والاستيلاء والاعمار.

٢- وفي الآية بيان لحقيقة اعتقادية وزجرٌ وتوبيخٌ وردع للذين تركوا عبادة الله تعالى وأطاعوا أهواءهم وزين لهم الشياطين عبادة آلهة وهمية من دون الله تعالى، فيلفت نظرهم الى أن فعلهم مثيرٌ للسخرية حين مكّنهم الله تعالى من الأرض واستعمرهم فيها والآية تفيد الحصر بـ(هو) أي أنه تعالى وحده الذي أنشاءكم وهياًكم لأن تنتفعوا بهذه الأرض بما ينفعكم في حياتكم وتحتاجون اليه ولا تحتاجون الى غيره تعالى، لكن المؤسف أن هؤلاء البشر يتسافلون ويجعلون مما صنعت ايديهم آلهة يعبدونها، ويعتبرونها اربابا تدبر شؤونهم من الرزق والحياة والضر والنفع باعتبار انهم لا يناقشون حقيقة ان الله تعالى هو الخالق ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان: ٢٥) لكنهم يعتقدون انه سبحانه فوض تدبير شؤون الكون الى اولئك الارباب الوهميين، فالآية تدعوهم الى ان يثوبوا لرشدكم لان تلك الارباب لو كانت مدبرة لشؤونكم لكان لها دور في تهيئة مستلزمات الحياة في الارض والسماء والهواء والشمس وكل شيء، وانتم تعترفون بانها لا يد لها في ذلك كله لذا جاء بعد هذه الفقرة من الآية مباشرة الأمر بالاستغفار والتوبة من هذه الاوهام والخيالات الفاسدة.

٣- إن الله تعالى فوض أمر إعمار الأرض الى الانسان وهياً له الوسائل والظروف التي تعينه على ذلك وطلب أن يفكر ويبحث ويسعى وينتج، وبدون ذلك لا يحصل إعمار ولا يستفيد من منابع الرفاه والسعادة الموجودة في هذه

الأرض ويكون من الخاسرين، فلا اتكالية ولا تقاعس ولا كسل وإنما لا بد من العمل والله تعالى يبارك فيه ويؤتي ثماره بلطفه.

٤- بما أن الإنسان مأمور بان يتخلّق بأخلاق الله تعالى^(١) كما في الحديث الشريف وفي الآية الكريمة ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (النحل: ٦٠) ونحن مأمورون بأن نُقيم الدين والسنن الإلهية وهذا يوجب علينا أن نعطي الفرصة الكاملة لكل فرد أو مؤسسة أو مجتمع ونهيب الأسباب والإمكانات لكي يعمرّوا الأرض بالحياة ويتنفعوا من الخيرات المتاحة لهم على كلّ الأصعدة سواء على الصعيد العلمي او الإقتصادي او السياسي أو الديني أو الإجتماعي وغير ذلك، بالتصويت لهم اذا توقفت المسألة على الانتخاب، او بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب بالتعيين او بتقديم الدعم المادي والمعنوي لأي مشروع مثمرٍ او فكرة مفيدة او مؤسسة نافعة ونحو ذلك.

٥- إن الإستعمار مصطلح قرآني مثمر وإيجابي ويُغني الحياة بالخير، لكن الدول المستكبرة اختطفته وحوّلتها الى معنى معاكس يتضمن القتل والتدمير والخراب والاستحواذ على ثروات الشعوب وتجويعهم والاستيلاء على زمام الامور في بلدانهم، ككثير من المصطلحات التي شوهوها كالحرية التي تعني الانعتاق من اغلال الاهواء والشهوات والتعصّب والعبودية الخالصة لله تعالى فأصبحت تعني عندهم الانفلات من كل الضوابط الاخلاقية أو السياسة التي تعني رعاية مصالح البلاد والعباد وصلاح امورهم ونصف أئمتنا (عليه السلام) بها كما ورد في الزيارة (يا ساسة العباد) وهكذا، لكنهم وظّفوها لمآربهم الخبيثة المعادية للإنسانية.

(١) ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) (تخلّقوا بأخلاق الله) بحار الأنوار: ج ٦١/ب ٤٢/ص ١٢٩.

ولابد من الإلتفات الى الجوانب المعنوية للإعمار لأن الله تعالى أنشأ لنا هذه الأبدان لتكون وسيلة لتكامل النفس والعقل وسمو الرّوح، فالبدن هو أرض النفس الذي أنشأه الله تعالى لإعمارها بطاعة الله تعالى وعلى هذا فان إعمار الأرض لابد أن يكون مقترنا بنية التقرب الى الله تعالى لأن الإعمار الحقيقي هو ملئ القلب بحب الله تعالى وذكره وتحلية النفس بالفضائل وتهذيبها من الرذائل والأغلال والآصار، فالأمر بالإعمار إنما يُراد منه تهيئة أسباب الطاعة والتمكين منها. أذ كلّما كانت الأسباب المساعدة على الطاعة متوفرة كان إقبال النفس عليها أكثر فعوالم الإنسان مترابطة، كما قيل في المثل المشهور: (العقل السليم في الجسم السليم). وكما ان الارض مستودع لكثير من الخيرات وعلى الانسان ان يستصلحها ويستعمرها ليستخرجها، فكذلك طاقات الانسان لا حدود لها لو احسن تفجيرها، وتشهد وقائع كثيرة بذلك كقلع امير المؤمنين (عليه السلام) لباب خيبر التي عجز اربعون شخصا عن حملها^(١)، وخذ مثلا قريبا من مسيرة الموالين لأهل البيت (عليهم السلام) حين يقطعون مسافة اكثر من ٥٠٠ كيلومترا مشيا في ظروف جوية قاسية وتهديدات ارهابية جديّة من دون اصطحاب طعام او فراش، فحبّهم للحسين (عليه السلام) وولأؤهم للنبي (صلى الله عليه وآله) واله فجرّ طاقات يجدونها مستحيلة التحقق في غير هذا الحافز، وكسير بعض الاخوة ٢٠٠٠ كيلومترا من الإمامين الكاظمين (عليهما السلام) الى مشهد الإمام الرضا (عليه السلام) في ارض مجهولة لهم وظروف جوية صعبة ويمرّون بمناطق فيها وحوش مفترسة.

٦- إن الله تعالى خلقنا من الأرض، فالأرض سابقة بوجودها علينا، وقد

(١) بحار الأنوار - المجلسي: ٢٧٩/٤١.

سَخَّرَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِنَفْعِنَا ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾
 (البقرة: ٢١٥) فَنِعْمُ اللَّهُ تَعَالَى سَابِقَةً عَلَى وَجُودِنَا وَهُوَ جَلَّتْ آلَاؤُهُ الْمُبْتَدِئُ بِالْفَضْلِ
 وَبِالنَّعْمِ، وَالدَّرْسُ الَّذِي نَسْتَفِيدُهُ هُوَ أَنَّ نَبَادِرَ نَحْنُ بِالْعَطَاءِ لِلْآخِرِينَ قَبْلَ أَنْ نَتَوَقَّعَ
 مِنْهُمْ تَقْدِيمَ شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ.

٧- ما دام معنى اعمار الارض يتحقق بجعلها على نحو مثمر ينتفع به، كما
 تقدم في التعريف فإذن هو يشمل كل نواحي الحياة لكل بحسبه، فهناك الإعمار
 السياسي والإقتصادي والإجتماعي والزراعي والعلمي وغير ذلك، لأنها كلها
 تساهم في تحقيق هذا المعنى فكأن الإعمار مرادف للإصلاح أو هو نتيجه.

الإصلاح الحسيني في كل اتجاهات الحياة:

لذلك فإن شريعة الاسلام وهي خاتمة الشرائع الالهية واكملها لم تكتف
 بالإعمار والاصلاح الديني وانما عمّت بقوانينها واحكامها كل شؤون الحياة
 وقضايا الناس، وقد عبّر الإمام الحسين (عليه السلام) وارث الانبياء وحامل رسالاتهم
 كلها عن هذا المشروع الإعماري الشامل وأشار في كلماته الشريفة الى كل هذه
 المجالات.

ففي مجال الاعمار والاصلاح الديني قال (عليه السلام) (وإنني لم أخرج أشراً ولا
 بطراً، ولا مفسيداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي (صلى الله عليه وآله)).
 أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي، وأبي علي بن أبي
 طالب (عليه السلام) (١).

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين (عليه السلام): ص ٣٥٤.

وفي مجال الاعمار القانوني قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ) (وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد أميتت والبدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد)^(١)؛ أي ان هؤلاء الطغاة عطلوا العمل بالدستور والقانون فالإمام (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يدعوهم الى العودة الى العمل بالدستور - وهو القرآن - والقوانين المبيّنة له - وهي السنة الشريفة -.

وفي مجال الاعمار السياسي وبيان صفات المستحقين للإمامة والقيادة وولاية امور الأمة قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ) (فلعمري ما الإمام الا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله)^(٢).

كل الخراب نتيجة لتولي قادة الزور على مقدرات الشعوب:

واعتبر (عَلَيْهِ السَّلَامُ) سبب الخراب والفساد الاقتصادي والاجتماعي والاخلاقي والديني وضياع الحقوق والعدالة يرجع الى ولاية القادة غير الشرعيين لأمر الناس قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بعد ان حمّله كل افراد الامة مسؤولية التغيير: (مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ، أَوْ تَارِكًا لِعَهْدِ اللَّهِ، وَمُخَالَفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)، فَفَعَلَ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، ثُمَّ لَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ) قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ) في تحليله (وقد عَلِمْتُمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ كَزَمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ وَتَوَلَّوْا عَنْ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ، وَأَظْهَرُوا الْفُسَادَ وَعَطَّلُوا الْحُدُودَ وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفِيءِ، وَأَحَلَّوْا حَرَامَ اللَّهِ وَحَرَّمُوا حَلَالَهُ، وَأَنَا أَحَقُّ مِنْ غَيْرِي بِهَذَا الْأَمْرِ لِقَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ص ٣٨٣.

(٢) موسوعة كلمات الإمام الحسين (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ص ٣٧٩.

الله (ﷺ) (١).

وفي رواية اخرى (وأنا أولى من قام بنصرة دين الله وإعزاز شرعه والجهاد في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا) (٢).

وهذا بعينه هو مشروع الإمام المهدي المنتظر (ﷺ) وقد ادخره الله تعالى لإقامة الحق والعدل وارساء قواعد الدولة الكريمة العامرة بالخيرات والبركات والعزة والكرامة، كما ورد في دعاء الافتتاح لليالي شهر رمضان المبارك (اللَّهُمَّ إِنَّا نَرْغَبُ إِلَيْكَ فِي دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ) (٣)، ولا تكون الدولة كريمة الا اذا سادها الاعمار والاصلاح في جميع المجالات.

ما الذي استفدناه من النهضة الحسينية؟

اقول: ونحن ننهى الموسم الحسيني لشهري محرم وصفر لا بداً ان نقف ونراجع ونحلل مقدار استفادتنا من اقامة الشعائر الحسينية، كما امرنا الائمة المعصومون (عليهم السلام) في كل طاعة، كالصلاة حينما جعل الإمام (عليه السلام) مقياساً لقبولها والانتفاع بها وهو مقدار نهىها عن الفحشاء والمنكر. فدرجة استفادتنا من النهضة الحسينية المباركة يحددها مقدار نجاحنا في انجاز الرسالة الحسينية المباركة وتحقيق الاعمار في نواحي الحياة الانسانية الكريمة.

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين (عليه السلام): ص ٤٥٧.

(٢) موسوعة كلمات الإمام الحسين (عليه السلام): ص ٤٠٨.

(٣) مفاتيح الجنان: ٢٣٢.

وهي نفس الدرجة التي نستحقها في اختبار التمهيد للظهور المبارك للإمام المهدي (عليه السلام) لان الرسالة واحدة والغرض واحد، فلنراجع انفسنا ونقيم افعالنا بدقة ولا نكون من الغافلين المخدوعين ببعض الشكليات والعناوين المزوّقة والطقوس المتخلّفة لنقنع انفسنا باننا قد احيينا شعائر الحسين (عليه السلام) وهي لا تزيد الا بعدا عن الإمام الحسين (عليه السلام) واهدافه المباركة لأنها تساهم في تجهيل الناس وتسطيح عقولهم وهو مخالف لما اراده الإمام (عليه السلام) كما ورد في زيارته المخصوصة انه (بذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة)^(١) والله المستعان.

(١) تهذيب الأحكام - الشيخ الطوسي: ١١٣/٦.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾

موضوع القبس: الإصلاح رسالة الأنبياء

الإصلاح رسالة الأنبياء جميعاً:

الآية الكريمة تلخص رسالات الأنبياء، على لسان نبي الله شُعَيْب (عَلَيْهِ السَّلَام) في قوله تعالى ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨)، هذه هي رسالة الأنبياء جميعاً (الإصلاح) وان تنوعت آليات عملهم واختلفت شرائعهم من حيث الاجمال والتفصيل، لكن ما أجمله النبي السابق فصله النبي اللاحق، وما فصله النبي اللاحق يرجع في أصوله إلى ما أجمله السابق (صلوات الله عليهم أجمعين).

واختتمت هذه الرسائل برسالة الإسلام التي بلغها النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وواصلها من بعده أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: ٦٧) يقول أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام) ((اللهم انك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنردّ المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطّلة من حدودك))^(١).

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٣١.

والحسين (عليه السلام) وارث الأنبياء جميعاً بحسب ما نطقت به الزيارة المشهورة المروية عن الأئمة (عليهم السلام) والمعروفة بزيارة (وارث) ^(١) وعنده اجتمعت رسالات الأنبياء جميعاً ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (الأحزاب: ٣٩).

خرجت لطلب الإصلاح:

فهدف الأنبياء والأئمة (صلوات اللهم عليهم) هو ﴿الإصلاح﴾ ولما كان الإمام الحسين (عليه السلام) قد ورثهم جميعاً فمن الطبيعي أن تكون رسالته (عليه السلام) ومشروعه هو ﴿الإصلاح﴾ وقد عبّر (عليه السلام) عن ذلك صريحاً في خطاباته التي عرّف من خلالها بأهداف خروجه المبارك، وسجّله في وصيته التي دوّنها وختمها وأودعها عند أخيه محمد بن الحنفية، ومما جاء فيها (إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي (صلى الله عليه وآله)) أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب (عليه السلام)) ^(٢).

ومن خطبته على الحر الرياحي وأصحابه لما وصل (البيضة) قوله (عليه السلام) ((ألا وأنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من

(١) مفاتيح الجنان: ٥٠٢.

(٢) بحار الأنوار: ٤٤ / ٣٢٩.

غَيْرٍ))^(١).

ويظهر من كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام) وولده الإمام الحسين (عليه السلام) التواصل والتطابق في الهدف، وإنّ الاصلاح الذي سعى إليه المعصومون (عليه السلام) وتحملوا مسؤوليتهم وبذلوا وسعهم لتحقيقه هو مشروع متكامل لا يختص بالأمر الدينية (أي الوعظ والإرشاد وتعليم أحكام الدين وإن كان هذا هو الأساس) بل يشمل نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية، فيقضي على الفساد المالي والإداري ومنع الاستثثار بالأموال العامة وحرمان الشعب من حقوقهم، وإقامة النظام العادل الذي ينصف الناس جميعاً وينتزع حق المظلوم من ظالمه، ويطبّق الحدود والقوانين.

تمام الصلاح بإصلاح القيادة الدينية والسياسية:

وإنّما يتم الصلاح ويكمل ويبلغ غايته عندما تصلح قياداته الدينية والسياسية، وتفسد الأمة إذا فسدت مؤسسته الحاكمة ولم تقم القيادة الدينية بواجباتها ومسؤولياتها، روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ((صنفتان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي، قيل: يا رسول الله ومن هما؟ قال: الفقهاء والأمراء))^(٢).

ومن دون مباشرة هذا المدى الواسع من الإصلاح تبقى حركته محدودة ومحجّمة وربما تذوب تدريجياً، تصوروا لو أن دعوة

(١) تاريخ الطبري: ٦٠٥ / ٤، الكامل في التاريخ: ٢٨٠ / ٣.

(٢) الخصال: ٣٦ باب الاثني.

النبي (ﷺ) إلى الإسلام بقيت في حدود مكة وتحت قبضة وبطش طواغيت قريش فإن المؤمنين بها سوف لا يزيدون عن العشرات الذي آمنوا فقتل بعضهم وهُجّر البعض الآخر إلى الحبشة وحوصر النبي (ﷺ) ومن معه في شعب أبي طالب (عائشة) لكن النبي (ﷺ) كان يسعى لتوسيع دعوته وعرض نفسه على قبائل العرب حتى بايعه نفر من الأوس والخزرج في بيعة العقبة الأولى^(١) وأخذ منهم المواثيق على الطاعة والنصرة في بيعة العقبة الثانية وأرسل معهم الشهيد مصعب بن عمير لتعليمهم الدين ثم هاجر (ﷺ) وأسس دولته المباركة لينشر الإسلام العظيم إلى كل الدنيا.

لا مكان للإنزواء في النهضة الحسينية:

أما ما دأبت عليه مرجعيات كثيرة على مدى قرون ومقلدوهم من الإنزواء والانكماش والسلبية والعزوف عن العمل بالآليات الممكنة لإيجاد بيئة مشجعة على الدين والصلاح فإنه تقصير غير مبرر وله عواقب وخيمة فلا بد من استثمار كل فرصة لإيجاد هذه البيئة بل صنع الفرصة لها وليس انتظارها لاستثمارها.

لذا لم يجد الإمام الحسين (عائشة) لنفسه عذراً في القعود عن تصحيح وضع السلطة الحاكمة ومعالجة انحرافاتهما بكل ما أتاه الله، فجاد بنفسه الشريفة وبأهل بيته وأصحابه، وعرض حُرْمَ رسول الله (ﷺ) للسبي بيد الأعداء من بلد إلى بلد، وكان يمكنه الاكتفاء بموقعه الديني

(١) أنظر: السيرة النبوية - ابن هشام: ٣١١/٢، بحار الأنوار - المجلسي: ٢٣/١٩، تاريخ الطبري: ٩٦/٢.

وامتيازاته التي يحظى بها في المجتمع ويكتفي بالحد الأدنى من العمل، لكنه (عليه السلام) وهو سبط رسول الله (ﷺ) وريحانته ووارثه، أصرَّ على اللحاق بركب جده المصطفى (ﷺ)، قال (عليه السلام) في خطبته على الحرِّ وجيشه^(١) ((أيها الناس، إن رسول الله (ﷺ) قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله (ﷺ) يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله)).

وهذا بابٌ يفتح منه ألفُ بابٍ للحديث عن علاقة العلماء بالسلطة ودورهم في العملية السياسية وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وموقع الأمة من كل ذلك وغيره مما لا يسع الحديث لبيان تفاصيله الآن^(٢).

صلاح النفس قبل الإصلاح، وكيفية إصلاح النفس:

ولابد لمن يتصدى لهذه المسؤولية أن يبدأ بإصلاح نفسه ويجعل من نفسه فرداً صالحاً قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، وقد دلنا أمير المؤمنين (عليه السلام) على آليات الإصلاح في ميدان النفس وعناصر النجاح في هذه العملية فهي تحتاج

(١) بحار الأنوار - المجلسي: ٣٨١/٤٤.

(٢) حُرر هذا البحث في كتاب (فقه المشاركة في السلطة) والمجلد الثاني من كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

أولاً وقبل كل شيء إلى توفيق من الله تعالى، قال (عليه السلام) (التوفيق قائد الصلاح)^(١).

ثم إلى تقوى من العبد، قال (عليه السلام): (التقوى مفتاح الصلاح).
وإلى مداومة على ذكر الله تعالى، قال (عليه السلام): ((أصل صلاح القلب اشتغاله بذكر الله))، وقال (عليه السلام): ((مداومة الذكر قوت الأرواح ومفتاح الصلاح)).

وتحتاج إلى مجاهدة للنفس لضمان الاستمرار على العناصر المتقدمة والمحافظة عليها، قال (عليه السلام) ((في مجاهدة النفس كمال الصلاح)).

خطوات عملية للصلاح:

وهناك خطوات عملية تساعد على إصلاح الباطن، منها:

- ١- مصاحبة المؤمنين الأخيار الصالحاء، قال (عليه السلام): ((أكثرُ الصلاح والصواب في صحبة أولي النهى والألباب)).
- ٢- مداراة الناس والرفق بهم واللفظ معهم، قال (عليه السلام): ((الرفق لقاح الصلاح وعنوان النجاح، وقال (عليه السلام): عود نفسك السماح وتجنب الإلحاح يلزمك الصلاح)).
- ٣- تجنب معاشررة أهل الدنيا والغفلة عن الله تبارك وتعالى،

(١) الحديث وما بعده في غرر الحكم وصفحاتها على الترتيب ٢٥، ٤١، ١٦٠، ٦٦١، ٤٦٩، ثم ١٦٢،

قال (عليه السلام): ((في اعتزال أبناء الدنيا جِماع الصلاح)).

٤- عدم الاكثار من المباحات ككثرة الطعام والشراب والنوم

ونحوها قال (عليه السلام): ((إذا ملئ بطن من المباح عمي القلب عن الصلاح)).

٥- تجنّب الصفات المذمومة كالكذب وإيذاء الناس، قال (عليه السلام):

((أبعد الناس عن الصلاح الكذوب وذو الوجه الوقّاح)).

٦- محاسبة النفس وتدارك ما فاته من تقصير وخلل وردّ المظالم

إلى أهلها وقضاء ما فات، قال (عليه السلام): ((حسن الاستدراك عنوان

الصلاح)).

السعي الحثيث لتحقيق الأهداف الحسينية:

هذه هي رسالة الإمام الحسين (عليه السلام) وارث الأنبياء، فمن أحبّ

نصرته في كل زمان ومكان والحق بأصحابه فليمضي على ما مضى

عليه (عليه السلام) وليدخل السرور على قلبه الشريف بالسعي الحثيث لتحقيق

الهدف من رسالته، على هذا النحو من الوعي وهذه المعرفة.

لكن مع الالتفات إلى ما نبهنا عليه مراراً من الدعوة إلى هذا

المستوى من فهم النهضة الحسينية، لا يعني إلغاء الأنماط الأخرى من

التعاطي معها كالشعائر التي يؤديها عامة الناس ما دامت منضبطة بالحدود

الشرعية.

لأن لكل فئة مستواها من التربية والسير في طريق الكمال، ولا يحق

لأحد أن يسقط الآخر.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَبِئْسَ الْجَنَّةُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

موضوع القبس: حقيقة السعادة

أهمية السعادة:

السعادة: حلم كل الناس والهدف الذي تسعى إليه البشرية، ولذلك كان كل اهتمام الأنبياء والرسل والفلاسفة والمفكرين والعلماء هو الوصول إلى ما تتحقق به السعادة.

وقد اختلفوا في معناها وعناصر تحققها انطلاقاً من المعتقدات والنظريات التي يؤمنون بها فمن لا يرى شيئاً وراء المادة اعتقد ان السعادة تتحقق بتلبية الغرائز وحاجات الجسد والاندفاع وراء الشهوات وحياة المتعة واللهو واللعب، وعلى عكسه تماماً يوجد من يقول ان السعادة بحرمان الجسد من كل غرائزه بل وإيلامه للانطلاق الى الروح.

لكن الإسلام بوسطيته واعتداله يرى هؤلاء قد وقعوا في الافراط والتفريط لذا فان السعادة التي يتحدثون عنها ناقصة او وهمية ويقدم نظريته وفهمه للسعادة.

علامة السعادة:

إنها الحياة السعيدة في رحاب الله تبارك وتعالى التي تشغله عن كل شيء
﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ﴿٢٨﴾) فاطمئنان القلب الذي هو علامة السعادة يتحقق بأن تجعل الله تعالى محور حركاتك وسكناتك وهدفك الذي

تسعى إليه، ولا تنال تلك السعادة إلا بالتقوى، لذا يعلمنا الأئمة (عليهم السلام) أن نطلبها في الدعاء كما طلبوها لأنفسهم، من دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة: (اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك، وأسعدني بتقواك) (١).

فالسعادة الحقيقية هي الفوز بالجنة وهي ثمرة التقوى والعمل بما يرضي الله تبارك وتعالى ويقرب منه، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود: ١٧٨).

متى تحصل الشقاوة؟

وتحيط الشقاوة بالإنسان - والعياذ بالله - حينما يعصي الله تبارك وتعالى ويتعد عنه قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعُشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيسٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف: ٣٦-٣٨)؛ فتصوروا أي حياة شقية تكون للشخص الذي يلازمه فيها شيطان يكون قريناً له يحلّي الله بينه وبينه ليرديه في الضلالات والمهالك وفي حياة تعيسة ضيقة يصفها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِن لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤) ولذا تكون النتيجة يوم القيامة قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ففِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿٤٠﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ

(١) مفاتيح الجنان: ٣٣٢.

وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ (هود: ١٦-١٧).

السعادة والشقاوة تنبعان من النفس: أيها الأحبة..

إن السعادة والشقاوة تنبعان من داخل الإنسان، وهي من حالات عالمه المعنوي ووصف لباطنه، فالسعيد من كان كذلك في باطنه، والشقي من كان كذلك في داخله، فلا تتحقق إلا بأمور من جنسها أي معنوية، وليس بأمور مادية كالجمال والجنس وترف الدنيا، فكم من شخص لا تتوفر له أسباب السعادة المادية الدنيوية بفقر أصابه أو مرض ابتلي به أو مصيبة نزلت به لكنك تراه سعيداً متفائلاً مبتسماً، وآخر يعيش في ترف وتوفر له كل أسباب المتعة والعيش الرغيد لكنه عبوس كئيب وقد ينتهي به الأمر إلى الانتحار، وهذه النشرات والإحصائيات تطلعنا باستمرار على أن أكثر حالات الانتحار موجودة في أكثر الدول رفاهية.

الفوز الحقيقي:

انظروا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) يسقط مضرجاً بدمائه في محراب مسجد الكوفة وهو يقول: (فُتِرْتُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ)^(١)، والإمام الحسين (عليه السلام) يقول وهو يرى جمع الأعداء كالسيل وقد يبلغوا عشرات الآلاف وهو وأصحابه لا يتجاوزون المائة يقول (عليه السلام): (ليرغب المؤمن في لقاء الله، وإنني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً)^(٢).

(١) مناقب آل أبي طالب - ابن شهر آشوب: ٩٥/٣.

(٢) بحار الأنوار: ١٩٢/٤٤.

والإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) يشكر الله تعالى وهو في قعر السجون وظلمات المطامير ويقول (اللهم إِنَّكَ تَعَلَّمُ أَنِّي كُنْتُ أَسْأَلُكَ أَنْ تُفَرِّغَنِي لِعِبَادَتِكَ، اللَّهُمَّ وَقَدْ فَعَلْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ)^(١).

روى صالح بن سعيد قال: (دخلت على أبي الحسن الهادي (عليه السلام) يوم وروده سامراء فقلت له: جُعِلْتُ فِدَاكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ أَرَادُوا إِطْفَاءَ نُورِكَ وَالتَّقْصِيرَ بِكَ حَتَّى أَنْزَلُوكَ هَذَا الْمَكَانَ الْأَشْنَعِ خَانَ الصَّعَالِيكَ.

فقال (عليه السلام): ها هنا أنت يا ابن سعيد، ثم أومأ بيده فإذا أنا بروضات أنيقات وأنهار جاريات وجنات فيها خيرات عطرات وولدان كأنهن اللؤلؤ المكنون، فحار بصري وكثر عجبني، فقال (عليه السلام) لي: حيث كنا فهذا لنا، يا ابن سعيد لسنا في خان الصعاليك)^(٢).

الدنيا للعبور والسعادة من المساعدة:

ولا يعني كلامنا هذا تقيلاً من أهمية توفير متطلبات الحياة الهنيئة السعيدة، فإن لها دوراً في تحقيق تلك السعادة إذا أخذ منها بالمقدار المناسب للحاجة ووُظِّفَتْ لتحقيق الهدف، فإنها خير معين لها بفضل الله تبارك وتعالى.

وإنما اشتق اسم السعادة أصلاً من المساعدة وهي المعاونة على ما تتحقق به السعادة الحقيقية التي سميت سعادة لما فيها من معاونة الألفاظ الإلهية للإنسان حتى وُفِّقَ إِلَى الْخَيْرِ وَالْجَنَّةِ وَرَضِيَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِذَا نَجِدُ فِي الرِّوَايَاتِ

(١) الإرشاد- الشيخ المفيد: ٢٤٠/٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٠٢/٥٠، رواها الشيخ المفيد والكليني (رضوان الله عليهما).

الشريفة المأثورة عن المعصومين (عليه السلام) إرشادات إلى ما تتحقق به السعادة الأخروية وما يستعان به على تحقيقها من أمور الدنيا.

مخاطبة عوالم الإنسان:

وهذا الانسجام مع الفطرة والتوازن في مخاطبة كل عوالم الإنسان، وتلبيةه كل احتياجاته الروحية والنفسية والعقلية والجسدية هي من مختصات شريعة الله تبارك وتعالى الخالق العظيم والبصير بما يصلح حال الإنسان ويسعده، بينما تاهت النظريات البشرية في تفسير السعادة وبيان ما تتحقق به لأن تحقيق السعادة حلم كل البشر ولم تنته بهم تلك النظريات إلا إلى الشقاء والقلق والخوف والكآبة والصراعات والشور والآثام، بين أصحاب النظريات المادية الذين حددوا السعادة بالمتعة وتلبية الغرائز واحتياجات الجسد إلى حد الإفراط - كما في الغرب - من دون التفات إلى حاجة الروح إلى الكمال، ونزوع النفس إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة، وبين أصحاب النظريات الفلسفية والروحية الذين جعلوا السعادة في تحقق الكمالات النفسية ولو على حساب التفريط في احتياجات الجسد، بل يجعل بعض أهل الرياضات الروحية تعذيب الجسد وإيلامه سبباً لنيل تلك الكمالات وتحقيق السعادة.

السعادة بالتوازن بين الإفراط والتفريط:

ويتغافلون بذلك عن حقيقة أن من تمام السعادة تحقيق التوازن في متطلبات كل جوانب الإنسان. وهذا ما وجدناه في شريعة الإسلام دين الفطرة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ

الدِّينُ الْقِيَمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿الروم: ٣٠﴾ ففي الوقت الذي تؤكد فيه على الجوانب المعنوية والكمالات الروحية حين تجعل التقوى وتهذيب النفس أساس السعادة والفلاح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩-١٠) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم)^(١).

فإنها تدعو إلى الأخذ بأسباب الحياة التي توفر الطمأنينة والراحة والسكون للنفس فترى الحث الأکید على العمل والكسب بالتجارة أو الزراعة أو غيرها وتجعل العمل لطلب الرزق الحلال من أفضل القربات إلى الله تعالى ففي الحديث النبوي الشريف (طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة)^(٢) وقال (صلى الله عليه وسلم): (من أكل من كد يده كان يوم القيامة في عداد الأنبياء ويأخذ ثواب الأنبياء)^(٣) وفي الحديث (الكاذب على عياله كالمجاهد في سبيل الله)^(٤) وفي حديث آخر (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها)^(٥) وفي حديث نبوي شريف (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة، إلا كانت له به صدقة)^(٦).

(١) نهج البلاغة، خطبة: ٢٢٣، قالها عند تلاوته ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾

(٢) بحار الأنوار: ٩/١٠٣، ح ٣٥.

(٣) بحار الأنوار - المجلسي: ١٠/١٠٠.

(٤) الكافي - الشيخ الكليني: ٨٨/٥ ح ١.

(٥) كنز العمال - المتقي الهندي: ٨٩٢/٣.

(٦) مستدرک الوسائل - الحدث النوري: ٤٦٠/١٣.

وتجعل تلبية الحاجة الجنسية من طرقها المحللة - أي الزواج - من آيات الله تبارك وتعالى وسننه التي يُتقرب إليه تبارك وتعالى بإقامتها، وإن الإعراض عنه خروج عن هذه السنة قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١) وقال النبي (ﷺ): (النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني)^(١) ويقول (ﷺ): (شرار أمتي العزاب)^(٢).

ونرى رفض الرهينة والانعزال وحرمان النفس والجسد من بعض ما تشتهيهِ بالمعروف وبما أحل الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ • قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣١-٣٢).

هذا التوازن والنهي عن الإفراط والتفريط معاً لتحقيق السعادة يظهر جلياً مما ورد في نهج البلاغة أن أمير المؤمنين (عليه السلام) دخل على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعود، فلما رأى سعة داره قال: (ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا؟ أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج! وبلى، إن شئت بلغت بها الآخرة: تقري فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة.

(١) جامع أحاديث الشيعة - السيد البروجردي: ٧/٢٠.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ٢٢١/١٠٠.

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): وما له؟ قال: لبس العباءة وتخلي عن الدنيا، قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): عليّ به، فلما جاء قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): يا عُدَيّ نفسه، لقد استهام بك الخبيث أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك. قال: يا أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك، قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ويحك إني لست كأنت، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس لكيلا يتبيخ بالفقير فقره)^(١).

كيف نحقق السعادة؟

ونذكر هنا مجموعة من الروايات الشريفة التي أرشدتنا إلى ما تتحقق به السعادة في الآخرة وما يعين عليها من أمور الدنيا:

١- عن جعفر بن محمد عن آبائه (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) عن علي (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أنه قال: (حقيقة السعادة أن يختم الرجل عمله بالسعادة وحقيقة الشقاء أن يختم المرء عمله بالشقاء)^(٢)، فإن الإنسان لا تكتمل سعادته إلا عندما يختم عمله بخير فإننا نرى كثيرين يعملون عمل السعداء لكنهم في منعطف من حياتهم ينقلبون ويغويهم الشيطان ويلتحقون بالأشقياء وقد يحصل العكس أحياناً كما في قضية الحر الرياحي حتى قال فيه الإمام الحسين (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (أنت حرّ في الدنيا وسعيد في الآخرة)^(٣) فلا تتحقق السعادة إلا بالمداومة على الخير والثبات عليه.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم (٢٠٩).

(٢) بحار الأنوار: ١٥٤/٥ عن الخصال: ٥ ب ١ ح ١٤.

(٣) ينابيع المودة - القندوزي: ٧٦/٣.

٢- قال الإمام الصادق (عليه السلام): (من سعادة المرء خفة لحيته)^(١) أي قلة أتباعه ورعيته سواء كان على صعيد العائلة أو السلطة أو الزعامة الدينية أو الاجتماعية، لأن التابع يتمسك بلحية المتبوع - كما يقال في العرف - وقد يتحمل المتبوع مسؤولية تكثير أتباعه بتكبير لحيته الظاهرية فيتبعه من يراعي تلك المقاييس.

وفي (معاني الأخبار) للشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) قراءة أخرى للحديث (خفة عارضيه)^(٢) أي خفة لحيه وعارضيه بذكر الله تعالى وعدم غفلته عن ربه.

٣- عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ثلاثة من السعادة: الزوجة المؤاتية، والولد البار، والرجل يرزق معيشة يغدو على إصلاحها ويروح على عياله)^(٣).
وعن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) عن آبائه عن علي (عليه السلام) قال: (من سعادة المرء المسلم الزوجة الصالحة والمسكن الواسع والمركب الهنيء والولد الصالح)^(٤).

فالزوجة الصالحة المطيعة المتوددة، والمسكن اللائق بشأن الإنسان، والأولاد البارون الصالحون، ووسيلة التنقل المناسبة التي تغنيه عن الطلب من الناس وغيرها من الحاجات الأساسية في الحياة يؤدي توفرها إلى الحياة السعيدة

(١) بحار الأنوار: ١١٣/٧٣.

(٢) معاني الأخبار - الشيخ الصدوق: ١٨٣.

(٣) بحار الأنوار: ٦/١٠٣ عن أمالي الشيخ الطوسي.

(٤) بحار الأنوار: ٩٨/١٠٤، ح ٦٤.

المعينة على طاعة الله تعالى ونيل السعادة الحقيقية.

على أن لا تتحول هذه الأمور إلى هدف وشاغل عن الله تعالى بل يجعلها الإنسان وسائل مساعدة ومعينة على الوصول إليه تبارك وتعالى قال عز من قائل: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ (النور: ٣٧) فالمشكلة ليست في وجود تجارة أو مال وإنما في تحولها إلى مانع عن الوصول إليه تبارك وتعالى، وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن: ١٤).

وفي كتاب غرر الحكم عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (السعيد من استهان بالمفقود)^(١)، لأن الحزن على ما فات موجب للشقاء والنكد والسعيد من صبر وتسلى عنه واحتسبه عند الله تعالى.

وقال (عليه السلام): (في لزوم الحق تكون السعادة) لأن معرفة الحق واتباعه هو أساس السعادة الحقيقية الموجبة للفوز.

وقال (عليه السلام): (من حاسب نفسه سعد) لأنه بالمحاسبة يستطيع تصحيح الأخطاء وتلافي النقص ورد المظالم إلى أهلها ويقرر حياة أفضل وكل ذلك يوجب السعادة.

وقال (عليه السلام): (خلو الصدر من الغل والحسد من سعادة العبد) فإن أشقى الناس من امتلأ قلبه حقداً وحسداً وغلاً وخيانة وحياته تكون معذبة ويعيش مهموماً.

(١) الحديث وما بعده في غرر الحكم للآمدي.

وقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (السَّخَاءُ إِحْدَى السَّعَادَتَيْنِ).

وقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (سَعَادَةُ الْمَرْءِ - فِي - الْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا) فَإِذَا قَنَعَ اسْتَقْرَرَ وَرَضِيَ

وَلَمْ يَحْزَنْ عَلَى فَوَاتِ شَيْءٍ أَوْ يَتَقَلَّقَ حَرَصًا عَلَى تَحْصِيلِ شَيْءٍ.

وقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (سَعَادَةُ الرَّجُلِ فِي إِحْرَازِ دِينِهِ وَالْعَمَلِ لِآخِرَتِهِ) لِأَنَّ الْعَمَلَ بِمَا

يَرْضَى اللَّهُ تَعَالَى وَالسَّيْرَ عَلَى هُدًى أَوْلِيَائِهِ يَحَقِّقُ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ.

وقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (إِذَا اقْتَرَنَ الْعَزْمُ بِالْحَزْمِ كَمَلَّتِ السَّعَادَةُ)^(١).

وقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (أَمَارَاتُ السَّعَادَةِ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ)^(٢) لِأَنَّ عَمَلَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِنِيَّةٍ

مُخْلِصَةً لَمْ يَكُنْ مَقْبُولًا وَلَمْ يَحَقِّقْ السَّعَادَةَ الْمَطْلُوبَةَ، فَعَلَامَةُ سَعَادَتِهِ كَوْنُ عَمَلِهِ

مُخْلِصًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فِي كِتَابِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ (مَنْ سَعَادَةُ الْمَرْءِ دَابَّةٌ يَرْكَبُهَا فِي حَوَائِجِهِ

وَيَقْضِي عَلَيْهَا حَوَائِجَ إِخْوَانِهِ)^(٣)، لِأَنَّهُ بِهَا يَسْتَعْنِي عَنِ الْحَاجَةِ لِلْآخِرِينَ وَيَتِمَكَّنُ

مَنْ قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْقُرْبَاتِ.

٤- عَنِ الْإِمَامِ السَّجَادِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ: (مَنْ سَعَادَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ

مُتَجَرِّهًا فِي بِلَادِهِ وَيَكُونُ خَلْطَاؤُهُ صَالِحِينَ وَيَكُونُ لَهُ وُلْدٌ يَسْتَعِينُ بِهِمْ)^(٤)؛ فَمَنْ

كَانَ مُتَجَرِّهًا فِي بِلَادِهِ كَفَاهُ اللَّهُ مَوْنَةَ الْغُرْبَةِ وَالْبَعْدَ عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ وَمَخَاطِرِ

الْأَسْفَارِ، وَمَنْ كَانَ شَرَكَاؤُهُ وَأَقْرَانُهُ فِي الْعَمَلِ صَالِحِينَ تَجَنَّبَ الْمَشَاكِلَ

(١) غرر الحكم للآمدي: ٢٨٥/ح ٩١.

(٢) غرر الحكم للآمدي: ٦٦/ح ١٢٧٦.

(٣) مكارم الأخلاق: ١٣٨.

(٤) بحار الأنوار: ١٠٣/٧ ح ٢٧ عن الخصال: ١٥٩/١ باب الثلاثة.

والخصومات والخوض في الباطل، ومن كان له ولد يعينه خفت أعباء الحياة عليه وسعد برؤيتهم.

٥- (من سعادة المرء أن يطول عمره، ويرزقه الله الإنابة إلى دار الخلود)^(١).
ليس كل من يحب أن يصنع المعروف إلى الناس يصنعه، وليس كل من يرغب فيه يقدر عليه ولا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة والإذن فهناك تمت السعادة للطالب والمطلوب إليه)^(٢) فهكذا تجتمع الأسباب لتحقيق السعادة: الإرادة من الإنسان وتيسير الأسباب والوسائل الطبيعية لإنجاز العمل وتوفيق الله سبحانه.

٦- (ولو أن أشياعنا - وفقهم الله لطاعته - على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم، لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا، فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه)^(٣) فالإلفة بين المؤمنين وتواددهم وتراحمهم سبب قوي لسعادتهم ونزول الرحمة عليهم.

كيف نحذر من الشقاوة؟

ونذكر بعض الروايات الواردة في الشقاوة لتعرف الأمور بأضدادها:
قال رجل للنبي (ﷺ): اعدل، فقال (ﷺ): (لقد شقيتَ شقيتُ) إن لم

(١) بحار الأنوار: ٤٦٦.

(٢) مكارم الأخلاق - الطبرسي: ١٣٦.

(٣) الاحتجاج: ج ٢، رسالة الناحية المقدسة إلى الشيخ المفيد.

أعدل) (١).

وعنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (أشقى الناس الملوك) (٢) بعكس ما يتصور أغلب الناس فيحسدونهم على ما هم عليه فإذا انكشف لهم الواقع تبرأوا منه كما في قصة قارون التي حكاها الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانَّنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَّتْهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص: ٨٢).

وعنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (أربع خصال من الشقاء: جمود العين وقساوة القلب وبعد الأمل وحب البقاء) (٣).

سئل أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ): أي الخلق أشقى؟ قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (من باع دينه بدنيا غيره) (٤).

عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (إن الشقي من حُرِمَ ما أُوتِيَ من العقل والتجربة) (٥).

ومن كلماته (عَلَيْهِ السَّلَامُ) في غرر الحكم (٦): (من علامات الشقاء غش الصديق)، (من الشقاء فساد النية)، (من الشقاء أن يصون المرء دنياه بدينه).

(١) رواه البخاري: ٣١٣٨.

(٢) بحار الأنوار: ٣٤٠/٧٥.

(٣) بحار الأنوار: ١٦٤/٧٣.

(٤) بحار الأنوار: ٣٠١/٧٥.

(٥) شرح نهج البلاغة: ٧٤/١٨.

(٦) غرر الحكم - الآمدي: ٦٧٤-٨٢٢-٦٧٧.

حاصل إشكال ورد:

ونبه هنا إلى شبهة يثيرها الغارقون في المعاصي العاجزون عن التغلب على أهوائهم فيصوّرون لأنفسهم أنه مكتوب عليهم الشقاء ولا يمكن تغييره، وقد دعمت هذا الاتجاه الفكري جهات سياسية منذ عصر صدر الإسلام لتمنع الأمة من الحركة نحو الإصلاح وتغيير الواقع الفاسد وإزالة الظلم، وينقل القرآن الكريم عنهم قولهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (المؤمنون: ١٠٦) لكن أمير المؤمنين (عليه السلام) فسر الآية بقوله: (بأعمالهم شقوا)^(١).

فالإنسان باختياره عمل ما يوجب شقاءه، وقد جرى القضاء الإلهي - أي مجموعة القوانين والسنن الإلهية - بأن من يعصي ويعرض عن الله تعالى يشقى، قال (عليه السلام) في دعاء كميل: (إلهي ومولاي أجريت عليّ حكماً اتبعت فيه هوى نفسي ولم أحترس فيه من تزيين عدوي فغرّني بما أهوى وأسعده على ذلك القضاء)^(٢) فالعبد باختياره اتبع الشيطان وساعد على غوايته السنة الإلهية بإيكاله إلى نفسه وسلب التوفيق منه.

وفي احتجاج الإمام الصادق (عليه السلام) على الزنادقة لما سألوه: (فما السعادة وما الشقاوة؟ قال: السعادة سبب خير تمسك به السعيد فيجره إلى النجاة، والشقاوة سبب خذلان تمسك به الشقي فجره إلى الهلكة، وكلُّ بعلم الله تعالى)^(٣) فالله تبارك وتعالى قضى تلك الأسباب، والإنسان بإرادته تمسك بهذا أو ذاك منها،

(١) بحار الأنوار: ١٥٧/٥.

(٢) مفاتيح الجنان: ١١٧.

(٣) بحار الأنوار: ١٨٤/١٠.

وروى البخاري عن النبي (ﷺ) قوله: (أما أهل السعادة فيسرون لعمل السعادة وأما أهل الشقاوة فيسرون لعمل الشقاوة)^(١) ولذا فُسرت السعادة بما يناسب أصلها المأخوذ منه وهي المساعدة فليل أن السعادة والسعد: (معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير وفضادّه الشقاوة وأعظم السعادات الجنة)^(٢).

تلخيص السعادة الحقيقية:

أيها الأُحبة..

نستطيع تلخيص أسباب السعادة الحقيقية بالإيمان بالله تعالى وتقواه والالتزام بطاعته وطاعة رسوله (ﷺ) وأهل بيته (عليهم السلام) بإخلاص ونشاط وعزيمة لا تلين، وتطهير القلب من أمراض الحسد والحقد والبغضاء والبخل والحرص والخوف والقلق وتنقية العقل، من الشبهات والشكوك والظنون والتهم والأوهام والوساوس (فإن الشكوك والظنون لواقح الفتن ومكدرة لصفو المنائح والمنن)^(٣) وتهذيب النفس من الأهواء المنحرفة وضبط الغرائز على وفق ما يصلح حال الإنسان في دنياه وآخرته وتجنب الإفراط والتفريط.

والزواج بالمرأة الصالحة الودودة الجميلة وطلب الأولاد وتربيتهم ليكونوا صالحين، والسعي لطلب الرزق الحلال الذي يسدّ احتياجاته ويغنيه عما في أيدي الناس ويوفّر له فرص الطاعة والقرب من الله تبارك وتعالى. وقد وجدت في الأحاديث الشريفة أن أكثر ما يوجب السعادة بعد التقوى

(١) صحيح البخاري: ٩٩/٢.

(٢) المفردات للراغب: مادة (سعد).

(٣) الصحيفة السجادية (إطحي): ٤١١.

محبة الآخرين ومواددتهم وبذل الوسع في إسعادهم وقضاء حوائجهم وإدخال السرور عليهم ابتداءً من الوالدين والزوجة والأولاد إلى الجيران والأرحام ثم عامة الناس.

وإن أكثر ما يوجب الشقاء بعد الإعراض عن الله تعالى هو الحزن والقلق، الحزن على ما فات من عزيز أو مال أو شهوة أو شيء حريص عليه، والقلق مما يأتي كالتاجر يخاف أن يخسر والمرأة تقلق أن يفوتها قطار الزواج أو يتزوج عليها زوجها امرأة ثانية. فينكد عيشهم باحتمالات لم تقع، والحل في تجنب هذه الحالات، وإيكال الأمر إلى الله تبارك وتعالى والأخذ بالأسباب المتيسرة قال تعالى في علاج هذه الحالة: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد: ٣١).

ولم تحصل هذه الحالات إلا بسبب الحرص والفخر والاختيال بما في اليد.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

قال تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود: ﴿١١٤﴾).

وعد جميل يثلج صدور التائبين العائدين الى الله تعالى الذين آلمهم وخز
الضمير وتقريع النفس اللوامة، والطامحين الى محو ما في صحائف أعمالهم من
نقاط سوداء خلقتها المعاصي، والمتطلعين الى الأمل بحياة صالحة طيبة جديدة،
والطامعين في تكسير قيود الذنوب التي تعيق السعي نحو الكمال، ولولا هذا
القانون الالهي الكريم لانسدَّ طريق التكامل والرقى؛ لأن الذنوب تتراكم وتجعل
القلب مكدرًا غير قابل للهداية والصلاح ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ﴿٤٤﴾) روى في الدر المنثور عن النبي (ﷺ) قال: (مثل
الذي يعمل الحسنات على أثر السيئات كمثل رجل عليه درع من حديد ضيقة
تكاد تخنقه فكلما عمل حسنة فك حتى يحل عقده كلها)^(١).

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، طبعة دار الفكر، ج ٤، ص ٤٨٦.

وهذا الوعد أحد مظاهر الرحمة التي كتبها الله على نفسه قال تعالى ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الانعام: ١٤) وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٧).

روى الشيخ الكليني (رحمه الله) في الكافي بسنده عن الثقة الفضل بن عثمان المرادي قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ): أَرْبَعُ مَنْ كُنَّ فِيهِ لَمْ يَهْلِكْ عَلَى اللَّهِ بَعْدَهُنَّ إِلَّا هَالِكٌ - يَهُمُّ الْعَبْدُ بِالْحَسَنَةِ فَيَعْمَلُهَا فَإِنْ هُوَ لَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ حَسَنَةً بِحُسْنِ نِيَّتِهِ وَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَشْرًا وَيَهُمُّ بِالسَّيِّئَةِ أَنْ يَعْمَلَهَا فَإِنْ لَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا أُجِّلَ سَبْعَ سَاعَاتٍ وَقَالَ صَاحِبُ الْحَسَنَاتِ لِصَاحِبِ السَّيِّئَاتِ وَهُوَ صَاحِبُ الشَّمَالِ لَا تَعْجَلْ عَسَى أَنْ يُتْبِعَهَا بِحَسَنَةٍ تَمْحُوهَا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ - ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...﴾ (١).

وقد وقع هذا الوعد الكريم عقب الأمر بالصلاة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ فقدّم ذكر المصداق الابرز والاقوى على ذكر القاعدة الكلية، مما يكشف عن أنّ أداء الصلوات في أوقاتها له تأثير فعّال في محو السيئات والعفو عنها، روي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (إِذَا قَامَ الْعَبْدُ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَانَ هَوَاهُ وَقَلْبُهُ

(١) الكافي (ط - الإسلامية)، ج ٢/ ص ٤٢٩، باب من يهم بالحسنة أو السيئة، ح ٤.

إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْصَرَفَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ^(١) ومع تكرر الصلاة خمس مرات في اليوم والليله فان فرصة التخلص من الذنوب تكون عظيمة، روى في تفسير العياشي عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثَّمَالِيِّ قَالَ سَمِعْتُ أَحَدَهُمَا (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) يَقُولُ: (إِنَّ عَلِيًّا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ آيَةُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَرْجَى عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨-٥١) قَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): حَسَنَةٌ وَكَيْسَتْ إِيَّاهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غُفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ١١) قَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): حَسَنَةٌ، وَكَيْسَتْ إِيَّاهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعُفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٢) قَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): حَسَنَةٌ، وَكَيْسَتْ إِيَّاهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لِمَنْ إِلَّا اللَّهُ﴾ (الانعام: ١٣٥) قَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): حَسَنَةٌ، وَكَيْسَتْ إِيَّاهَا، قَالَ: ثُمَّ أَحْجَمَ النَّاسُ!^(٢) فَقَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): مَا لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: لَا وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ قَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ وَقَرَأَ الْآيَةَ كُلَّهَا، وَقَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): يَا عَلِيُّ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَقُومُ إِلَى وَضُوئِهِ فَتَسَاقُطُ عَنْ جَوَارِحِهِ الذُّنُوبُ، فَإِذَا اسْتَقْبَلَ اللَّهَ بَوَجْهِهِ وَقَلْبِهِ لَمْ يَنْفَتِلْ عَنْ صَلَاتِهِ وَعَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ شَيْءٌ، كَمَا وَلَدَتْهُ

(١) بحار الأنوار (ط - بيروت)؛ ج ٨١ / ص ٢٦١.

(٢) أحجم الناس - بتقديم المهملة - كفوا ونكنوا هيبة.

أُمَّهُ، فَإِنَّ أَصَابَ شَيْئاً بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى عَدَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ثُمَّ قَالَ (ﷺ): يَا عَلِيُّ، إِنَّمَا مَنْزَلَةُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ لِأُمَّتِي كَنَهْرٍ جَارٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ، فَمَا ظَنَّ أَحَدُكُمْ لَوْ كَانَ فِي جَسَدِهِ دَرَنْ ثُمَّ اغْتَسَلَ فِي ذَلِكَ النَّهْرِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ، أَكَانَ يَبْقَى فِي جَسَدِهِ دَرَنْ فَكَذَلِكَ وَاللَّهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ لِأُمَّتِي^(١).

وأي أمل ينعش القلوب أكثر من هذا الشعور بأنه مهما ابتعد عن الله تعالى وكثر خطاه فانه يستطيع العودة اليه تبارك وتعالى إذا تاب بصدق وشعر بالخجل من ربه، ثم وقف خاشعاً يصلي لربه المتعال، وحينئذ سيفرح الله تعالى بعودته أشدّ الفرح ويمحو عنه خطاياها.

وفي مجمع البيان عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فِي الْمَسْجِدِ نَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا فَأَعْرَضَ عَنْهُ فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ (ﷺ) الصَّلَاةَ قَامَ الرَّجُلُ فَأَعَادَ الْقَوْلَ فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ وَأَحْسَنْتَ لَهَا الطَّهُّورَ قَالَ بَلَى قَالَ فَإِنَّهَا كَفَّارَةٌ ذَنْبِكَ^(٢).

وفيه ايضاً: عن أبي عثمان، قال: (كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، وَأَخَذَ مِنْهَا عُصْنًا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَفُهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا عُثْمَانَ، أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ فَقَالَ: هَكَذَا فَعَلَ بِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) وَأَنَا مَعَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُصْنًا يَابِسًا، فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَفُهُ فَقَالَ (ﷺ): يَا سَلْمَانُ: أَلَا

(١) تفسير العياشي: ج ٢/ ص ١٦١. وينظر: البرهان في تفسير القرآن: ج ٣/ ص ١٤٣.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: طبعة مؤسسة التاريخ العربي، ج ٥/ ص ١٩٠.

تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ قَالَ (ﷺ): إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَاةَ الْخَمْسَ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ، كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ، وَقَالَ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ إلى آخرها^(١).

وقد قلنا في قبس سابق^(٢): ان للصلاة تأثيراً في منع المعاصي قبل الوقوع فيها، وفي محوها بعد ذلك، أي أن تأثيرها على نحو الدفع والرفع، فهي قبله تنهى عنه وتحصن الانسان منه وتمنع من السقوط فيه ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥) وفي رواية (أَنَّ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يُصَلِّي الصَّلَاةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) وَيَرْتَكِبُ الْفَوَاحِشَ فَوُصِفَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَقَالَ إِنَّ صَلَاتَهُ تَنْهَاهُ يَوْمًا مَا فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَابَ)^(٣). وهي ترفع الذنوب وتمحوها بعد وقوعها ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وان هذه الآية تحمل معنى الدفع أيضاً ((لان

(١) مسند احمد بن حنبل: ط الرسالة، ج ٣٩ / ص ١١١. وينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: طبعة مؤسسة التاريخ العربي، ج ٥ / ص ١٩٠.

(٢) أنظر: قبس قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وقبس ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَتَفْعَلَهَا إِيمَانُهَا﴾ (يونس: ٩٨)، في تفسير نور القرآن.

(٣) بحار الأنوار (ط - بيروت) ج ٧٩؛ ص ١٩٨. وينظر: الكشف والبيان (تفسير ثعلبي)، ج ٧، ص ٢٨١ بزيادة في آخره: فقال رسول الله (ﷺ): (ألم أقل لكم إن صلاته تنهاه يوما ما). وأيضاً: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤٤٧ / ٨.

الدوام على فعل الحسنات يدعو الى ترك السيئات، فكأنها يذهبن بها)) كما عن العلامة الطبرسي^(١).

﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود: ١١٤) ايراد هذه الوعود والقوانين والسنن فيها تذكير، للمؤمنين بما يضمن سعادتهم وفلاحهم، وتبصرةً ينتفعون بها ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥) وليتذكروا فيما بينهم هذه النعم الإلهية. وبضم هذه الآية الكريمة إلى التي تليها ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (هود: ١١٥) يتحقق معنى قوله تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣) وقوعهما بعد قوله تعالى ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (هود: ١١٣) يفيد معنى حركياً رسالياً حاصله أننا نهينا عن الركون إلى الظالمين، واجتنابه بما يتضمن من اغراءات السلطة والشهرة والمال وتهديد المخالف بالقتل والتعذيب يتطلب مناعة وتقوى شديدة لا يمكن تحصيلها إلا بالصبر والصلاة ((فلكي نقاوم اغراء السلطة والثروة اللتين يعتمدهما الظالم، ونقاوم ضغوطهما الشديدة، ولكي تبقى نفوسنا صامدة أمام التضليل، ونمتلك ثقة بقدرتنا على التحدي، بل وأيضاً لكي نستعيد ثقتنا بأنفسنا ونكفر عن الذنب العظيم الذي تركبه عادة الجموع المستضعفة، وهو يأسهم من روح الله، وتألبيهم للطغاة

(١) تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي: ٣٤٦ / ٥.

الظالمين، واعتقادهم بأنهم لا يقهرون، لكل ذلك لا بد أن نستعين بالصبر والصلاة^(١).

ولا يختص هذا الوعد الصادق بالصلاة وإن كانت هي أبرز المصاديق، بل هو مطلق لكل الحسنات، قال الإمام الصادق (عليه السلام): ((لَا يُعْرَكَ النَّاسُ مِنْ نَفْسِكَ - كما أثنوا بصلاحك - فَإِنَّ الْأَمْرَ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ دُونِهِمْ - وأنت المحاسب على أفعالك والله يعلم بحقيقتك - لَا تَقْطَعِ النَّهَارَ بِكَذَا وَكَذَا فَإِنَّ مَعَكَ مَنْ يَحْفَظُ عَلَيْكَ وَلَمْ أَرِ شَيْئًا قَطُّ أَشَدَّ طَلِبًا وَلَا أَسْرَعَ دَرَكًا مِنَ الْحَسَنَةِ لِلذَّنْبِ الْقَدِيمِ))^(٢).

ومن تلك الحسنات:

١- الورع عن محارم الله تعالى قال تعالى ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ

نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١).

٢- حسن الخلق: روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إِنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ يُذِيبُ

الْخَطِيئَةَ كَمَا تُذِيبُ الشَّمْسُ الْجَلِيدَ وَإِنَّ سُوءَ الْخُلُقِ لَيُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ)^(٣).

٣- إغاثة^(١) الملهوف: عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: (مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ

الْعِظَامُ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ)^(٢).

(١) من هدى القرآن: ٨٩/٤

(٢) ثواب الأعمال: ١٣٤، تفسير البرهان: ١١١/٥/٥.

(٣) الزهد؛ ص ٢٩، باب حسن الخلق والرفق والغضب، ح ٧٣. وينظر: إرشاد القلوب إلى الصواب

(للديلمي)؛ ج ١؛ ص ١٣٣.

٤- الحج والعمرة: قال امير المؤمنين (عليه السلام) (إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... وَحَجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحِضَانِ الذَّنْبَ) (٣)، وعن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا) (٤).

٥- زيارة المعصومين (عليهم السلام) مثلاً ورد في زيارة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم الغدير أن الله تعالى يغفر بها ذنوب ستين سنة كما في مصباح الشيخ الطوسي (٥)، وفي كامل الزيارات عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ إِلَى قَبْرِ الْحُسَيْنِ (عليه السلام) فَلَهُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَهْلِهِ بِكُلِّ خُطْوَةٍ مَغْفِرَةٌ ذُنُوبِهِ) (٦).

٦- كثرة السجود روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَثُرَتْ ذُنُوبِي وَضَعُفَ عَمَلِي فَقَالَ

(١) أَعَانَتْهُ: (إِغَاثَتْهُ) إِذَا أَعَانَهُ وَنَصَرَهُ فَهُوَ (مُعِيثٌ). ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير

لرافعي؛ ج ٢؛ ص ٤٥٥، مادة غوث.

(٢) نهج البلاغة (بشرح محمد عبده)، باب الحكم، الحكمة: ٢٤.

(٣) نهج البلاغة (بشرح محمد عبده)، الخطبة: ١١٠.

(٤) دعائم الإسلام؛ ج ١؛ ص ٢٩٤. ورواه الشيخ الصدوق عن الإمام الصادق (عليه السلام)، ينظر: من لا

يحضره الفقيه؛ ج ٢؛ ص ٢٢٠.

(٥) مصباح المتعبد وسلاح المتعبد، ج ٢، ص ٧٣٧.

(٦) كامل الزيارات، النص، ص ١٣٣.

رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) أَكْثَرُ السُّجُودِ فَإِنَّهُ يَحُطُّ الذُّنُوبَ كَمَا تَحُطُّ الرِّيحُ وَرَقَ الشَّجَرِ. (١)

٧- الصلاة على محمد وال محمد: روي عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَا يُكَفِّرُ بِهِ ذُنُوبَهُ فَلْيُكْثِرْ مِنَ الصَّلَوَاتِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ فَإِنَّهَا تَهْدِمُ الذُّنُوبَ هَدْمًا) (٢).

وينبغي الالتفات الى امور:

أولاً: لا يجوز الاتكال على هذه الوعود الالهية بشكل يوجب الاغترار والانجرار نحو المعاصي فهذا من تسويل الشيطان، قال تعالى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٧٧)، روى العياشي في تفسيره عن إبراهيم الكرخي قال: (إِنِّي عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ الْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) يَا فُلَانُ انظُرْ بَمَا ذَا تَقَطَّعُ يَوْمَكَ وَلَيْلَتَكَ وَاعْلَمْ أَنَّ مَعَكَ مَلَكًا كَرِيمًا مَوْكَلًا بِكَ يَحْفَظُ عَلَيْكَ مَا تَفْعَلُ وَيَطَّلِعُ عَلَى سِرِّكَ الَّذِي تُخْفِيهِ مِنَ النَّاسِ فَاسْتَحْيِ وَلَا تُحَقِّرَنَّ سَيِّئَةً فَإِنَّهَا سَتَسُوؤُكَ يَوْمًا وَلَا تُحَقِّرَنَّ حَسَنَةً وَإِن صَغُرَتْ عِنْدَكَ وَقَلَّتْ فِي عَيْنِكَ فَإِنَّهَا سَتَسُرُّكَ يَوْمًا وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَضَرَّ عَاقِبَةً وَلَا أَسْرَعَ نَدَامَةً مِنَ الْخَطِيئَةِ وَأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ طَلَبًا وَلَا أَسْرَعَ دَرَكًا لِلْخَطِيئَةِ مِنَ الْحَسَنَةِ أَمَا إِنَّهَا تُنْذِرُكَ الْعَظِيمَ الْقَدِيمَ الْمُنْسِيَّ عِنْدَ غَامِلِهِ فَيَجِدُّ بِهِ

(١) وسائل الشيعة: ١٠٢/٤، الأماي (للصدوق)، النص، ص ٤٩٩.

(٢) الأماي (للصدوق)؛ ص ٧٣، المجلس ١٧، ح ٤.

وَيُسْقِطُ وَيَذْهَبُ بِهِ بَعْدَ إِسَاءَتِهِ وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾^(١).

ثانياً: ان الوعد وان كان مطلقاً الا انه بدلالة الاحاديث الاخرى كقول امير المؤمنين في معنى الاستغفار^(٢) يتطلب الاقتران بالندم والعزم على الترك واعادة الحقوق الى أهلها، ولعله من معاني ﴿ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ فاللام للاختصاص وهو ذكرى لخصوص الذاكرين.

ثالثاً: لا بد من المناسبة بين نوع الحسنات وعددها مع ما اقترف من السيئات، من كتاب امير المؤمنين الى محمد بن ابي بكر لما ولاه مصر (... فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُكْفِّرُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ سَيِّئَةً قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾...) ^(٣) فلا يمحو ذنب سفور المرأة وتبرجها مثلاً بأن تقرأ شيئاً من القرآن وإن كان هذا خيراً كثيراً إذا كانت باقية على سفورها وانما بان تتحجب وتلتزم بمتطلبات العفاف، روى سماعة ابن مهران قال: (سَأَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَبَالِ عَنْ رَجُلٍ أَصَابَ مَالًا مِنْ أَعْمَالِ السُّلْطَانِ فَهُوَ يَتَصَدَّقُ مِنْهُ وَيَصِلُ قَرَابَتَهُ وَيَحْجُجُ لِيُغْفَرَ لَهُ مَا اكْتَسَبَ وَهُوَ يَقُولُ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) إِنَّ الْخَطِيئَةَ لَأُكْفَرُ الْخَطِيئَةَ وَلَكِنَّ الْحَسَنَةَ تُكْفَرُ الْخَطِيئَةَ)^(٤).

(١) تفسير العياشي ج ٢/ص ١٦٣، بحار الانوار: ١٦٦/١٥، تفسير البرهان.

(٢) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده: الحكم، الحكمة: ٤١٤.

(٣) الأمالي (للمفيد)؛ ص ٢٦٢. المجلس: ٣١.

(٤) تفسير العياشي: ١٦٢/٢، ح ٧٧، البرهان: ١١٥/٥، ح ١٤.

رابعاً: قد لا يكون لبعض الذنوب كفارة الا عمل مخصوص كطلب الرزق الحلال روي عن رسول الله (ﷺ) (إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبًا لَّا يُكْفَرُهَا صَلَاةٌ وَلَا صَوْمٌ) (١) قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا يُكْفَرُهَا قَالَ (ﷺ) (أَلْهُمُومٌ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ) (٢).

خامساً: على المؤمن أن يتجنب ذكر سيئة لأخيه المؤمن أو فضحه بها أو تسقيطه، إذ لعل صلاته أو حسنة فعلها محت عنه تلك السيئة وقد تورط هو بمعصية الإساءة إلى أخيه المؤمن، نعم من حق أخيك عليك أن تنصحه بموعظة حسنة وتلفت نظره بأدب وتوقير، وبهذا الأدب القرآني وأمثاله تسمو الاخلاق وتحقق الألفة والموودة بين المؤمنين وينزع الغلّ من صدورهم وتظللهم رحمة الله تبارك وتعالى.

سادساً: يوجد بين الحسنات والسيئات تدافع فكما ان الحسنات تمحو السيئات وفق الآية محل البحث، فإن بعض الذنوب تاكل الحسنات وتبطلها، وذكرت الاحاديث منها العجب والحسد والغيبة، وهو حبط الأعمال الذي ذكرته الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة: ٢٦٦) وقال تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٤) ورد عن رسول الله (ﷺ) في تفسير الآية: (لَا عِلْمَنَ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضَاءٍ فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ هَبَاءً

(١) في البحار والمستدرک: صدقة.

(٢) قطب الدين الراوندى، سعيد بن هبة الله، الدعوات (للراوندي)/ سلوة الحزين، ص ٥٦. عنه البحار:

مَثُورًا أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا^(١).

وروي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ غَرَسَ اللَّهُ لَهُ بِهَا شَجْرَةً فِي الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ غَرَسَ اللَّهُ لَهُ بِهَا شَجْرَةً فِي الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَرَسَ اللَّهُ لَهُ بِهَا شَجْرَةً فِي الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ غَرَسَ اللَّهُ لَهُ شَجْرَةً فِي الْجَنَّةِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَجْرَنَا فِي الْجَنَّةِ لَكَثِيرٌ قَالَ نَعَمْ وَلَكِنْ إِيَّاكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا عَلَيْهَا نِيرَانًا فَتُحْرَقُوهَا^(٢)).

روى مسلم في صحيحه أن رسول الله (ﷺ) قال: (أتدرون ما المُفلس؟ قالوا: المُفلس فينا من لا درهم له ولا متاع له، فقال (ﷺ): المُفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فانفيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار^(٣))، أقول: وردت بمضمونه روايات عن أهل البيت (عليهم السلام).

وفي الحديث عن رسول الله (ﷺ): (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ مَلَكَ إِلَى أَهْلِ مَدِينَةٍ لِيَقْلِبَهَا عَلَى أَهْلِهَا فَلَمَّا أَنْتَهَى إِلَى الْمَدِينَةِ وَجَدَ رَجُلًا يَدْعُو اللَّهَ وَيَتَضَرَّعُ فَقَالَ أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ لِصَاحِبِهِ أَمَا تَرَى هَذَا الدَّاعِيَ فَقَالَ قَدْ رَأَيْتُهُ وَلَكِنْ أَمْضَى لِمَا

(١) كنز العمال: ط. الرسالة، ج ١٦، ص ٦٨٦، ح ١٣٦٨٦، وبمضمونه عن الإمام الصادق (عليه السلام) في الكافي:

٥٠٨/١١٢ ح.

(٢) الأمالي (للصدوق)، ص ٦٠٨.

(٣) صحيح مسلم: ١٨/٨، بحار الأنوار: ج ٦٩/ ص ٦.

أَمْرَ بِهِ رَبِّي فَقَالَ لَا وَلَكِنْ لَا أُحْدِثُ شَيْئًا حَتَّى أُرَاجِعَ رَبِّي فَعَادَ إِلَيَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَالَ يَا رَبِّ إِنِّي أَنْتَهَيْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَجَدْتُ عَبْدَكَ فُلَانًا يَدْعُوكَ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ فَقَالَ امْضُ بِمَا أَمَرْتُكَ بِهِ فَإِنَّ ذَا رَجُلٌ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهَهُ غَيْظًا لِي قَطُّ^(١).

ورد في وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) (صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام وإن الميرة الحالقة للدين فساد ذات البين)^(٢)، وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (ألا إن في التباغض الحالقة لا أعني حالقة الشعر ولكن حالقة الدين)^(٣).

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق (عليه السلام): (أتقوا الحالقة فإنها تميمت الرجال، قلت: وما الحالقة؟ قال: قطيعة الرحم)^(٤).

ومن دعاء لأmir المؤمنين (عليه السلام): (اللهم واستغفرك لكل ذنب يمحق الحسنات ويضاعف السيئات)^(٥).

(١) الكافي (ط. الإسلامية) ج ٥، ص ٥٨.

(٢) الكافي: ٥١/٧.

(٣) الكافي: ٣٤٦/٢٤.

(٤) الكافي: ٣٤٦/٢٤.

(٥) ميزان الحكمة: ٢٣٣/٢، عن البلد الأمين: ٤٣.

القبس/٩٣

سورة يوسف: ﴿٤٤﴾

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾

موضوع القبس: درس من عفاف النبي يوسف (ﷺ)

قصة النبي الكريم يوسف الصديق (ﷺ) معروفة لديكم بما تناوله القرآن الكريم ومنها قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ﴿٤٤﴾) تعقياً على إنقاذه من مكائد زوجة عزيز مصر، والفحشاء يُراد بها جريمة الزنا، أما (السوء فقيل أن المراد به الهم بالمعصية والعزم عليها قبل فعلها)^(١).

وجاء هذا الصرف استجابة لدعائه الذي ذُكر في موضوع آخر ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۗ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف: ﴿٣٣﴾-﴿٣٤﴾).

(لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ):

والتعبير الاعتيادي عن هذه الحالة أن يقال ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ لأن ظروف المعصية والجريمة كانت موجودة وليست مصروفة ولكن الله تعالى صرفه عن هذه المعصية وعصمه من الوقوع فيها، وهذه العصمة من التسديدات الالهية والنعم العظيمة.

(١) التبيان - الشيخ الطوسي: ٦/ ١٢٣.

لكن القرآن الكريم وصف حالاً أسمى من هذه فقال تعالى ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي صرفنا عنه أجواء المعصية ومقدماتها وموجباتها فكانه لم يتعرض لظروف معصية أصلاً حتى يجتنبها، لأنه يعيش في عالم آخر وفي أجواء أخرى غير عالم المعصية هذا الذي يرى في الظاهر وإنما وصفناها بأنها حالة أسمى لأنها ليست فيها تعرض للمعصية أصلاً ولا فيها تكلف اجتنابها وصرفه عنها حيث لا يجد الانسان فيها شيئاً سيئاً حتى يجتنبه.

في تفسير ما هم به يوسف (عليه السلام) هو الميل الغريزي، ورده:

وهذا الالغاء التام للتأثر بالحدث كأنه ليس ممكناً وغير قابل للتصور خصوصاً في مثل الحالة التي تعرض لها النبي يوسف (عليه السلام) ﴿وَرَأَوْنَاهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ (يوسف: ٢٣) ولذا لم يجد بعض المفسرين ممن يعتقد بعصمة النبي يوسف (عليه السلام) ضيراً من تفسير الهم بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (يوسف: ٢٤) بالميل النفسي الغريزي الطبيعي^(١) لمن يتعرض لمثل هذه المواقف أي أن غريزته

(١) حكى هذا الرأي عن كثيرين كالسيد المرتضى في (تنزيه الانبياء/ ٧٨) قال "وأما همّه فما طبع عليه الرجال من شهوة النساء" وتبعه على ذلك الشيخ الطوسي (قلائد) فإنه ذكر للهم عدة معاني منها العزم ومنها الإخطار ومنها الشهوة وميل الطباع" ثم قال "وإذا احتمل الهم هذه الوجوه نفينا عنه (عليه السلام) العزم على القبيح وأجزنا باقي الوجوه لأن كل واحد منها يليق بحاله (التبيان: ١٢١/٦)" وقال مثله ابن إدريس في (منتخب التبيان: ٢٢/٢-٢٣) وقال الطبرسي في (مجمع البيان: ج ٥-٦/٣٥٤): "ثالثها أن معنى قوله (همّ بها) اشتهاها ومال طبعه الى ما دعته اليه" ثم قال "وقد يجوز أن تسمى الشهوة همّاً على سبيل التوسع والمجاز ولا قبح في الشهوة لأنها من فعل الله تعالى" وقال به آخرون ومنهم العلامة

اشتتهت وانجذبت باعتبار أن الأنبياء بشر^(١) لهم غرائزهم وشهواتهم وميولهم فتنجذب نفسياً طبيعياً ولا إرادياً الى مثيرات الغريزة كالجذب الجائع الى الطعام تلقائياً، ولكنه (ﷺ) حبس نفسه وامتنع ولم يرتق ميله النفسي الى مستوى العزم والتوجه الى الفعل فضلاً عن القيام بالفعل نفسه لما رآه من برهان ربه كما في الآية الشريفة، وتفسير الهم بهذا المقدار لا ينافي العصمة.

المجلسي (قده) قال من ضمن كلام له "فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية" (بحار الانوار: ٣٣٢/١٢)، وقال الملا صدرا في تفسيره "والبرهان هو ما عنده من الصوارف العقلية الزاجرة للنفس عن فعل القبيح، أو المراد من (الهم) الميل الشهوي الحيواني الموجود في الطبائع البشرية ولولا الزاجر الشرعي لما انتهى عن كل ما يمكنه من القبائح، ولولا المعرفة الكاملة للقوة العقلية المنورة بحقيقة التقوى لوقع منه فعل ما لا ينبغي أحياناً، وليس المراد الهم بالمعصية والقصد اليها....." وقيل هو من باب المشاركة أي شارف أن يهم) (تفسير القران الكريم: ١١٩/٣ و ٢٦٧/٦-٢٦٨)، وقال مثله البيضاوي في تفسيره وقال صاحب "في ظلال القران" (فذكر - القرآن - طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته مع الإمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً وهو أقرب الى الطبيعة البشرية والى العصمة النبوية، وما كان يوسف سوى بشر، نعم إنه بشر مختار، ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات، فلما رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه بعد اللحظة الطارئة عاد الى الاعتصام والتأبي) (في ظلال القران: مج ٤/٧١٢) أقول: لم يغب عن الصديق يوسف (ﷺ) برهان ربه حتى يعود اليه ونقل عن الزمخشري في الكشاف "فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد اليها، قلت: المراد أن نفسه مالت الى المخالطة، ونازعت اليها عن شهوة الشباب و..... ميلا يشبه الهم به والقصد اليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويردّه النظر في برهان الله".

(١) قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾ (الكهف: ١١٠) ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (إبراهيم: ١١).

لكن هذا التفسير غير صحيح، لوجه:

١- لأن الهم لا يطلق على مجرد الميل النفسي الطبيعي بل على قصد الفعل والعزم عليه وقد يشترط فيه ظهور هذا العزم من خلال الإتيان بشيء مما يكشف عنه كمن يهَمُّ بالضرب فيتوجه الى الطرف الآخر ويتأهب للفعل وهذه كلها لا يمكن نسبتها الى النبي الكريم يوسف (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كما اقروا في كلماتهم السابقة قال في الميزان (الهم هو القصد الى الفعل مع مقارنته لبعض الأعمال الكاشفة عن ذلك من حركة الى الفعل المراد أو شروع في بعض مقدماته كمن يريد ضرب رجل فيقوم اليه وأما مجرد ميل الطبع ومنازعة القوة الشهوانية فليس يسمى همّاً البتة والهم بمعناه اللغوي مذموم لا ينبغي صدوره من نبي كريم، والطبع وإن كان غير مذموم لخروجه عن تحت التكليف لكنه لا يسمى همّاً^(١)، فلا بد ان تكون المعاني التي ذكرها للهم هنا من باب التجوّز كما اعترف الطبرسي في مجمع البيان لتزويه النبي يوسف (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عما لا يليق بساحة عصمته.

وبتعبير آخر ان تفسير الهم بالميل الطبيعي وهو معنى مغاير لما فسروا به همها خلاف الظاهر ولا يصار اليه الا بدليل.

٢- إن الهم -بأي معنى من المعاني - لم يصدر من النبي يوسف (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أصلاً حتى نجتهد في تفسيره بما يناسب عصمة الانبياء، لانه رأى برهان ربّه فلم يهَمُّ لكن جواب لولا تقدم عليها فيوجد تقديم وتأخير في الآية، نظير قوله تعالى ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ (القصص: ١٠).

وقد أشكل علماء النحو على هذا الوجه لأنهم يمنعون من تقدم جزاء لولا

(١) تفسير الميزان - الطباطبائي: ١٣٦/١١.

عليها قياساً على إن الشرطية لانها من ادوات الشرط، وهذا الالتزام المتمتت بقواعد النحو التي استنبطوها اوقعهم في هذا التقصير مضافا الى تشبث البعض في الروايات المكذوبة من اسرائيليات وغيرها، لكن القران الكريم حاكم على قواعد اللغة العربية لانه مصدرها ومرشدها وليس العكس، خصوصا وانه قد وردت رواية عن الإمام الرضا (عليه السلام) تفسر الآية بهذا المعنى رواها الشيخ الصدوق في العيون وفيها (فقال له المأمون: يا بن رسول الله اليس من قولك: ان الانبياء معصومون، قال: بلى، قال: فاخبرني عن قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا اَنْ رَّآى بُرْهَانَ رَبِّهٖ﴾ فقال الرضا (عليه السلام): لقد هممت به ولولا ان رأى برهان ربه لهمم بها لكنه كان معصوماً، والمعصوم لا يهمم بذنب ولا يأتيه^(١)).

أقول: والشاهد على ان الهمم الثاني لم يحصل^(٢) وانه جواب لولا:

أ- الاتيان بالهمين منفصلين ليكون الثاني وحده جواب لولا، ولو حصل الهمم من يوسف لما احتاج الى التفصيل بينهما، ونكتة تقديم الجزاء هي ما قلناه من تصوير الحالة بان مقتضى الهمم تام ومكتمل لولا لطف الله تعالى مع ما في التعبير من حلاوة البيان لمجاورة الهممين.

ب- ان (همم بها) اذا لم تكن جواب لولا بقيت بلا جواب، واذا قيل ان الجواب مقدر يكشف عنه ما تقدم قلنا ان التقدير خلاف الاصل وان تقدير الجواب هكذا يؤدي الى تناقض لان (همم بها) السابقة تثبت الهمم وتقديرها في

(١) عيون اخبار الرضا: باب مجلس آخر للرضا (عليه السلام) عند المأمون في عصمة الانبياء.

(٢) وقد اعترفت زوجة العزيز بأن الهمم حصل منها وحدها ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهٖ فَاسْتَعْصَمَ﴾

(يوسف: ٣٢).

جواب لولا ينفيه. لذا فمحاولة السيد الطباطبائي (قُلَيْبٍ) وغيره المحافظة على معنى نفي الهم عن الصديق يوسف (عَلَيْهِ) مع المحافظة على هذه القاعدة النحوية بأن يُقال أن جواب لولا متأخر عنها لكنه محذوف لدلالة قوله السابق (وهمَ بها) عليها فتكون الفقرة السابقة (وهمَ بها) ((ليس جزاء لها بل هو مقسم^(١) به بالعطف على مدخول لام القسم في الجملة السابقة اعني قوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وهو في معنى الجزاء استغنى به عن ذكر الجزاء فهو كقولنا ((والله لأضربنه إن يضربني، والمعنى: والله إن يضربني أضربه))، فلولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهم والاقتراب دون الارتكاب والاقتراف^(٢)). محل نظر، مضافا الى ان فيه إقراراً بحصول الهم من يوسف بأي معنى كان والمفروض نفيه.

٣- وينسجم ما ذكرناه من فهم الآية على انها تقديم وتأخير مع ما قدمناه من تفسير الآية فإنه حتى الميل النفسي بالمقدار الطبيعي الغريزي لم يحصل لا لنقص بايولوجي أو سايكولوجي أو فسيولوجي في جسمه وإنما لأمرين على الأقل:

أ- لأنه كان والهأ بربه مستغرقاً بحبه ولم يكن يرى غيره تبارك وتعالى لا المرأة أمامه ولا غيرها فذوبان النبي يوسف في عشق ربه وفناءه فيه لا يقارن بانجذاب النسوة الى جمال يوسف حتى ذهeln عن السكين وقطع ايديهن، فيوسف اولى بالذهول عن المرأة وغيرها بحيث أنساه ولهه ((الاسباب كلها حتى أنساه نفسه فلم يقل: إني أعوذ منك بالله أو ما يؤدي معناه، إنما قال ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ وكم

(١) باعتبار أن اللام للقسم فالمعنى أقسم لقد همت به لقضاء وطرها.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٣١/١١، وقد نقل في ١٣٨/١١، هذا المعنى عن الزمخشري في كشافه.

من الفرق بين قوله هذا وبين قول مريم للروح لما تمثل لها بشراً سوياً ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (مريم: ١٨)^(١).

وقد ((استغرق في حب ربه واخلص وصفى ذلك نفسه فلم يترك لشيء في قلبه محلاً غير حبيبه فهو في خلوة مع ربه وحضرة منه يشاهد فيها جماله وجلاله وقد طارت الاسباب الكونية على مالها من ظاهر التأثير من نظره))^(٢).

ب- إن الغرائز والشهوات يستثيرها تزيين الشيطان - وهذه هي وظيفته - وعندما تُسَلَبُ قدرة الشيطان على التزيين فإن هذه الشهوات تفقد سبباً رئيسياً لإثارته مع وجودها في النفس الانسانية، وقد اعترف الشيطان بأنه لا سبيل له على المخلصين وليست له القدرة على إغوائهم فقد حكى الله تبارك وتعالى قوله ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إَلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ (ص: ٨٢-٨٣) وقد قال الله تعالى في الآية محل البحث عن النبي يوسف (عليه السلام) ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤) فهو من مأمّن من تزيين ابليس وشياطينه، ولا تتحرك غريزته وشهوته نحو الحرام لعدم وجود التزيين.

مضافا الى وجود الصوارف عنها - وهو برهان ربه - كما ان الجائع لا يشتهي الطعام عند وجود صوارف كالخوف والقلق والانشغال بمن يحب ونحو ذلك، فالغرائز فيها مقتضي التحرك نحو ما يلبي شهوتها الا أن ذلك مشروط بوجود المقتضي وهو التزيين وبعدم وجود الصارف وكلا الشرطين مفقودان هنا.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٢٦/١١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٢٥/١١.

في كيفية الحصانة من ضغط الشهوات والمغريات:

أما كيفية حصول هذه الحصانة من ضغط الشهوات والمغريات وتحرره من أسرها والسقوط في هاويتها وعدم تأثره بمثيراتها أصلاً فبالالتفات الى امور صرح بها الصديق يوسف (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣)، وقد كانت مكتملة عنده لأنه نبي معصوم ولذا ورد في الحديث الشريف (إن برهان ربه كانت النبوة)^(١).

أ- والاستعاذة به واللجوء الى حصنه المنيع فالإنسان بمفرده عاجز عن تجاوز الامتحانات السهلة فضلاً عن الصعبة لكنه يستمد التسديد والمعونة والعصمة من الله تعالى (لا حول ولا قوة الا بالله). وفي دعاء الصباح لامير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) (وَإِنْ خَذَلَنِي نَصْرُكَ عِنْدَ مُحَارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ فَقَدْ وَكَلَنِي خِذْلَانُكَ إِلَى حَيْثُ النَّصَبُ وَالْحِرْمَانُ)^(٢).

ب- يقينه أنه مربوب أي مملوك مدبر من قبل الله سبحانه لا يملك لنفسه شيئاً الا ما يريد ربه منه (فلم يقل: لا أفعل ما تأمروني به ولم يقل: لا أرتكب كذا، ولم يقل: أعوذ بالله منك وما شابه ذلك حذراً من دعوى الحول والقوة واشفاقاً من وسمة الشرك والجهالة)^(٣).

ت- الالتفات الى نعم الله العظيمة التي لا تُعد ولا تُحصى ورعايته وتربته الرحمة المستمرة ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ (يوسف: ٢٣) منذ أن ولد وعاش في

(١) بحار الانوار: ٣٣٥/١٢.

(٢) مفاتيح الجنان: ١١٢.

(٣) الميزان: ١٢٧/١١.

كنف أبيه النبي يعقوب (عليه السلام) وجعله من ذرية إبراهيم وإسحاق ونجاته من كيد إخوته الباغين الحاسدين ومن الجب ونقله الى مصر وتمكينه في بيت عزيز مصر وآتاه الله العلم والحكمة وغيرها مما لا يُعد ولا يُحصى ((فكان (عليه السلام) مملوء الحس مستغرق النفس في مشاهدة الطاف ربه الخفية يرى نفسه تحت ولاية الله محبوراً بصنائه الجميلة لا يرد الا على خير، ولا يواجه الا جميلاً))^(١).

ث - استحضار سوء عاقبة مرتكب المعصية في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، وفي هذا الفعل ظلم لربه وظلم لنفسه وظلم لعزيز مصر الذي اكرمه.

في معنى برهان ربه:

فهذه الامور التي كانت حاضرة في وجدان النبي يوسف (عليه السلام) وجليه في قلبه الطاهر هي برهان ربه الذي أشرق في نفسه بكل وضوح وجلاء - والبرهان من بره يبره إذا ابيض دون مخالطة أي كدورة فأطلق على كل دليل محكم قوي يدل بوضوح على المطلوب - فلم تتطلع نفسه الى المعصية ولم تمل اليها فضلاً عن الوقوع بها ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فلولا أنه كان واجداً لبرهان ربه لصدر منه الهم بالمعصية والميل اليها باعتبار الظروف القاهرة في تلك الحال، فهنا تقدم جواب لولا على شرطها لنكتة مجاورة التعبير بالهم او للإشارة الى ان ظروف الوقوع في المعصية قد اكتملت بقوة، وتقديرها لولا انه رأى برهان ربه لهم بها، ولكنه (عليه السلام) كان يعتقد أنه في محضر ربه في أعلى

درجات اليقين فلم يهّم أصلاً، وقد تقدمت الرواية عن الإمام الرضا (عليه السلام) في هذا المعنى.

فمع هذا الحضور الجليّ اليقيني الذي عبّر عن مثله امير المؤمنين (عليه السلام) بقوله (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعهُ وفيه) ^(١) كيف يتصور هم يوسف بأي معنى للهم حتى النزوع الغريزي الطبيعي لأنه يحتاج الى ظروف طبيعية ليتوجه ولعدم وجود موانع وصوارف.

هل يصل غير المعصوم الى الحصانة اليوسفية؟

والسؤال هل يتمكن غير المعصوم من الوصول الى هذه الدرجة من الحصانة والعناية الالهية التي احاطت النبي يوسف (عليه السلام)، والجواب: نعم بالتأكيد من خلال الالتفات الى الامور المتقدمة، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٣١) فالان عرفنا ما معنى (تذكروا) اي التفتوا الى هذه الامور التي ذكرها الله تعالى ليوسف (عليه السلام) وهذا هو مضمون البرهان الذي راه من ربه، قال تعالى مبيناً انفتاح الفرصة للجميع ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل: ٩٩). فالمؤمن المخلص يتذكر ربه المنعم عليه دائماً ويعيش في حضرته المتعالية ويعلم العاقبة السيئة لمن يتعد عنه تبارك وتعالى، وحينئذ يدركه هذا البرهان ويعينه عند التعرّض للامتحانات وانما يتحصل ذلك البرهان بالازدياد بالطاعات التي تنفعه في لحظات الامتحان الصعبة، كمن يدّخر المال ليوم فقره وفاقته، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا

(١) تفسير مواهب الوهاب: ٣٦/٢. وكذا في كتاب علم اليقين: ٤٩/١.

الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴿٢٥٣﴾ (الأنفال: ٢٥٣).

والتجربة شاهدة على ذلك حيث يحكي البعض عن تعرضه لمثل هذه الاغراءات والمكائد لكنه لا يجد في نفسه أي حركة في اتجاهها أو أي (هم) لفعالها لا لنقص في قواه البدنية والشهوية وإنما لأن الشيطان كان مغلولاً عنه فلم يزيّن له المعصية، والنفس وحدها من دون تزيين لا تتوجه نحو الفعل.

ولكي اوضح مدخلية التزيين اشير الى حالة معروفة لدى الكثيرين، مثلاً رجل عنده زوجة ولا يشعر بإثارة نحوها وقد يكون في بداية زواجه منها، لكنه يقع في هوى امرأة أجنبية اخرى وهو يعترف بأن زوجته قد تكون أجمل والطف وأرق مشاعر ومتحبة ومتوددة اليه ونحو ذلك، فلماذا هذا التناقض في الميول؟ والجواب انه تزيين الشيطان للثانية دون الاولى لأنه يريد أن يوقع الانسان في المعصية ويخرّب بيت الزوجية المبارك الذي ما بُني بناء في الاسلام مثله.

ولا بد أن نشير الى أن هذا الالتفات الاعتقادي القلبي وحده لا يكفي ما لم يقترن بالعمل قال تعالى مبينا علة استحقاق يوسف (عليه السلام) لهذه المراتب السامية ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٢٢) وقال تعالى على نحو القاعدة العامة، ولا تختص بالمعصومين ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨).

﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾

موضوع القبس: كيفية ضبط الغرائز والشهوات

أودع الله تبارك وتعالى لدى الانسان غرائز وقوى وميول ليتكامل عملها مع الحواس والأعضاء الأخرى حتى يتحقق الغرض من خلقه ويصل الى الهدف المنشود وهو إعمار الحياة الدنيا بالخير والصلاح والفوز برضوان الله تعالى في الآخرة، فلولا الغريزة الجنسية لما أقدم على تحمل مسؤوليات الزواج والانجاب والتكاثر، ولولا القوة الغضبية لما دافع عن المقدسات والحرمات وواجه الظلم والفساد، ولولا حب الذات والأنا لما اندفع بحماس للكسب وجلب المصلحة ودفع المضرة وهكذا.

وقد جعل الله تبارك وتعالى شريعة وأحكاماً لتنظيم هذه الغرائز وضبط الاستجابة لها بما يحقق الهدف، ومن أولى منه تبارك وتعالى بوضع هذه القوانين وهو خالق العباد والعارف بما يسعدهم ويصلح شأنهم، فأوجب الزكاة والخمس لمعالجة الشح بالمال والبخل، والصوم للتدريب على الامتناع من مشتبهات النفس المحللة فضلاً عن المحرمة، والحج للتححرر من علائق الأهل والديار والممتلكات، والصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأباح ما يلبي احتياجات الجسد والنفس:

بلا تفریط يؤدي الى الكبت والخمول والضعف قال تعالى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً

ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴿الحديد: ٢٧﴾ وَيُوبِخُ الْمُرْهَبِينَ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣١) وفي الحديث الشريف (لا رهبانية في الإسلام) (١).

ولا إفراط يؤدي الى الخراب والهلاك ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧)، فالإنسان قد يضعف أمام هذه الغرائز والشهوات ويندفع لها ويستجيب لمؤثراتها من دون مراعاة حدود العقل والفتوة والدين فيحصل الانحراف والفساد والظلم بأبشع صورة كالذي صدر من المقبورين هتلر وصدام فقتلا ملايين البشر وخربا البلاد بسبب طغيان نزوة أو شهوة وهذه هي أصول الوقوع في الذنوب.

إن هذه الغرائز والقوى الممنوحة للإنسان يمكن ان تساعد على التكامل ليكون أفضل من الملائكة (٢)، وتكون بمنزلة البراق الذي يعرج به في مدارج الكمال كما وصل بها رسول الله (ﷺ) إلى حيث لا يصل حتى الملائكة المقربون لأنهم لا يملكون هذه الوسيلة، ويمكن أن يتسافل بها الإنسان ليكون كالحيوان ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ١٦) بحيث يوجد في بعض أدبيات الصهاينة انك اذا استطعت أن تقتل ثلثي العالم لتحكم الثلث الآخر فافعل، وهذا نداء غريزة الأنانية وحب الزعامة والرئاسة والجاه واكتناز

(١) بحار الأنوار: ج ٦٥ / ص ٣١٩.

(٢) قال الإمام علي (عليه السلام): (إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ رَكَّبَ فِي الْمَلَائِكَةِ عَقْلًا بِلَا شَهْوَةٍ وَرَكَّبَ فِي الْبَهَائِمِ شَهْوَةً بِلَا عَقْلِ وَرَكَّبَ فِي بَنِي آدَمَ كِلَيْهِمَا فَمَنْ غَلَبَتْهُ شَهْوَتُهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلُهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهَائِمِ) (علل الشرائع، ص ٤، ح ١).

الثروات إن لم يسيطر عليها، وهكذا تفعل شهوة الجنس والبطن فتصبح قيمة الإنسان ما يخرج منه كما في كلمة أمير المؤمنين (من كان همُّه ما يدخل في جوفه كانت قيمته ما يخرج منه)^(١).

لذا كان من الضروري التعرّف على كوابح هذه الغرائز والشهوات وكيفية ضبط الاستجابة لها حتى يتحلى بصفة العفاف التي ورد فيها الحديث الشريف (العفة رأس كل خير)^(٢)، ويراد بها حالة الانضباط هذه في كل الغرائز والميول وليس الجنسية فقط.

أما بقاء التبعية لهذه الغرائز والميول والتعلق بها وعدم السيطرة عليها في الدنيا فإنه يجعل الانتقال منها صعباً ومؤلماً لأنه يستلزم تقطيع كل هذه العلائق الوثيقة عند الموت الذي هو آتٍ بلا شك وكم حكي عن أشخاص أريد تلقينهم الشهادتين حال الاحتضار فامتنعوا وهم يلهجون بذكر أموالهم وما تعلقت به قلوبهم وهذا بعض وجوه ما تتحدث عنه الأخبار من صعوبة سكرات الموت.

وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثالين من الرجال والنساء للتأسي بهما في العفاف وضبط الغرائز والشهوات وعدم الخضوع لتأثيراتها والافتتان بها وهما النبي الكريم يوسف الصديق (عليه السلام) ومريم بنت عمران السيدة الطاهرة الصديقة (عليها السلام)، فقال الله تبارك وتعالى عن يوسف ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ وقال تعالى عن مريم (عليها السلام) ﴿بِأَنهَا﴾ وَأَخْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، وقد جمع الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) هاتين الاسوتين في ما رواه الشيخ الكليني (رحمته الله) في روضة الكافي بسنده

(١) نهج البلاغة: شرح ابن أبي الحديد، ج ٢٠، ص ٣٢٠.

(٢) غرر الحكم: رقم ٧٣٠.

عنه (ﷺ) قال (يُؤْتَى بِالْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي قَدْ افْتَتَنَتْ فِي حَسْنِهَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَسَّنْتَ خَلْقِي حَتَّى لَقِيتَ مَا لَقِيتَ، فَيَجَاءُ بِمَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ فَيَقَالُ: أَنْتَ أَحْسَنُ أَوْ هَذِهِ؟ قَدْ حَسَّنَا فَلَمْ تَفْتِنِي، وَيَجَاءُ بِالرَّجُلِ الْحَسَنِ الَّذِي قَدْ افْتَتَنَ فِي حَسْنِهِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَسَّنْتَ خَلْقِي حَتَّى لَقِيتَ مِنَ النِّسَاءِ مَا لَقِيتَ؛ فَيَجَاءُ بِيُوسُفَ وَيَقَالُ: أَنْتَ أَحْسَنُ أَوْ هَذَا؟ قَدْ حَسَّنَاهُ فَلَمْ يَفْتِنِي، وَيَجَاءُ بِصَاحِبِ الْبَلَاءِ الَّذِي قَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ فِي بَلَاءِهِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ شَدَّدْتَ عَلَيَّ الْبَلَاءَ حَتَّى افْتَتَنْتُ فَيُؤْتَى بِأَيُّوبَ فَيَقَالُ: أَبْلَيْتَكَ أَشَدَّ أَوْ بَلِيَّةٌ هَذَا؟ فَقَدْ ابْتَلَيْتَنِي فَلَمْ يَفْتِنَنِي)^(١).

و﴿اسْتَعْصَمَ﴾ على وزن استفعل وتدل بحسب الغالب على طلب الفعل، نحو (استخرج) أي طلب اخراج الشيء و(استغفر) بمعنى طلب المغفرة وعلى هذا المعنى حملها الراغب في المفردات، قال: (كأنه طلب ما يعتصم به من ركوب الفاحشة وتحري ما يعصمه)، ولكنها قد تكون بمعنى الفعل الثلاثي نحو (استقر) أي قر، فيمكن فهم ﴿اسْتَعْصَمَ﴾ على كلا المعنيين أي اعتصم أو طلب العصمة، فالتعبير لا يخلو عن إشارة إلى ما كان يعاينه يوسف (ﷺ) من مجاهدة في التغلب على ما يعاينه، فقد كان محاصراً بأجواء الفتنة والإثارة والاغراء من امرأة العزيز وبقية النسوة وهو تحت الضغط والتهديد لا يملك لنفسه قراراً بل كان مملو كلاً لامرأة العزيز ومسلوب الحرية، ولكنه (ﷺ) كان بما منحه الله تعالى من عصمة مستعداً للتنازل عن حياته المرفّهة في قصر العزيز بكل امتيازاتها والذهاب إلى قعر السجون إذا لم يوجد حل أمامه للتخلص من هذه الغرائز الجامحة للنسوة

(١) روضة الكافي: ١٩١/ح ٢٩١.

الا هذا، لأنه يخاف على نفسه من الميل الى اغرائهن ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣) فأثر رضا الله تعالى على هواه وما تشتهيه نفسه. ولا شك أنه (ﷺ) استعصم بالله تعالى وبألطافه وعنايته وقدرته، وكان طلبه العصمة من الله تعالى صادقاً مخلصاً يخرج من أعماق قلبه صريحاً بقوله ﴿وَالْأَلَا تَصْرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣)، ولم يكتفي بالاعتماد على قدراته ومناعته الذاتية، وقد لبى الله تعالى دعوته ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف: ٣٤) وقد وجد يوسف الصديق (ﷺ) تلك الاستجابة يقيناً في قلبه وقوة في إرادته وبصيرة في سلوكه ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنُ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٣٤) فهو لو لم تدركه هذه الالطاف برهاناً من ربه لهم بها ووقع في شراكها للخطة المحكمة التي هياتها فصرف الله تعالى عنه الفحشاء وكل مقدمة سوء، وقد أوضحنا في قبس^(١) سابق أن ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ (يوسف: ٣٤) أعلى رتبة من (لنصرفه عن السوء والفحشاء).

ونريد الآن أن نتعرف على الأمور التي تساعد على ضبط الغرائز والميول وكبح الشهوات، وهي على قسمين:

١- العوامل الذاتية التي تنبع من داخل الإنسان.

(١) راجع قبس قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ (يوسف: ٣٤) في تفسير من نور القرآن.

٢- العوامل الخارجية التي تؤثر على الإنسان من خارجه إذ ان أحد أسباب الانحراف هو تأثير البيئة ودفع الشخص نحو ما يعرف بالسلوك الجمعي الذي يضطر الفرد لمجاراته والسير خلفه وان علم بخطأه فنحتاج الى كوابح لحركة المجتمع أيضاً وهي بدورها ستضبط غرائز الفرد ونوازعه.

أولاً: العوامل الذاتية وتتضمن:

١- الايمان بالله تعالى وليس المقصود كل إيمان فان كثيراً ممن ينطقون الشهادتين بألسنتهم يفعلون الجرائم الكبيرة ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤) فلا بد أن يكون الايمان حاضراً في وجدانه وقلبه وقائداً له في سلوكه وقناعاته فيستشعر حقيقة أن الله تعالى حاضر معه ومطلع على أفعاله بل على خواطره وأفكاره ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (العلق: ١٤) ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد: ٤) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (الأنفال: ٢٤) وإن العباد راجعون الى الله تعالى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦) ﴿إِنِّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعِي﴾ (العلق: ٨) ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٧-٢٨) وان الله تعالى سيبعث العباد في يوم القيامة ويحاسبهم على أفعالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء بعقوبات تقشعر منها الأبدان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۖ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَىٰ

النَّاسُ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١﴾ (الحج: ٢٠) ﴿١﴾
 فان هذا الخوف من الله تعالى واستحضار الرقابة الإلهية سيردعه.

وينبغي الالتفات الى أن الطاعة المبنية على الخوف من العقاب هي ادنى مراتب العلاقة مع الله تعالى، وأعلى منها أن يوظف قواه وغرائزه لطاعة الله تعالى حباً لله تعالى وشكراً له سبحانه على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، فنفعل ما يحبه وإن لم يكن الفعل واجباً نعاقب على تركه، ونتجنب ما يكرهه وإن لم يكن العمل حراماً يُعاقب فاعله ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ﴿١﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٨﴾ (الانسان: ٨-٩) ﴿٩﴾ وقد قيل في الحكمة (إن المحب لمن أحب مطيع).

روى الشيخ الكليني (رحمه الله) في الكافي بسند معتبر عن أبي بصير عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (كان رسول الله (ﷺ) عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله: لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة، افلا أكون عبداً شكوراً^(١)).

٢- الاصغاء الى صوت العقل ونداء الفطرة السليمة غير الملوثة ومن مجموعهما يتشكل الضمير والوجدان الذي يهتز فرحاً وحماساً عند فعل الخير، وحزناً وألماً عند حصول الشر فيشعر بوخز الضمير عند ارتكاب الخطأ لردعه عنه وهي إثارات النفس اللوامّة. هذا الضمير الحي الذي جعله النبي (ﷺ) معياراً للتمييز بين الخير والشر وإن قيل لك خلاف ذلك قال (البرُّ ما اطمئن اليه

(١) الكافي: ٢/٧٧/ح ٦.

النفس، والبرُّ ما اطمأن به الصدر، والإثم ما تردّد في الصدر، وجال في القلب، وإن افتاك الناس وافتوك^(١).

فقد جعل الله تعالى العقل والفطرة هاديين للإنسان الى ما هو الصحيح ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (الروم: ٣٠) ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة: ١٣٨).

ورد في وصية الإمام الكاظم (عليه السلام) لهشام بن الحكم (ان الله تعالى على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، واما الباطنة فالعقول)^(٢) وقال الإمام الصادق (عليه السلام) (حجة الله على العباد النبي، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل)^(٣)

ويعترف أهل النار بأن سقوطهم لأنهم لم يصغوا الى صوت العقل ونداء الفطرة، قال تعالى على لسان أهل النار ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ٢٠) وفي الحديث، عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال (ما استودع الله عبداً عقلاً الا استنقذه به يوماً)^(٤)، فلنحافظ على العقل والفطرة نقيين طاهرين ولا نلوثهما ولنصنع لندائهما.

(١) وساءل الشيعة: ٢٧ / ١٦٦ ح ٣٩.

(٢) أصول الكافي: ج ١ / كتاب العقل والجهل / ح ١٢.

(٣) أصول الكافي: ج ١ / كتاب العقل والجهل / ح ٢٢.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي: ٥٦ / ح ٤٨.

وقد عرّف الحديث الشريف عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) العقل بأنه (ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان)^(١) اما استعماله في غير ذلك فإنه يخرج عن عنوانه ويصبح مكرراً ودهاءاً وشيطنة ففي نفس هذا الحديث سأله الراوي (قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النكراء تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل).

٣- التفات الإنسان الى كرامته التي وهبه الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠) وقيمة نفسه^(٢) وأنها أعلى شيء ولا تقدر بثمن وقد وصفها الله تعالى بأسمى الصفات قال تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحٍ﴾ (الحجر: ٢١) فلا يليق به أن ينزل بها الى مستوى البهائم ولا ثمن لها الا نيل رضوان الله تبارك وتعالى والجنة قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (أنه ليس لأنفسكم ثمن الا الجنة فلا تبيعوها الا بها)^(٣) وقال (عليه السلام) (العارف من عرف نفسه فأعتقها ونزهها عن كل ما يعدها ويوبقها)^(٤) وقال (عليه السلام) (هلك امرؤ لم يعرف قدره)^(٥) فلا يمكن أن يخسرها باتباع شهوة أو اشباع غريزة حتى لو كانت عظيمة كنييل زعامة ورئاسة أو شهرة عالمية أو كثرة اتباع ونحو ذلك فإن هذه كلها أوهاام لا تلبث ان تزول ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١٧) وفي هذا يقول أمير

(١) الكافي: ج ١/ ص ١١.

(٢) راجع تفصيل هذه الفكرة في خطاب المرحلة: ١٠٢/١٢.

(٣) نهج البلاغة: ج ٤، ص ١٠٥.

(٤) غرر الحكم: ١٧٨٨، ١٩٨٥.

(٥) نهج البلاغة: حكمة ١٤٩.

المؤمنين (عليه السلام) قال تعالى (من كرمته عليه نفسه هانت عليه شهوته) ^(١) وروي عنه (عليه السلام) قوله (قبيح بذى العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنساناً) ^(٢) وقال (ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً) ^(٣).

ويحذر الإمام الصادق (عليه السلام) من تضييع النفس بالانجرار وراء الشهوات والمطامع، أو اتباع الزعامات غير الجامعة للشروط، أو الانخداع بالدعوات الضالة من دون تثبت، لأنه إذا قضى عمره على هذا المنوال فلا يعطى فرصة أخرى للتدارك قال (عليه السلام) (اتقوا الله وانظروا لأنفسكم، فإن أحق من نظر إليها أنتم، لو كان لأحدكم نفسان فقدّم أحدهما وجرب بها، استقبل التوبة بالأخرى ولكنها نفس واحدة إذا ذهبت فقد والله ذهبت التوبة) ^(٤).

٤- العلم والمعرفة والتفقه في أمور الدين، فبدونها يتخبّط الانسان ولا يميز بين الحق والباطل، وبين ما يجوز فعله وما لا يجوز، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (العلم رأس الخير كله، والجهل رأس الشر كله) ^(٥) وعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (إن قلباً ليس فيه شيء من العلم كالبيت الخراب الذي لا عامر له) ^(٦)، وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله (من أراد التجارة فليتفقه في دينه ليعلم بذلك ما

(١) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ج ٢٠ / ص ٩٩، حكمة ٤٥٨.

(٢) آثار الذنوب، الشيخ محسن قرائتي: ١٩٠.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٣٢.

(٤) وسائل الشيعة: ٥٣/١٥، أبواب جهاد العدد، باب ١٣/ ح ١٠.

(٥) بحار الأنوار: ١٧٧ / ١٧٥ ح ٩.

(٦) أمالي الشيخ الطوسي: ٥٤٣/ ح ١١٦.

يحلُّ له مما يُحرّمُ عليه، ومن لم يتفقه في دينه ثم اتجرَّ تورّط في الشبهات^(١) والتحذير لا يختص بالتجارة وانما سائر فعاليات الحياة، اذ لكل عمل فقهه وأحكامه التي لا يجوز تجاوزها، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (إن قلوب الجهال تستفزها الاطماع وترتهنها المنى وتستغفلها الخدائع)^(٢) وقال (عليه السلام) (لا يرى الجاهل الا مُفرطاً أو مفرطاً)^(٣)، والعلم وحده لا يكفي مالم يهذب به نفسه ويطهر به قلبه، انظر مثلاً الى ما يحكيه القرآن عن أحد علماء بني إسرائيل الكبار حيث بلغ منزلة ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ لكنه لم يهذب بها غريزة الأنا والشهوات ولم يستفد من علمه ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الأعراف: ١٧٥-١٧٦).

ثانياً: العوامل الخارجية التي تضبط سلوك المجتمع:

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الرقابة الاجتماعية وهي وظيفة عظيمة تميزت بها الأمة الإسلامية ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠) فجميع أفراد الأمة مسؤولون عن تقويم حركتها وإصلاح اخطائها ومعالجة مشاكلها، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧٦) روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله في حديث (إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تقام

(١) وسائل الشيعة: ١٧ / ٣٨٢.

(٢) أصول الكافي: ج ١ / كتاب العقل والجهل / ح ١٦.

(٣) بحار الأنوار: ١ / ١٥٩ / ح ٣٥.

الفرائض، وتأمين المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض،
وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر^(١) وروي عن النبي (ﷺ) قوله (لا تزال
أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البر والتقوى، فاذا
لم يفعلوا ذلك نزعنا منهم البركات، وسلطنا بعضهم على بعض، ولم يكن لهم
ناصر في الأرض ولا في السماء)^(٢).

٢- قوانين العقوبات:

فان كثيراً من الناس لا يمتلكون وازعاً إيمانياً أو عقلياً، ولا يستجيبون لداعي
الأمر والنهي، ولا تردعهم الأمور المتقدمة فيرتكبون القبيح، ولكنهم يخافون من
العقوبات فقط كالسجن وأمثاله، وهذا هو الذي يضبط سلوك أكثر الناس في
الغرب وليس عوامل ذاتية صالحة، لذا تجد الفوضى تحصل عندهم بمجرد غياب
القانون كما حصل ويحصل في أوقات الكوارث أو عند انقطاع الكهرباء، فتشريع
القوانين المنظمة للحقوق والواجبات والتي تحدد العقوبات على المخالفين أمر
ضروري لردع المتجاوزين والخارجين على القانون.

ومن هنا فقد تسالم العقلاء على ضرورة وجود حكومة تحفظ النظام
الاجتماعي العام وتوفر للناس الأمن والخدمات العامة وتيسر معاش العباد ونحو
ذلك، وتنظم الحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع لضرورة وقوع التزام
والتدافع بين أهواء الناس ومشترياتهم ونزوعهم إلى التوسع في تحصيل الثروات
وحرية التصرف وتلبية الشهوات والغرائز ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾

(١) وسائل الشيعة: ١٦ / ١١٩، أبواب الأمر والنهي، باب ١ / ح ٦.

(٢) وسائل الشيعة: ١٦ / ١٢٣ / ح ١٨.

(القيامة: ﴿٥٠﴾) فلا يكتفي بما صدر منه بل يريد ان يفعل ما يشاء في مستقبل أيامه أيضاً فيمتد بعضهم على حساب بعض قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (فَأِنَّهُ لَا بَدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ)^(١) فان كانت السلطة عادلة فهو المطلوب وبها يحفظ الدين ففي علل الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (عليه السلام) (انه لو لم يجعل لهم إماماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملة)^(٢) وان لم تكن السلطة عادلة ففي وجودها المصالح التي ذكرناها، وفي كلمة لأمير المؤمنين (عليه السلام) قال (والِ ظُلُومٍ غَشُومٍ خَيْرٌ مِنْ فِتْنَةٍ تَدُومٍ)^(٣) وروى بعض العامة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (إِنَّ اللَّهَ يَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ)^(٤).

٣- نشر الوعي الفكري والأخلاقي لزيادة بصيرة المجتمع بحيث تكون الثقافة السائدة في المجتمع مبنية على الأهداف النبيلة والوسائل النزيهة ومثل هذا المجتمع يساعد افراده في توجيه ميولهم نحو الصواب ويجعل من المعيب ممارسة الفعل الخاطيء حتى على مستوى القاء النفايات في الشارع العام أو عدم الالتزام بالإشارات المرورية فضلاً عن قبول الرشوة أو تخريب الممتلكات العامة أو التقصير في خدمة الناس وحينئذ لا يجد الفرد صعوبة في مسايرة هذا الجو العام وعدم الخروج عليه فان الثقافة العامة والسلوك الجمعي مؤثران في سلوك الفرد، وقد قيل (الناس يميلون مع كل ريح) وكان السيد الشهيد الصدر الثاني (تذتت)

(١) نهج البلاغة: ٨٧/١ بشرح محمد عبده/ الخطبة ٤٠.

(٢) علل الشرائع: ٩٥/١، باب ١٨٢/ح ٩.

(٣) الغرر والدرر ٢٣٦/٦، ح ١٠٩.

(٤) شرح السير الكبير: ١٦٩/١ وأورد مضمونه في الفتوحات المكية: ٤٨٤/٤.

يقول لتكن ريح الحوزة - أي الدين - هي الأقوى حتى تميل الناس معها.

٤- توسيع الشعائر الدينية وانتشار المساجد والمشاعر الدينية وإقامة الفعاليات المتنوعة فإنها تخلق بيئة تهذب ميول الإنسان ولا تبقى مجالاً لاستثارة شهواته وغرائزه والتجارب تشهد بذلك فان كثيراً من الناس يمتلكون شجاعة وقوة لمقاومة النظرة المريبة والسلوك غير النظيف في أجواء شهر رمضان أو محرم أو خلال المسيرة الأربعينية، بما لا يجدونه في غيرها، وقد جرب العراقيون كيف ان إقامة السيد الشهيد الصدر الثاني (قده) لصلاة الجمعة أدت الى انحسار الجريمة بنسبة ٨٠ بالمئة في المدن التي تقام فيها بحسب احصائيات الشرطة، لأنها وفّرت البيئة المساعدة على الطاعة وأصبح فعل المعصية يلاقي استهجاناً عاماً واستغراباً.

وإذا أردنا تقييم هذه العوامل من حيث قوة التأثير فإنها متفاوتة ، ولاشك ان الايمان بالله تعالى يقف على رأسها، إذ ان العوامل الخارجية يغيب تأثيرها عندما يكون الانسان في خلوة ولا يجد رقابة عليه كالذي فعلته امرأة العزيز ﴿وَعَلَّقَتْ الأَبْوَابَ﴾ (يوسف: ١٣) وكذا تضعف العوامل الذاتية عندما تغطي الغريزة وتشتد الشهوة، ولا يبقى رادع الا الاستعاذة بالله تعالى وطلب العصمة منه، ولا يوجد ضامن لصالح الناس مثله، وقد اعترف زعيم الإلحاد مؤخراً بأننا اذا عزلنا الدين عن حياة الناس فسنخسر الكثير مما يردع الناس عن فعل الشر، لذا علينا تعزيز الإيمان في النفوس وتقويته من خلال وسائل مؤثرة فاعلة ذكرناها في مناسبات

شتى ومنها قيس ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١) حيث عددنا مقومات كون العمل حسناً بل أحسن.

وقد روى لنا التاريخ الإسلامي مواقف سامية للتحكم في الغرائز لم يربها أي شيء سوى التعلق بالله تعالى كالذي روي عن زوجة ابي طلحة الانصاري - وهو ممن شهد العقبة وبدراً وأحداً والمشاهد كلها - وكانا من خيار الأنصار فقد مرض ولدهما وكان أبو طلحة يتعاهده كلما يرجع الى الدار فمات الولد اثناء خروجه فأخفته في زاوية الدار ولما عاد أبو طلحة وسألها عنه قالت: دعه فإنه قد هدأ واستراح فسُرَّ أبو طلحة وآوى الى فراشه ومكثته من نفسها، فلما أصبح قالت: يا أبا طلحة: رأيت قوماً أعارهم بعض جيرانهم عارية فاستمتعوا بها مدة ثم استرجع العارية أهلها فجعل الذين كانت عندهم يبكون عليها لاسترجاع أهلها إياها من عندهم ما حالهم؟ قال: مجانين، قالت: فلا نكون نحن من المجانين، إن ابنك هلك فتعزَّ بعزاء الله وسلِّم اليه وخذ في جهازه.

فأتى أبو طلحة النبي (ﷺ) فأخبره الخبر فتعجب النبي (ﷺ) من أمرها ودعا لها وقال: اللهم بارك لهما في ليلتهما فحملت من تلك الليلة من أبي طلحة بعبد الله، فلما وضعته لفته في قماش وأرسلت به الى النبي (ﷺ) فحنكه ودعاه وكان من أفضل أبناء الأنصار^(٢) وقد كان عبدالله بن ابي طلحة موالياً للأمير المؤمنين (عليه السلام) وشهد معه صفين.

(١) راجع قيس قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٥)

في تفسير من نور القرآن.

(٢) الكنى والألقاب للشيخ عباس القمي: ١٥٤/١، عن شرح الأخبار ٢٦/٢.

والمثال الآخر ما رواه في كتاب عيون المعجزات قال (استأذن إبراهيم الجمال على أبي الحسن علي بن يقطين الوزير فحجبه، فحج علي بن يقطين في تلك السنة فاستأذن بالمدينة على مولانا موسى بن جعفر فحجبه، فرآه ثاني يومه فقال علي بن يقطين: ياسيدي ما ذنبي؟ فقال: حجبتك لأنك حجبت أخاك إبراهيم الجمال وقد أبى الله أن يشكر سعيك أو يغفر لك إبراهيم الجمال، فقلت: سيدي ومولاي من لي بإبراهيم الجمال في هذا الوقت وأنا بالمدينة وهو بالكوفة؟ فقال: إذا كان الليل فامض إلى البقيع وحدك من غير أن يعلم بك أحد من أصحابك وغلمانك واركب نجيباً هناك مسرجاً قال: فوافى البقيع وركب النجيب ولم يلبث أن أناخه على باب إبراهيم الجمال بالكوفة فقرع الباب وقال: أنا علي بن يقطين فقال إبراهيم الجمال من داخل الدار: وما يعمل علي بن يقطين الوزير ببابي؟! فقال علي بن يقطين: يا هذا إن أمري عظيم وآلى عليه أن يأذن له، فلما دخل قال: يا إبراهيم إن المولى أبى أن يقبلني أو تغفر لي، فقال: يغفر الله لك فآلى علي بن يقطين على إبراهيم الجمال أن يطاء خده فامتنع إبراهيم من ذلك فآلى عليه ثانياً ففعل، فلم يزل إبراهيم يطاء خده وعلي بن يقطين يقول: اللهم اشهد، ثم انصرف وركب النجيب وأناخه من ليلته بباب المولى موسى بن جعفر بالمدينة فأذن له ودخل عليه فقبله^(١).

وإذا أردنا المزيد من المواقف العظيمة في ضبط الغرائز وتهذيبها فإن معركة كربلاء حافلة بفصول سامية منها، فالإمام الحسين (عليه السلام) يتخلى عن حياة الرفاهية والدعة والجاه الاجتماعي الواسع لدى الأمة ويقدم على الشهادة بنفسه

(١) بحار الأنوار: ٤٨ / ٨٥ / ح ١٠٥.

وولده وأهله وأصحابه وسبي عياله خير نساء الدنيا لأن نفسه الكريمة أبت الذلّة
في غير طاعة الله تعالى، وفي ذلك يقول السيد حيدر الحلبي (رحمه الله تعالى)

وسامته يركب إحدى اثنتين وقد صرّت الحرب أسنانها
فإما يرى مذعناً أو تموت نفس أبى العز إذعانها
فقال لها اعتصمي بالإبا فنفس الأبى وما زانها^(١)

وأبو الفضل العباس (عليه السلام) يصل الى ماء الفرات وقلبه يتفطر من العطش
ويمدّ يده الى الماء ليشرب لكنه يرمي الماء من يده مواساة للإمام ابي عبد الله
(عليه السلام) ولو فعل لما لامه أحد لأنه يتقوى به على الأعداء لكنه آثر الكمال
والتسامي عما تريده النفس.

والحر الرياحي تنازل عن القيادة العسكرية وامتيازاتها والموضع المقرّب من
السلطة ليلحق بركب الشهادة بين يدي ابي عبد الله الحسين (عليه السلام) مؤثراً لآخرفته
على دنياه.

وفي المقابل وجدت نماذج سيئة اطاعت شهواتها وغرائزها فقادت مبولها التافهة
نحو الهلاك كعمر بن سعد قائد الجيش الأموي الذي أغراه ملك الري فأقدم على
قتل ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولم يحصل منه على شيء، أو عبيد الله بن الحر الجعفي
الذي دعاه الإمام الحسين (عليه السلام) الى نصرته وتحصيل الفوز والسعادة الا انه أخذ
الى الأرض واتبع هواه وطمع في السلامة فتخاذل وحاول إرضاء الإمام بالتبرع
بفرسه لكن الإمام (عليه السلام) أبى وقال اما وقد بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في

(١) الدر النضيد: ٣١٢.

شيء من مالك^(١).

(١) مقتل الحسين (عليه السلام) لأبي مخنف ص ٧٣، انظر الإرشاد للمفيد ٢ / ٨١-٨٢.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾

موضوع القبس: البصيرة بوصلة السلوك الإنساني

تبين الآية واحدة من وظائف الأنبياء والرسل والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) ومن تبعهم وحمل رسالتهم من العلماء العاملين الرساليين، وهي الدعوة الى الله تبارك وتعالى قولاً وفعلاً وعرض المشروع الإلهي على الناس واقناعهم به وهدايتهم.

وتبين الآية أيضاً واحدة من مميزات هؤلاء القادة وخصائصهم التي تميزهم عن غيرهم من الزعامات وتُعرِّف الأمة كيف يفرزون قياداتهم الحققة عن طلاب الدنيا ولو بأسم الدين.

وهذه الخصوصية هي الصراحة والشفافية مع الأمة ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ وامتلاك الرؤية الثاقبة والنظر الدقيق ووضوح الأهداف وآليات العمل لديه المعبر عنها في الآية بـ (البصيرة) وهي البوصلة التي ترسم المسار الصحيح للإنسان في كل حركاته وسكناته، وهذه البصيرة من الله تعالى والى الله تعالى، وما دام على بصيرة من ربه فلا تخبط في مسيرته ولا تناقض في أهدافه ولا تحركه الشهوات والانفعالات ولا تؤثر عليه هتافات الناس ولا تزويق المتزلفين ولا تخدعه المكائد والحيل وهذا لا يُدرك إلا بلطف الله تعالى.

والبصر والبصيرة أصلهما واحد وهي النظر والرؤية المدركة المنتجة للعلم

والمعرفة وليست كل رؤية ونظر قال تعالى ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦) فهم كالحيوانات لها عيون تنظر بها لكنها لا تفيدها علماً ولا معرفة، عن النبي (ﷺ) قال (ليس الاعمى من يعمى بصره، إنما الاعمى من تعمى بصيرته)^(١).

وكم من حالة او موقف ينظر اليه كثيرون لكن القليل ممن ينظر اليه بفكر واعتبار وتأمل ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٧٦) وإن كانت مفتوحة وينظرون بها الى الأشياء، وإنما يستفيد مما حوله في الحياة من كان له بصرٌ وبصيرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: ١٣) وليس لكل من لديه عين ينظر بها، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (بالاستبصار يحصلُ الاعتبار)^(٢).

والفرق بين البصر والبصيرة ان الأول بالعين والثانية بالقلب والعقل فقوله تعالى ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على حجة بينة واضحة من ربي ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٣).

واضافة ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ اليه (ﷺ) تشریف لهم بالحاق دعوتهم بدعوته المباركة، وأعلى مراتب البصيرة التامة ما عند المعصومين (عليهم السلام) لذا فإنهم القدر المتيقن من قوله تعالى ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ وفي أصول الكافي بسنده عن أبي جعفر

(١) كنز العمال: ١٢٢٠.

(٢) غرر الحكم: ٤٣٥١.

(عَلَيْهِ) في تفسير هذه الآية قال: (ذاك رسول الله ﷺ) وأمير المؤمنين (عَلَيْهِ) والاولياء (عَلَيْهِ) من بعدهما^(١).

فهؤلاء القمم من أهل البصائر هم من يجب اتباعهم والأخذ عنهم ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس: ٢٥).

ثم تتفاوت مراتب البصيرة عند اتباعهم (صلوات الله عليهم أجمعين) في حمل الرسالة المباركة والدعوة الى الله تعالى بحسب درجة تقواهم وقربهم من الله تعالى وبحسب نقاوة فطرتهم وسلامة عقولهم وتفكيرهم وطهارة نفوسهم وقلوبهم ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤)، فهذه باختصار المقتضيات الذاتية أي من نفس الانسان لتحصيل البصيرة وتهيئة الانسان نفسه لها وهي (التقوى، طاعة الله تعالى، نقاء الفطرة، سلامة العقل والفكر، طهارة النفس والقلب).

وخير وسيلة لتحصيل البصيرة التدبر في القرآن الكريم ومعرفة آياته، وقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بهذا، قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِجَفِيظٍ﴾ (الأنعام: ١٥٦) وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢١٣) وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ٢٣) وقال تعالى: ﴿بَصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٢٣)، وروي عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ) قوله (بالهدى يكثر

الاستبصار^(١).

ومن أهم وسائل تنوير البصيرة مراقبة النفس وإصلاح عيوبها وأخطائها، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (أبصر الناس من أبصر عيوبه وأقلع عن ذنوبه)^(٢)، وعنه (عليه السلام) قال (ألا وإن أبصر الأبصار ما نفذ في الخير في طرفه، ألا إن أسمع الأسماع ما وعى التذكير وقبلة)^(٣).

ومن موجبات البصيرة الاستفادة من المواعظ والعبر وتذكر أيام الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٤٣).

لذا لا نستغرب ممن فقد هذه الأدوات لتحصيل البصيرة وتنويرها أن يضل بنفس القرآن الكريم الذي هو زاد المستبصرين، ويستعمل القرآن نفسه لإضلال الناس وصر فهم عن اهل البصيرة، روي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوْنَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٤٢) بسنده عن عمر بن الخطاب قال: كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) مجتمعين وأنا أعرف الحزن في وجهه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! قلت: يا رسول الله! إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا قال ربنا؟ قال: أتاني جبريل آنفاً فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قلت: أجل، إنا لله وإنا إليه راجعون، فمم ذاك يا جبريل؟ قال: إن أمتك مفتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، فقلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون، قلت: ومن أين

(١) غرر الحكم: ٤٨١٦.

(٢) غرر الحكم: ٣٠٦١.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة/١٠٥.

يأتيهم ذلك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون ويتبع القراء أهواء الأمراء فيمدون في الغي ثم لا يقصرون، قلت: يا جبريل؟ فبم سلم من سلم منهم؟ قال: بالكف والصبر، إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه^(١).

لقد عانى النبي (ﷺ) والأئمة (عليهم السلام) من فقدان البصيرة لدى أكثر الناس ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: ١٢٣) وابتلي أمير المؤمنين (عليه السلام) بحرب أناس يحوطون بالجمل ويتبركون بخروجه ويشمونهم ويقولون ما أطيب ريح روث جمل أمنا أم المؤمنين، وابتلي (عليه السلام) بقتال أناس في صفين لا يفرقون بين الناقة والجمل ويصدقون كل شيء يقال لهم وإن علياً لا يصلي، ومثل هؤلاء الاقوام من فاقد البصيرة موجودون في كل زمان ومكان يُبتلى بهم القادة المصلحون ويكونون عقبة كؤود في طريقهم.

ولذا كان الأئمة (عليهم السلام) يشكون من ندرة أهل البصيرة في اتباعهم، ففي الحديث المعروف لأمر المؤمنين (عليه السلام) مع كميل (يا كميل بن زياد إن هذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا) الى أن قال (عليه السلام) (إن ههنا لعلماء جماً - وأشار إلى صدره - لم أصب له خزنة^(٢) بلى أصيب لقنا غير مأمون، مستعملا آلة الدين في طلب الدنيا، يستظهر بحجج الله على أوليائه وبنعم الله على معاصيه أو منقادا لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، اللهم لا

(١) الدر المنثور للسيوطي: ٦٣٣/٣.

(٢) من هنا يصنّف (عليه السلام) أنواع الناس الى أربعة أصناف غير جديرين بحمل علمه (عليه السلام).

ذا ولا ذاك، أو منهوما باللذة سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين ولا من ذوي البصائر واليقين^(١).

إن أوضح ما يميّز الاتباع الحقيقيين للنبي (ﷺ) وآله الكرام (عليهم السلام) أنهم على بصيرة من امرهم ومنهم أبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين (عليه السلام) فمما خاطبه به الإمام الصادق (عليه السلام) في زيارة وارث المعروفة قوله (وأنتك مضيت على بصيرة من امرك مقتدياً بالصالحين ومتبعاً للنبين)^(٢) وهكذا كان أصحاب ابي عبد الله (عليه السلام) المستشهدين بين يديه يشهد بذلك العدو قبل الصديق، فقد روى أصحاب التواريخ والمقاتل انه لما كثرت المبارزة بين أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) وجيش يزيد وكان النصر لأصحاب ابي عبد الله، صاح عمرو بن الحجاج الزبيدي (يا حمقى أتدرون من تقاتلون؟ فرسان المصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين لا يبرزنّ لهم منكم أحدٌ، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم)^(٣). وهكذا إذا كنا صادقين في موالاتنا للإمام الحسين (عليه السلام) ونصرتنا له (ونصرتي لكم معدّة)^(٤) (يا ليتنا كنا معكم)^(٥) وصادقين في انتظار اماننا المهدي الموعود (عليه السلام) والمشاركة في بناء دولته المباركة فعلينا أن نستزيد من البصيرة في علاقتنا مع ربنا، وهذا ما ورد في أدعية الغيبة وتعجيل الظهور، وفي احدها

(١) نهج البلاغة (من كلامه (عليه السلام) لكميل بن زياد).

(٢) مفاتيح الجنان: ٥١١.

(٣) مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: ١٥/٢.

(٤) مفاتيح الجنان: ٥٤٤-٥٠١.

(٥) مفاتيح الجنان: ٥٤٤-٥٠١.

(وارزقنا مرافقة اوليائك ووليك الهادي المهدي الى الهدى وتحت لوائه وفي زمرة شهداء صادقين على بصيرة من دينك إنك على كل شيء قدير)^(١).

فقدان البصيرة سمة المجتمع غير الإيمانى:

يستفاد من القرآن الكريم أن من سمات المجتمع البعيد عن التربية الإيمانية هو فقدان البصيرة والقدرة على تمييز الحق من الباطل، وانقلاب موازين النظر عنده في الأمور كلها.

ولنأخذ مثلاً على ذلك حيث نجد المجتمع الجاهلي البعيد عن النظرة الإلهية يعيش لندياه ويراهما غاية أمله فيصارع من أجل الاستزادة منها ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجنانية: ٢٤).

لكن المجتمع الرباني يعتقد بوجود الآخرة ويعمل لها لأنها الحياة الباقية، ويرى الحياة الدنيا مزرعة، قال تعالى ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

والمورد الآخر اغترارهم بما عندهم من قوة وإمكانات مادية هائلة فيظنون أنهم الرب الأعلى المدبر لأمر الناس ﴿وَقَالُوا بَعِزَّةٌ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ﴾ (الشعراء: ٤٤).

أما المنطق الرباني فيؤكد حقيقة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨) و﴿إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (البقرة: ٢٦٥)

(١) البحار: ٣٠٢/٩٨، عن اقبال الاعمال والبلد الأمين والتهذيب.

ويصف أولئك المغرورين بأنهم ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٧).

التحذير من فقدان البصيرة:

وقد حذر رسول الله (ﷺ) أمته من الرجوع إلى هذه الحالة بعد أن أنقذهم الله تعالى بالإسلام، ووقعهم مرة ثانية في فتنة فقدان البصيرة وإنقلاب موازين النظر في الأمور واعتبرها (ﷺ) الحالة الأشد خطورة من وقوع المنكر والفساد نفسه، ففي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: قال النبي (ﷺ): كيف بكم إذا فسدت نساءكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ ف قيل له: ويكون ذلك يا رسول الله (ﷺ)؟ فقال: نعم وشرُّ من ذلك كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ ف قيل له يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم وشرُّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً^(١).

تصحيح المفاهيم المقلوبت:

وقد وقعت الأمة في هذه الفتنة بعد رسول الله (ﷺ) وبلغت ذروتها في عهد يزيد بن معاوية، ولهذا كان من الأدوار المهمة التي أدتها ربية القرآن والنبوة والإمامة العقيلة زينب (عليها السلام) هي إعادة الأمة إلى وعيها وبصيرتها، وتصحيح موازين النظر عندها، ولتأخذ مثلاً على ذلك جانباً من خطابها، فقد كان يزيد وابن زياد وأزلامهم يعتقدون أنهم هم المنتصرون فأخذتهم سكرة الغلبة ونشوتها كما

(١) وسائل الشيعة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي، باب ١ ح ١٢.

وصفتهم العقيلة زينب (فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا)^(١).
وتصبح مشكلة المفاهيم المقلوبة أخطر حينما تُستغل لخداع الناس وتُجعل دليلاً على شرعية حكم أولئك الطواغيت وسلطتهم، وهذا ما نبّهت إليه العقيلة زينب (صلوات الله عليها) (أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نَساق كما تُساق الإمامة أنّ بنا على الله هوناً وبك عليه كرامة!! وأنّ ذلك لعظيم خطرِكَ عنده، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله عز وجل ﴿وَلَا يَجْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران: ﴿١٧٨﴾)^(٢).

السيدة زينب (عليها السلام) تبين من هو المنتصر الحقيقي:

فهي (سلام الله عليها) لم تكتفِ بالإدلاء بحقيقة أنّ هذا ملكنا وسلطاننا خاصة ونحن أحقّ بالأمر من هذا الظالم المدّعي، ولكن فضحت هذه الأساليب لخداع الناس وأيقظتهم بأنّ هؤلاء المتسلّطين ليسوا هم أصحاب الحق، ولا يزال إلى اليوم من يموّه على الناس ويكتسب شرعيته من كثرة الأتباع وشهرة العنوان وإغداق الأموال لفرض الأمر الواقع وإقناعهم بأنّ سلطته شرعية وإبعاد الحق عن أهله.

فتواجه العقيلة زينب الطاغية يزيد بالحقيقة الدامغة وبيان المنتصر الحقيقي

(١) الاحتجاج: ج ٢/ ص ١٢٣، والبحار: ج ٤٥/ ص ١٥٧.

(٢) الاحتجاج: ج ٢/ ص ١٢٣، والبحار: ج ٤٥/ ص ١٥٧.

(فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحون ذكرنا، ولا تميت وحيناً، ولا تدرك أمدنا، ولا ترخص عنك عارها. وهل رأيتك إلا فند، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة وآخرنا بالشهادة)^(١).

ووقفت نفس الموقف في الكوفة أمام الطاغية عبيد الله بن زياد حينما قال شامتاً: (الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأبطل أحدوشتكم). فتصدت له بشجاعة وبلاغة أخذتهما من أبيها أمير المؤمنين (عليه السلام) قائلة: (الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه، وطهرنا من الرجس تطهيراً، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا يا بن مرجانة).

وحاول أن يغطي فشله وهزيمته بمزيد من الشماتة قائلاً: (كيف رأيت صنع الله بأخيك) فأجابت (سلام الله عليها): (ما رأيت إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلح يومئذ، ثكلتك أمك يا بن مرجانة)^(٢).

هكذا أعادت العقيلة زينب الأمور إلى نصابها وبيّنت من هو المنتصر الحقيقي وهزمت هؤلاء الطواغيت وجيوشهم الجرارة التي غلبت بالسيف لكنّها هُزمت بالبيان والحجة الدامغة فقلبت أفراحهم أحزاناً.

(١) انظر: الاحتجاج: ج ٢/ ص ١٢٣، والبحار: ج ٤٥/ ص ١٥٧.

(٢) المصدر السابق.

علينا أن نستفيد من الدرس الزيني:

وعلينا نحن أن نستفيد من هذا الدرس الزيني ونصحح جملة من المفاهيم والرؤى والنظريات التي أريد بها خداع الناس وتسييرهم بالاتجاه الذي يريده أصحاب تلك الأجندات الهدامة، ولناخذ على ذلك مثالا من عالم المرأة مما حاولوا به خداعها ودفعوها إلى ما يريدون من الانحلال والفساد ومزاحمة الرجال وترك وظيفتها الأساسية في بناء الأسرة الصالحة وتنشئة الجيل الصالح وهو شعار (المساواة).

أبواق المساواة بين الرجل والمرأة:

فهل المساواة مطلب عقلائي؟ وتعبير آخر هل إن المساواة حق دائماً؟ والجواب هو النفي، نعم إذا كان المطلوب مساواة الرجل والمرأة بالاستحقاق والجزاء فهذا حق وقد كفله الشارع المقدس ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٥١) ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) سواء كان ذكراً أو أنثى.

فلسفة التمايز بين الرجل والمرأة:

أما إذا أرادوا بالمساواة مماثلة المرأة للرجل في الوظائف والأعمال التي يؤديانها فهذا مطلب غير عقلائي، بل فيه ظلم للمرأة، لأن طبيعة خلقها وفسولوجيتها وسايكولوجيتها تنسجم مع وظائف غير ما كلف به الرجل، فالمساواة هنا من الظلم وليس من العدالة، ومثله كمثل الطبيب الذي يعطي نوعاً واحداً من الدواء إلى مرضى متنوعين، وكالمدرّس الذي يعطي درجة واحدة

لكل طلبته في الامتحان مع تفاوت إجاباتهم، وهذا هو الظلم بعينه والمطلوب تحقيق العدالة وهي قد تقتضي المساواة وقد لا تقتضي المساواة بحسب الموارد وهذا ما كفلته الشريعة المقدسة، فلو أعطينا للولد ميراثاً بقدر البنت لكان ظلماً، لأن الرجل هو الذي يصرف على المرأة ويكفل لها كل احتياجاتها فهي تشاركه في حصته، ولا يشاركها في حصتها فكيف يتساويان في الاستحقاق.

فهذه المراعاة لتكوين كل من الرجل والمرأة وطبيعة وظائفهما مما تقتضيه الفطرة، وجرت عليه سيرة العقلاء، ويشهد به الواقع وخذ نماذج عشوائية من تركيبة مجتمعات الغرب المدعية للتحرر وانظر هذه المراعاة، كتشكيلة الحكومة أو عدد الطيارين أو عدد قادة الوحدات العسكرية وقيادات الجيش وانظر نسبة النساء إلى الرجال ستجدها ضئيلة فأين المساواة التي يريدون تسويقها إلينا؟

مصطلح سن اليأس:

وبهذه المناسبة نشير إلى مصطلح متداول يخص المرأة وهو ((سن اليأس)) الذي يراد به عمر الخمسين للمرأة وتسمى المرأة باليائس، وهو قد يكون له منشأ صحيح حيث يحصل فيه اليأس من الإنجاب لانقطاع الدورة الشهرية، إلا أنّ هذا العنوان أخذ على إطلاقه وكأنه سن اليأس من الحياة، مما وُلد شعوراً عندها بالإحباط وفقدان الأمل وأنها أصبحت لا قيمة لها وانتهى دورها في الحياة وأحيلت على التقاعد كما يُقال، فتعثرها أعراض نفسية وعصبية قد تفاقم المشكلة عليها، وهذه الأعراض ليس لها أصلٌ فسيولوجي أو عضوي كما يشهد به الأطباء، أي أن بلوغ المرأة هذا العمر لا يصاحبه أي تغيير في جسمها يقتضي هذه الأعراض، وإنما هي نتائج صنعتها المرأة بنفسها بسبب ذلك الشعور الذي غذاه

المصطلح البائس.

فالأليق أن يُسمى هذا العمر للمرأة (سن الكمال والنضج وتمام الرشد) لاكمال تجربة المرأة في الحياة بعد أن تكون قد ربّت جيلاً كاملاً وتعلّمت الكثير، وهو سن التفرغ لنفسها ولآخرتها ولزوجها بعد أن انتهت من وظائف الحمل والإنجاب والتربية، وشبّ أبنائها وبناتها فهم يعينونها على قضاء حوائجها فهذا العمر فرصة ثمرة لكي يجتمع الزوجان من جديد على حياة زوجية يتفرغان لبعضهما ويلتفتان لآخرتهما وينشغلان لما يقربهما إلى الله تعالى من الطاعات والقربات مما لم تكن مشاغلها السابقة تسمح لهما بها، كالسفر لأداء الحج والعمرة وزيارة المعصومين (صلوات الله عليهم) والصلاة المستحبة والصوم وقضاء ما فات ومطالعة الكتب، والمساهمة في الأعمال الخيرية والتبليغ الديني والوعظ والإرشاد وغيرها من فرص الكمال.

القيس ٩٦/

سورة الرعد: ﴿١١﴾

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(١)

موضوع القيس: الملائكة الحارسة

معنى التعقيب:

التعقيب هو ان يأتي شيء بعد شيء ويتلوه كتعقيب الصلاة بالدعاء والذكر بعدها مباشرة، وأستعير للولد وولد الولد فسُموا اعقاباً لانهم يتلون ابائهم ويخلفونهم، قال تعالى ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ (الرعد: ﴿١١﴾) اي لا يوجد من يملك حق المراجعة والنظر في حكم الله تعالى وفعله ومعارضته والغائه، وهي جملة خبرية تنبئ عن هذه الحقيقة، وبنفس الوقت تفيد انشاء النهي عن الخوض في البحث عن علة التشريعات والجدوى منها وحكمتها اذا لم يرد بها بيان شرعي كالنهي عن الخوض في القدر والذات الالهية.

والاعتقاب: ان يتعاقب شيء بعد آخر كاعتقاب الليل والنهار، فالمعقبات^(٢)

(١) كلمة القاها سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) يوم الجمعة ١٥/ذح/١٤٣٥ هـ- الموافق ١٠/١٠/٢٠١٤م تزامناً مع احتفال المسيحيين الكاثوليك بعيد الملائكة الحارسة.

(٢) هذا ما اردنا بيانه من وجوه تفسير الآية، ويمكن أن يكون معناها ان هذه الملائكة تتعقب الانسان وتحفظ عليه كل شيء حتى لحظات العيون وخطرات الظنون، فيكون الضمير في (له) يرجع للإنسان ويكون قوله تعالى ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ متعلقاً بالمعقبات وليس بـ(يحفظونه) بل تكون كلمة (يحفظونه) كالبیان التوضيحي وإلا فان كلمة معقبات كافية للدلالة على هذا المعنى، وهذا المعنى لعله انسب

في الآية ملائكة تتعاقب على العبد حافظة له، وهي جمع مفردة معقبة، ومعناها الجماعة التي تتعاقب او انها صيغة مبالغة من معقب كالعلامة او البحّثة او الرحّالة.

الرحمة الغيبية:

فالآية تبين لنا حقيقة غائبة عنا ولا نستطيع ان ندركها بأبصارنا وحواسنا لأنها من عالم الغيب، وتعدُّ من نعم الله تعالى على عباده التي لم يُلتفت اليها، وهي ان له تعالى عند كل احد ملائكة تتعاقب عليه في جميع اوقاته لتحفظه بأمر الله تعالى من امر الله الذي قضى بجريان السنن والقوانين التي تحكم عالم الموجودات أن تؤثر فيه، كما ان الله تعالى يغلب رحمته بأمره تبارك وتعالى على عدله الذي هو من امره تعالى (يامن سبقت رحمته غضبه)^(١).

ومن هذا القبيل ما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) انه كان جالساً الى جدار آيل للسقوط ثم قام عنه لثلا يسقط عليه فقيل له: يا امير المؤمنين (عليه السلام): أتفرُّ من

بسياق الآيات السابقة ويوحد مرجع الضمائر ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿(سورة الرعد: ٨-١١)﴾، وقد ورد هذا المعنى في آيات اخرى كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الانفطار: ١٧-١٣)﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ (الأنعام: ٦١) وعملها في طول قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ (سبأ: ٦١)﴾، لان الملائكة موصوفون بانهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢١)﴾.

قضاء الله ؟ قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ) (أفر من قضاء الله إلى قدره عز وجل) (١).

في جريان القضاء والقدر:

اي ان الله تعالى قضى ووضع قوانين كلية تسيّر هذا الكون كاقضاء السقوط من شاهق الى الارض تكسر العظام والموت، او اقتضاء الغرق في الماء انقطاع النفس والموت، الا ان يتخذ التدابير المانعة من ذلك، او يمتنع اصلاً من المضي في هذه الافعال، فالقوانين المؤثرة هي قضاء الله تعالى، اما قدره فهو تحقيق اسباب جريان هذه القوانين والانسان هو الذي يختار هذا الطريق او ذاك وعندئذٍ يقدر الله تعالى له ما يشاء بحسب المقدمات التي يختارها بنفسه.

يحفظونه من أمر الله:

وفي رواية عن الإمام الباقر (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يفسر فيها قوله تعالى يحفظونه من امر الله قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ) (بأمر الله، من ان يقع في ركي - وهي البئر - او يقع عليه حائط او يصيبه شيء حتى اذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه، يدفعونه الى المقادير، وهما ملكان يحفظانه بالليل، وملكان بالنهار يتعاقبانه) ومثله (٢) حديث عن الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وفي نهج البلاغة عن امير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) (ان مع كل انسان ملكين يحفظانه فاذا جاء القدر خلّيا بينه وبينه).

هذه الحقيقة يستطيع ان يدركها الفطن الواعي ببصيرته ووجدانه عندما يلتفت الى احتمالات الخطر والضرر المحيطة به من لدن تكوّنه حملاً في بطن امه

(١) توحيد الصدوق: ص ٣٦٩.

(٢) راجعها في تفسير البرهان: ١٩٤/٥.

وبعد ولادته ونموه طفلاً صغيراً وفي كل مراحل حياته، فلو فكر في حصول خلل ما في تركيب جسمه ووظائف أعضائه او عندما يركب الطائرة او السيارة او يمارس عملاً معيناً ثم يتصور ما يمكن ان يحصل له فانه يصاب بالذهول والرعب وانهايار الاعصاب لكن الله تعالى سخر الملائكة المتعاقبة لتدفع عنه كل تلك الاحتمالات ويستمر في حياته ويعمر طويلاً، بل قد يتعرض فعلاً لحوادث خطيرة ثم يخرج منها سالماً معافى.

الحفظ المعنوي:

وينبغي الالتفات ايضاً الى الحفظ المعنوي - اذا صحّ التعبير - وذلك من خلال تأثير الملائكة الحافظة في الدعوة الى فعل الطاعة وتزوينها وترغيب الانسان فيها، وتجنب المعصية وتكرهها للانسان وهو ما يسمى بالتوفيق واللفظ الذي يجريه الله تعالى على ايدي ملائكته، وقد يكون الامر اكثر من ذلك بان تهيب له موضوع الطاعة كأن تجعله يلتقي بشخص محتاج ليساعده او تأتي به الى مكان ليستمتع موعظة مفيدة تنفعه او يذهب باتجاه معين ثم يحس بداخله ما يدعوه الى تغيير مساره فيجد نفسه انه قد ازداد حسنة او اجتنب سيئة، وبالمقابل تجنبه موارد المعصية وتحول بينه وبينها او تُوجد موانع لارتكابها، حتى لو ارتكبها فان تلك الملائكة تمنع حصول تداعيات وآثار سلبية لها عليه.

في الحديث عن رسول الله (ﷺ) قال: (للمؤمن اثنان وسبعون سترًا فاذا اذنب ذنباً انتهك عنه ستر، فان تاب رده الله اليه وسبعة معه، وان ابي الا قدماً قدماً في المعاصي تهتك استاره، فان تاب ردها الله اليه ومع كل ستر منها سبعة، فان ابي الا قدماً قدماً في المعاصي تهتك استاره، ويبقى بلا ستر واوحى الله تعالى الى

ملائكته ان استروا عبدي بأجنتكم)^(١).

فهذه الملائكة مؤكّله من قبل الله تعالى بحفظ الانسان من جريان القوانين الطبيعية التي اودعها الله تعالى في الكون على خلاف مصلحته وخيره رحمة وفضلا من الله تعالى فالإنسان أعجز من ان يواجه وحده كل تقلبات الكون وأحداثه وحوادثه والعوامل المؤثرة فيه وهي كلها من أمر الله تعالى.

درسان مستفادان من الآية:

ونستطيع الان ان نستخلص من الآية درسين مهمين في حياة الانسان:

١- تطمينه من قبل الله تبارك وتعالى بأن مع كل انسان من يحفظه ويرعاه ويدفع عنه كل ما لا يلائم صلاحه، فلا داعي الى القلق والمخاوف والهواجس المرعبة مما يحصل في المستقبل القريب او البعيد، هذا القلق الذي تعاني منه الشعوب في الغرب رغم توفر اسباب الترف والحياة المنعمة وتؤدي ببعضهم الى الانتحار ليتخلص بزعمه من هذا الرعب والخوف ولو التفت الى هذه الحقيقة القرآنية لاطمأن بوجود رب شفيق رحيم ودود يرعاه ويخصص ملائكة لحفظه ورعايته.

٢- في الآية تكريم عظيم للإنسان من خالقه بأن يجعله اداة تنفيذ عملية الاصلاح وتحقيق السعادة التي يريدتها الله تعالى لخلقه، وتدعوه الى أن يتحمل بنفسه مسؤولية التغيير ولا يترك الأمر للعوامل الخارجية لكي تتصرف في البشر وتنتهي الى نتائج خارجة عن اختياره، لان الله تعالى كلف الملائكة بأن تمنع

(١) بحار الانوار: ٦٣ / ٧٣.

من هذه التأثيرات.

دوام حفظ الملائكة بالأعمال الصالحة:

فلإنسان باعتباره عاقلاً مختاراً دور في هذه العملية فيستطيع ادامة عمل هذه الملائكة الحفظة بان يلح في الدعاء مثلاً او يتصدق فيدفع البلاء او ينشئ المؤسسات النافعة أو ينشر العلوم المثمرة والأخلاق الفاضلة أو يقوم بأعمال صالحة فيكفر عن سيئاته التي تجلب له السوء، وقد يعرقل عمل هذه الملائكة الحفظة ويجعلها ترفع يدها عنه كما لو قطع رحمه فتسبب في تقصير عمره، او ارتكب من الذنوب ما ينزل النقم او تسلب النعم او تحبس الدعاء ونحو ذلك، او ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فتسبب في تسلط الاشرار، بحسب ما افادته الآيات الشريفة.

لذلك جاء في تكملة الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) فالمعقبات الحفظة ليس عملهم مطلقاً غير مشروط ولا محدود بل هو مطلق لكل الناس الى مقدار معين ثم يكون مشروطاً باختيار الانسان حتى لا يتساوى المحسن والمسيء، وحتى تظهر آثار من أحسن عملاً، وعاقبة من اساء عملاً على كيانهما ووجودهما، في مجمع البيان عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في تفسير الآية قال (انهم ملائكة يحفظونه من المهالك حتى ينتهوا به الى المقادير فيخلون بينه وبين المقادير)^(١) وفي هذه الحقائق ردّ على من قال بحتمية التاريخ أو الجبر ونحو ذلك من النظريات السالبة لدور الانسان في التغيير.

(١) مجمع البيان - الطبرسي: ١٩/٦.

عيد الملائكة الحارسة لدى الكاثوليك:

مما يجدر ذكره ان المسيحيين الكاثوليك يحتفلون يوم ٢:١٠ بعيد الملائكة الحارسة ونقلت المواقع الالكترونية عن بابا الفاتيكان فرانسيس قوله في قداسه اليومي في الكنيسة الصغيرة الملحقة بمقر اقامته في الفاتيكان (ان هناك ملائكة حارسة، وإن العقيدة الخاصة بالملائكة ليست من صنع الخيال بل هي واقع، وبحسب تقليد الكنيسة فنحن جميعاً لدينا ملاك معنا يحمينا ويساعدنا على فهم الاشياء) وأضاف (ان لا أحد يقطع رحلة الحياة بمفرده ويجب الا يعتقد أحد أنه وحيد) وتساءل موضحاً هذه الحقيقة (كم من المرات سمعنا: عليّ أن افعل هذا وعليّ ألا أفعل ذلك فانه ليس صائباً وكن حذراً، نسمع ذلك في احيان كثيرة، إنه صوت ملاكنا الذي يرافقنا).

وأشار الى مدخلة اختيار الانسان في هذه الحقيقة بقوله (ان احتمالات اتخاذ قرارات خاطئة تكون اقل بين الاشخاص الذين يستمعون الى نصائحها) لذلك أقترح على المشككين أن يسألوا أنفسهم (كيف هي علاقتي مع ملاكي الحارس؟ هل استمع اليه؟ هل اقول له صباح الخير؟ هل أطلب منه ان يحرسني اثناء نومي) واسئلته هذه طبعاً تنطلق من المستوى الذي يراه للعلاقة مع ربّه أو مع الملائكة.

واعتقد انه بذلك يرّد بشكل غير مباشر على الذين يبلغ بهم الجزع في الحوادث المؤلمة الى حد إنكار وجود هذه الملائكة الحافظة او انكار وجود الله عز وجل أصلاً، ومثال الاول سلفه البابا بنديكتوس السادس عشر الذي أصر عام ٢٠١٢م على نفي وجود ملائكة تنشُد خلال ميلاد السيد المسيح - بحسب تعبيره -

ومثال الثاني كبير اساقفة كانتربري جاستن ويلبي الذي يتزعم ٨٠ مليون شخص ينتمون الى المذهب الانجليكي المسيحي في العالم فقد كشف في لقاء^(١) مع الصحافية لوسي تيغ للبي بي سي (انه يشك احياناً بوجود الله ويتساءل لماذا لم يتدخل العلي القدير لمنع الظلم) وروى ما خطر بباله حين كان يركض ذات صباح مع كلبه مؤخراً وقال (قبل ايام كنت ابتهل اثناء الركض وانتهى بي المآل الى مخاطبة الرب: أنظر! إن هذا كله أمر حسن ولكن ألم يحن الوقت لأن تفعل شيئاً إذا كنت موجوداً؟) لكنه استدرك واعترف بعجزه وقال: (نحن لا نستطيع أن نفسر كل المسائل في العالم، لا نستطيع أن نفسر ما يتعلق بالمعاناة، لا نستطيع أن نفسر كثيراً من الاشياء) وحين سئل عما يفعله في مواجهة تحديات الحياة أدعى (انه يدعو المسيح ان يساعده وهو يلتقطني)، وأظن ان شكوكه هذه ناشئة من القلق والرعب الذي يسودّ الغرب بعد أن قويت شوكة الارهاب وانخرط فيه الالاف من مواطنيهم ممّا يشكل تهديداً خطيراً لبلدانهم.

الحل القرآني:

أقول: لقد حل القرآن الكريم كل هذه الاشكالات وأجاب عن التساؤلات لان الملائكة الحافظة موجودة وتؤدي عملها للجميع إلا ان الانسان بسوء اختياره يوقف مساعدتها له في مرحلة معينة بمعاصيه وذنوبه فيجّر على نفسه البلاء، رغم كثرة ما يغفر الله تعالى من الذنوب.

(١) نشر اللقاء على المواقع الإلكترونية في شهر ٩ / ٢٠١٤.

قال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠)، إلا ان سُنّة الامتحان لا بد أن تمضي فيكافأ المُحسن على احسانه والمسيء على أساءته وإلا ستكون المساواة بينهما عين الظلم، ولناخذ امثلة من واقعهم، مثلاً تجري منافسات على كأس العالم فتفوز دول وتخسر اخرى فيحزن جمهورها ويبكي وقد ينتحر بعض المتعصبين، فهل يصح ان نقول ان من الظلم السكوت عن هذه الالام وعلينا ان نعطي كأس البطولة لجميع الدول حتى لا يتألم احد.

ونفس الشيء يحصل لطلبة الجامعات والمدارس ولا يوجد عاقل يطالب بمساواة الجميع واعطائهم كلهم درجات النجاح لكي لا يتألم احد، وهذا ما خفي على اسقف كانتربري والتفت اليه بابا الفاتيكان وطلب من الناس اتباع نصائح الملائكة الحارسة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

موضوع القبس: التغيير يبدأ من داخل الانسان والمجتمع

يُؤَصِّلُ هذا المقطع من الآية الكريمة لقاعدة أساسية في التغيير على صعيد الفرد والمجتمع، بأنه يبدأ من داخل النفس ومن داخل المجتمع ولا يكفي فيه وجود العوامل الخارجية، والتغيير مطلق سواء كان ايجابياً نحو الأفضل أو تغييراً سلبياً نحو الأسوأ، فلا يصلح حال الأمة ويتحسن الا اذا حافظت على سلامة مسيرتها ونواياها وعالجت نقائصها ونقاط ضعفها وتردّدها ولا تنتظر التغيير من الخارج فانه حتى لو حصل فانه لا يحقق النتائج المرجوة اذا لم يقترن بالتغيير الداخلي^(١).

وهكذا على صعيد الفرد فانه ما لم يمتلك الإرادة والعزيمة والمقدمات الصالحة فان ألف واعظ ومرشد ومصلح لا ينفعه في شيء.

هذا في اتجاه التكامل والرقى، وكذا في اتجاه الانحطاط والتسافل فانه لا يحلّ به الشقاء وتزول عنه النعم التي كان يرفل بها من الصحة والأمان والغنى والسعادة وغير ذلك الا بعد ان يضعف هو من الداخل وتتغير أهدافه ونواياه وافكاره، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنْ

(١) ومثال ذلك ما حصل في العراق عندما أطاحت جيوش الاحتلال الأمريكي بنظام صدام المقبور عام ٢٠٠٣م والتداعيات الخطيرة التي حصلت بعده.

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا ﴿الأعراف: ٦٦﴾.

وهناك آية أخرى أشارت إلى جانب التغيير نحو الشقاء والتعاسة وزوال النعم فقط، قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٥٣) هذا مع ملاحظة ان الله تعالى ﴿يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (المائدة: ٥٥) ولا يؤاخذ الناس بكل ما كسبوا كما هو واضح من ختام الآية المباركة.

في الحديث القدسي الذي يروى عن رسول الله (ﷺ) قال (يقول الله وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهته من معصيتي ثم تحولوا إلى ما أحببت من طاعتي الا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي، وما من أهل بيت ولا قرية ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتي ثم تحولوا منها إلى ما كرهت من معصيتي الا تحولت لهم عما يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)^(١).

ان الآية تقرّر أيضا مبدئاً إنسانياً مهماً وهو احترام إرادة الانسان وحرية في تقرير مصيره وجعله محور التغيير مهما كانت العوامل الخارجية مؤثرة فاذا اساء الاختيار - كما لو لم يمنح صوته لمن يستحق في الانتخابات - فلا يلوم الان نفسه لان النتيجة المؤلمة التي وصل اليها كانت مقدماتها بيده وله القدرة على تغيير النتائج والتأثير فيها، ولم يقع شيء اعتباطاً أو مصادفة ونحو ذلك فلا يحاول الفرد

أو الأمة ان تبرّر تعاستها وشقاءها بعوامل خارجية وسوء الحظ وتغفل عن دورها فيه.

وحينما ندعوا الله تبارك وتعالى (اللهم غير سوء حالنا بحسن حالك)^(١) فلا بد ان نلتفت إلى هذه الحقيقة فان اللطاف الإلهية الخاصة لها أسباب أمر الناس بالسعي لتحصيلها (إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا له)^(٢).

وقد ورد في بعض الاحاديث الشريفة ان ثلاثة لا يستجاب دعائهم لان الله سبحانه وتعالى جعل المخرج بأيديهم فلم يستفيدوا منه، فقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) في الثلاثة الذين يرد دعائهم عليهم قال (رجل رزقه الله عز وجل مالا فأنفقه في وجوهه ثم قال: يا رب ارزقني فيقول الله عز وجل اولم ارزقك، ورجل دعى على امرأته وهو ظالم لها فيقال له: ألم اجعل امرها بيدك، ورجل جلس في بيته وترك الطلب ثم يقول: يا رب ارزقني فيقول الله عز وجل ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب للرزق)^(٣) وقلت في حديث سابق^(٤) ان الحديث يمكن ان يشمل حالات اخرى كثيرة كمطالبة الشعب بتخليصهم من السياسة الجائرة لبعض الحكام وهم من مكنوهم من رقابهم في الانتخابات وكانت عندهم فرصة تغييرهم لو احسنوا الاختيار.

(١) من الادعية اليومية في شهر رمضان المبارك.

(٢) كنز العمال: ح ٢١٣٢٤ / ح ٢١٣٢٥.

(٣) الخصال للصدوق: ١٢٣، باب الثلاثة، ح ٢٠٨.

(٤) خطاب المرحلة: ج ٥ / ص ٣٩١، رقم الخطاب ١٩٨، بعنوان الشعب غير معذور إذا لم يختار الكفوئين المخلصين.

وان اقوى عاملين مؤثرين في إحداث عملية التغيير في الفرد والمجتمع هما القيادات الدينية والسياسية كما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ (صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي، قيل: يا رسول الله، ومن هما؟ قال (صلى الله عليه وسلم): الفقهاء والأمرأء)^(١).

وقد شرحنا في مناسبة سابقة كيفية هذا التأثير وتقدم تأثير القيادة الدينية على السياسية^(٢)، والواقع والتجربة يثبتان ذلك، وعلينا نحن الحوزة العلمية بكافة تشكيلاتها - علماء وفضلاء وخطباء وأئمة جماعة وجمعات - ان نشكر الله تعالى على التوفيق للكون بهذا الموقع الذي بيده فرص واسعة للدعوة إلى الله تعالى وإصلاح الناس، علينا ان نعي مسؤولياتنا وخطورة دورنا ونسعى للقيام به على أحسنه بإذن الله تعالى.

ملحق: كيفية تغيير الواقع الفاسد

لا بد من السعي:

من الأدعية المستحبة في كل يوم من شهر رمضان الدعاء الذي اوله (اللهم أدخل على أهل القبور السرور) ويتضمن عدة فقرات جليلة، أحبت التوقف عند أحدها وهي (اللهم أصلح كل فاسد من أمور المسلمين)^(٣)، ومن الواضح أن إصلاح الفساد لا يتحقق بمجرد ترديد هذه الكلمات وان كان في نفس قراءة

(١) الخصال: ٣٢، باب الاثني: ح ١٢.

(٢) راجع مقدمة كتاب (المعالم المستقبلية للحوزة العلمية).

(٣) مفاتيح الجنان: ٢٢٩.

الادعية ثواب وان الدعاء مخّ العبادة كما في بعض الاحاديث، لكن بعض المطالب تحتاج الى سعي كمن يريد الرزق الحلال لا يكفيه أن يردد: (اللهم ارزقني) بل عليه أن يسعى في منابها ويتغني من فضل الله تعالى، ومن يريد الذرية الصالحة عليه أن يتخذ زوجة صالحة، وهكذا، الا اذا شاء الله شيئا بدون ذلك كولادة عيسى (عليه السلام) من غير أب.

كيف نصلح أحوال المسلمين؟

فإصلاح الفساد في أحوال المسلمين وهكذا فقرات الأدعية لا بد لكل منها من سعي يناسبها ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩)، فكيف نصلح أحوال المسلمين الفاسدة التي لا تسرّ الصديق ويشفق لها العدو، ولم تبق حرمة إلا انتهكت، وماذا علينا أن نفعل لتحقيق هذا الغرض؟

يجيب عن ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حديث رواه عنه الشيخ الصدوق في الخصال يحدد فيه سبب فساد أحوال المسلمين وصلاحهم، قال فيه: (صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي، قيل: يا رسول الله، ومن هما؟ قال (صلى الله عليه وسلم): الفقهاء والأمرأء) (١).

عندما نعالج الفساد من رأسه:

فالصالح والفساد في أمور المسلمين يرجع إلى طريقة أداء هذين الصنفين وصفاتهم الذاتية، فنفس الجهة التي يأتي منها الفساد يأتي منها الصلاح، لذا قيل:

(١) الخصال للشيخ الصدوق: باب الاثني، ح ١٢.

(لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال) أي علينا أن نشخص الجهة المسؤولة عن الفساد فتبدأ عملية الصلاح من هذه الجهة، فمثلاً التكفير وما تتبعه من القتل الوحشي والتدمير الشامل بدأ من فتاوى علماء التكفير فإذا أرادوا محاربة الجماعات الإرهابية التكفيرية حقيقة فعليهم أن يبدأوا بهؤلاء المشرّعين لفتاوى التكفير فيصلحون عقولهم ويظهرون قلوبهم من اغلال التعصب والحق والانانية ويعيدوا تقييم تاريخهم والاشخاص الذين يقدسونهم ممن أسسوا لهذه الثقافة، وستتغير الأمور عندما يلتفتون الى القيادة الصالحة الحقّة التي ربّت الامة على رفض التكفير، روي عن الإمام علي (عليه السلام) انه سئل عن الذين خرجوا على إمامته الحقّة وقتلوه: (أمشركون هم؟ قال: من الشرك فرّوا، فقالوا: أمانفون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً قيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم بغيهم علينا)^(١) مشيراً الى الآية الكريمة ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ (الحجرات: ٩).

كما أن هذه الكلمة (لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال) يمكن فهمها على أساس الأدوات أي أن نفس الأداة التي سببت الفساد كالتلفزيون أو القوانين الظالمة المخالفة للشريعة أو مناهج التعليم علينا أن نصلحها لتساهم في صلاح الامة.

لا بد في الإصلاح من علاج البيئة المنتجة للفساد:

ويمكن ان نفهم هذه الكلمة على اساس الحالات والاوضاع التي انتجت

(١) البداية والنهاية: ٣٠٠/٧.

الفساد فنعالجها كالفقر أو الجهل أو التخلف أو العصبية، أو الاستبداد السياسي أو الانهيار الاقتصادي أو عدم الامن والاستقرار فاذا اريد نشر الهدى والصلاح فلا بد من اصلاح هذه الاوضاع والبيئة المنتجة، قال تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ٢٥-٢٦).

ومحل الشاهد أن صلاح الأمة يكون بصلاح هذين الصنفين كما أن فسادهما بفسادهما.

معنى فساد العلماء:

أما الصنف الأول فقد بينت الروايات أن فساد العلماء لا يتمظهر بشرب الخمر وممارسة الزنا ونحو ذلك فانهم لا يفعلون ذلك حفاظاً على مكانتهم الاجتماعية وإنما بحبهم الدنيا والتعلق لأهلها والصراع على الجاه والزعامة ومجاملة اهل الباطل وكتمان الحق والبغي والحسد والتكبر والتعالي وتغليب انانياتهم والتخلي عن مسؤولياتهم في اقامة الدين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمْ رَبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة: ٦٤) وعدم الانفتاح على الناس والاستماع الى همومهم وقضاء حوائجهم ومساعدتهم وانصافهم فيما لهم وما عليهم، روى الإمام الصادق (عليه السلام) عن امير المؤمنين (عليه السلام) قوله من حديث (اعرفوا.. اولي الامر بالامر بالمعروف والعدل الاحسان)^(١) فاذا تخلى العلماء عن مسؤولياتهم اصبحت الامة خاوية روحياً وميته معنوياً وفاقدة البصيرة والرشد يتلاعب بها الاشرار،

(١) اصول الكافي: كتاب التوحيد: ٥١ باب انه لا يُعرف الا به، توحيد الصدوق: ٢٨٦.

وتوجد شواهد كثيرة من التاريخ لفساد تسبب فيه العلماء، فالإمام الحسين (عليه السلام) قتل بفتوى وعاظ السلاطين الذين أفتوا بجواز محاربة الإمام (عليه السلام) لأنه خرج على ولي الامر^(١)، والإمام الجواد (عليه السلام) قتل بتحريض من قاضي قضاة الدولة العباسية ابن ابي داوود^(٢) للمعتصم بعد اخذه برأي الإمام (عليه السلام) في قطع يد السارق.

معنى فساد الأمراء:

أما الصنف الثاني، فمما لا يحتاج إلى بيان دور الزعامات السياسية في فساد البلاد من خلال الاستئثار بالمال العام واعتبار ما يقع تحت يده غنيمة، وهدره.

في امور عبثية ومشاريع وهمية وتغليب المصالح الشخصية على المصالح العامة وسوء التخطيط والإدارة بالاعتماد على ناس غير مؤهلين وانشغال البلاد والعباد بصراعاتهم السياسية، وإن كل الكوارث التي حلت بالبلاد هي نتيجة هذه الصراعات على المغنم والامتيازات حتى وإن ألبست بعناوين دينية أحياناً. وهؤلاء الحكام لم يصلوا إلى مواقعهم إلا بدعم وتأيد جمع من الناس

(١) وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه. إن الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء أنظر: تاريخ ابن خلدون: ٢١٧/١.

(٢) قاضي بغداد محمد بن احمد بن ابي داوود أبو الوليد الايادي القاضي (تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ٣١٣/١).

سواء من خلال الإدلاء بأصواتهم لهم في الانتخابات أو بنصرتهم وتمكينهم من السلطة في الانقلابات العسكرية وإدامة حكمهم وسلطتهم، أو بأي نحو وصلوا به الى السلطة ولو تخلى الناس عنهم والتفوا حول الصالحين الأكفاء لما وصل حال المسلمين إلى هذه الدرجة التعيسة، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (لولا أن بني أمية وجدوا لهم من يكتب ويجبي لهم الفياء ويقا تل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلا ما وقع في أيديهم)^(١).

الذنوب التي تسبب تسلط الأشرار:

فهذه هي المسؤولية المباشرة المنظورة التي يتحملها الناس إزاء هذا السبب من الصلاح والفساد، لكن الروايات دلّت على ان بعض الذنوب والتقصيرات هي العلل الحقيقية لتسلط الأشرار والفاستدين والظالمين، فنّبها المعصومون (عليهم السلام) لها حتى نمنع أصل تسلطهم وتسلّمهم الحكم، ولا نصل إلى مرحلة تمكّنهم من الحكم والسلطة ثم نفكر في كيفية إصلاح الحال، أي أن الإصلاح يكون على طريقة (الوقاية خير من العلاج)، وإزالة الاسباب من أصلها ومن تلك الذنوب والتقصيرات المسببة لتسلط الأشرار والفاستدين:

١- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد روي في الكافي والتهذيب عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهّنّ عن المنكر، أو

(١) وسائل الشيعة: كتاب التجارة/ ابواب ما يتكسب به/ باب ٤٧، ح ١.

ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم^(١).
 وروى الشيخ المفيد في المقنعة والطوسي في التهذيب^(٢) عن النبي (ﷺ) قال: (لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر والتقوى، فإذا لم يفعلوا ذلك انتزعت منهم البركات وسلط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء).

٢- عدم الاستفادة من توجيهات العلماء العاملين: روي عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: (سيأتي زمان على الناس يفرّون من العلماء كما يفرّ الغنم من الذئب، فإذا كان ذلك ابتلاهم الله بثلاثة أشياء: الأول يرفع البركة من أموالهم والثاني سلّط الله عليهم سلطاناً جائراً والثالث يخرجون من الدنيا بلا إيمان)^(٣).

٣- إفراغ الدين من مضمونه الحقيقي والاكتفاء بالشكليات الظاهرية منه، وتخلّي علماء الدين والربانيين عن مسؤولياتهم الحقيقية وهذا شكل من اشكال فساد العلماء الذي يؤدي الى فساد الأمة، في حديث عن النبي (ﷺ) قال: (سيأتي على أمتي زمان لا يعرفون العلماء إلا بثوب حسن ولا يعرفون القرآن إلا بصوت حسن، ولا يعبدون الله إلا في شهر رمضان، فإذا كان كذلك سلّط الله عليهم سلطاناً لا علم له ولا حكم له ولا رحم له)^(٤).

إذن فتردي أخلاق الامة وضعف همتها وانحدار مستوى الوعي لديها سبب

(١) وسائل الشيعة: أبواب الأمر والنهي، باب ١، ح ٤، ١٨.

(٢) المقنعة- الشيخ المفيد: ٨٠٨- تهذيب الأحكام- الشيخ الطوسي: ١٨١/٦.

(٣) بحار الأنوار: ٤٥٤/٢٢، عن جامع الأخبار: ١٢٥-١٢٦، ف ٢٢.

(٤) بحار الأنوار: ٤٥٤/٢٢، عن جامع الأخبار: ١٢٥-١٢٦، ف ٨٨.

لتصدي هذين الصنفين الفاسدين، وفسادهما يؤدي الى مزيد من الفساد في احوال الامة .
لذا اشتهرت الكلمة المعروفة (كما تكونون يولى عليكم)^(١)، فصلاح احوال
المسلمين يبدأ من اصلاح انفسهم وتمسكهم بدينهم وزيادة وعيهم في اختيار قياداتهم
الدينية والسياسية وحينئذ تنصلح امورهم وتتغير احوالهم نحو الافضل بأذن الله تعالى.

(١) كنز العمال - المتقي الهندي: ١٨٩/٦ ح ١٤٩٧٢.

﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾

موضوع القبس: لا يدقق بعضكم في محاسبة البعض الآخر

لا يمكن أن يتصور أمثالنا - ونحن حيسو الدنيا المادية - حقيقة سوء الحساب وحالاته وأوصافه إلا بمقدار ما تتحمله أفهامنا من كلام الله تعالى والمعصومين (سلام الله عليهم)، وقد أعد سوء الحساب حقيقة للذين أعرضوا عن ربهم ولم يلتزموا بالمنهج الرباني، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (الرعد: ١٨) ويعرف بعض الوان هذا الحساب من آية مماثلة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٦)، وقد روى الطبرسي في مجمع البيان في معنى سوء الحساب عن أبي عبد الله (عليه السلام): (هو أن لا يقبل منهم حسنة ولا يغفر لهم سيئة)^(١) لأن هؤلاء حبطت أعمالهم.

ما المراد من سوء الحساب الذي يخافه المؤمنون؟

لكن هذا المعنى لسوء الحساب قد لا يتلاءم مع سياق الآية التي نحن

(١) مجمع البيان: ٤٤٢/٦، تفسير البرهان: ٢٠٥/٥.

بصددها لأنها تصف قوماً على مستوى عالٍ من الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ • الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ • وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (الرعد: ١٩-٢١).

فما المراد بسوء الحساب الذي يخافه هؤلاء وهم بهذه الدرجة من الإيمان، يشرح لنا الإمام الصادق (عليه السلام) وجهاً للمراد، فقد روي بسند معتبر عن حماد بن عثمان في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (الرعد: ٢١) قال: (دخل رجل على أبي عبد الله (عليه السلام) فشكا إليه رجلاً من أصحابه، فلم يلبث أن جاء المشكوك، فقال له أبو عبد الله (عليه السلام): ما لفلان يشكوك؟ فقال له: يشكوني أنني استقضيت^(١) منه حقي، قال: فجلس أبو عبد الله مغضباً، ثم قال: كأنك إذا استقضيت حقلك لم تسيء؟! رأيت ما حكى الله عز وجل في كتابه: ﴿يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ أتري أنهم خافوا الله أن يجور عليهم أو يظلمهم؟ لا والله ما خافوا إلا الاستقصاء، فسماه الله عز وجل: ﴿سُوءَ الْحِسَابِ﴾ فمن استقصى فقد أساء^(٢).

(١) أي طلبت منه أن يقضي حقي، وفي معاني الأخبار وتفسير القمي (استقضيت) أي بلغ بالمسألة النهاية في طلبها، وهو الأقرب لمضمون الرواية.

(٢) الكافي: ١٠٠/٥، ح ١، تفسير القمي: ٣٦٣/١، ومعاني الأخبار: ٢٤٦، وتفسير البرهان: ٢٠١/٥، وفي المعاني: (ولكنهم خافوا الاستقصاء والمدافعة) أي الحساب بدقة.

التدقيق في التعامل:

أقول: يظهر من الرواية أن سوء الحساب الذي يخافونه هو التدقيق في التعامل بمقتضى العدالة والمقابلة بالمثل فيحسب الحسنات والسيئات كما هي، ففي تفسير العياشي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في سوء الحساب قال: (أن تحسب عليهم السيئات وتحسب لهم الحسنات وهو الاستقصاء)^(١)، ولذا ورد في الأدعية أن الله تعالى إذا عاملنا بعدله هلكننا (ومن عدلك مهربي)^(٢) (ولا تعاملني بعدلك بل بفضلك)^(٣)، وفي الدعاء عند الصعود على الصفا والمروة عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (اللهم لا تفعل بي ما أنا أهله، فإنك إن تفعل بي ما أنا أهله تعذبني ولن تظلمني، أصبحت أتقي عدلك، ولا أخاف جورك فيا من هو عدل لا يجور ارحمني)^(٤).

الدرس العملي:

والدرس العملي الذي نستفيد منه هنا أننا كما نسال الله تعالى أن لا يدقق معنا في الحساب وأن يعاملنا بفضله وكرمه ونخاف من المداقة في الحساب، علينا أن نتأدب بهذا الأدب الإلهي في تعاملاتنا فإن سوء الحساب يعني المطالبة باستيفاء الحق كاملاً غير منقوص من دون مراعاة لما يحسن فعله بلحاظ حالة الطرف

(١) تفسير العياشي: ٢١٠/٢

(٢) مفاتيح الجنان: ٣٣٦، ضمن دعاء عرفة

(٣) موسوعة العقائد الإسلامية - الريشهري: ١١٢/٥

(٤) وسائل الشيعة: ٤٧٨/١٣ باب ٤، استحباب الصعود على الصفا حتى يرى البيت، ح ٣.

الآخر وظروفه وإمكانياته، لذا سُمِّيَ أخذ الحق في بعض^(١) الحالات عدواناً عندما يكون الأليق هو التسامح والعفو والتكرم، والعدوان هو التجاوز والقيام بما ينافي الفعل الذي يناسب صدوره منه على ذلك الحال قال تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤)، فكان المرجو والفعل اللائق بناءً على هذا التفسير هو تعامله بالعفو والصفح كما أمر تعالى، فكان ما يخالفه عدواناً أي تجاوزا للمتوقع منه وإن كان محقاً.

وهو أحد وجوه تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤١) فسمي الرد على السيئة بمثلها سيئة، مع أن مقتضى العدالة المقابلة بالمثل.

وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ

وقد حثنا الله تبارك وتعالى على أن نتعامل بيننا - كماخوة مؤمنين - بهذا الأسلوب، قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٣٧)، أي لا تنسوا معاملة الآخرين بالفضل والتسامح في كل المعاملات والعلاقات ففي الحديث الشريف عن رسول الله (ﷺ) قال: (رحم الله عبداً سَمِحاً إذا باع، سَمِحاً إذا اشتري، سَمِحاً إذا قضى، سَمِحاً إذا اقتضى)^(٢) ولما كان الجزاء يوم القيامة منسجماً مع سلوك الإنسان وعمله

(١) وليس مطلقاً لأن العقوبة والرد بالمثل والحزم مطلوب أحياناً للردع والاستقامة والاصلاح.

(٢) بحار الانوار: ١٠٣/٩٥/ح ١٧، كنز العمال: ٩٤٥٣، ميزان الحكمة: ١/٤٩٣.

في الدنيا، فإن كان متسامحاً في تعامله مع الناس حوسب باليسر والكرم، وإلا شدد عليه مقاصدة له لأنه التزم بهذه الطريقة من التعامل في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ • فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَاباً يَسِيراً • وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ (الانشقاق: ٧-٩) وفي مقابلهم أصحاب الشمال ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَدَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْرًا﴾ (الطلاق: ٨).

من اللطائف أن الله تعالى لم يسم نفسه بالعدل:

والملفت أن الله تعالى لم يصف نفسه في القرآن الكريم بأنه عادل ولم يرد هذا الاسم في الأسماء الحسنى على كثرتها لأن كرمه ورحمته وفضله سبقت عدله، فهو تعالى لا يؤاخذ بالمثل ولا يعاملنا بهذا المعنى من العدل، نعم وصف تعالى نفسه بما يلزم من العدل وهو إنصاف المخلوقين وعدم بخسهم أشياءهم وعدم الجور في الحكم عليهم وهو حسنٌ دائماً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (فصلت: ٦٦) فالعدل المقصود هو عدم الجور والظلم وأن من حقه تعالى الجزاء بالمثل إن أراد.

ولذا أردف الله تعالى الإحسان بالعدل حينما لخص جوهر الرسالات السماوية وما يريد الله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩١) لأن العدل قد يكون منافياً لمقتضى الإنصاف والإحسان فيكون غير محبوب بل قد يكون ظلماً في بعض المراتب ولو أخلاقياً، وقد بحث ذلك مفصلاً في مسألة توريث أولاد الأولاد مع وجود الأولاد^(١).

(١) راجع كتاب الميراث في موسوعة فقه الخلاف.

إن قلت قلت:

إن قلت: كيف يكون العدل ظلماً وهل هذا إلا من اجتماع الضدين.
قلت: ليس هذا من اجتماع الضدين لأن ما يقابل العدل لغةً ليس هو الظلم بل الجور وهو الحيف في الحكم، فيمكن اجتماع العدل مع الظلم بمرتبة من المراتب ولو أخلاقياً، أي أن الحكم يكون عادلاً، إلا أنه لا يكون منصفاً أو إنه خالٍ من الإحسان بلحاظ طرف آخر، كما في الروايات الواردة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٧٩﴾﴾ (الأنبياء: ٧٨-٧٩).

فقد حكم داوود بالغنم ضمناً لصاحب الزرع^(١) لأن صاحبها لم يحبسها ليلاً وهذا ما جرت به شرائع الأنبياء السابقين أما سليمان (عليه السلام) فقد حكم بالضمان لكن بنحو آخر وهو أن يدفع الضامن غنمه إلى صاحب الزرع ليستفيد من لبنها وصوفها ويغرم هو صلاح الأرض حتى تعود إلى ما كانت عليه فيعيد كل منهما إلى الآخر ماله، وهنا حافظ سليمان (عليه السلام) على مقتضى العدل لكن من دون إضرار بالضامن خصوصاً وأنه ليس معتدياً وإنما كان مقصراً.

لكي نستوعب الدرس في حياتنا:

ولو استوعبنا هذا الدرس الأخلاقي وطبقناه في حياتنا لاستطعنا تجنب الكثير من المشاكل في المجتمع التي منشأها التدقيق في محاسبة الآخرين على

(١) بحار الأنوار - المجلسي: ١٣١/١٤.

كل صغيرة وكبيرة ومطالبة كل طرف باستقصاء حقه من الآخر من دون مراعاة لحاله وظروفه، وأمثلة ذلك من الواقع كثيرة، كما يحصل بين الورثة حينما يطالب البعض مثلاً بحصته من الدار التي يسكنها الورثة الآخرون وهو يعلم أنهم لا يتمكنون من إعطائه وأن بيع الدار فيه مشقة عليهم ولكنه يصرّ على طلبه.

أو الزوج يحاسب زوجته على كل تقصير أو غفلة والزوجة تراقب زوجها وتسأله عن كل تصرفاته ويحاول كل منهما أن يفرض إرادته ورأيه على الآخر فيتخاصمان وتذهب المودة بينهما وقد يخرب بيتهما بسبب إصرار كل منهما على انتزاع ما يتصور أنها حقوقه دون مراعاة لظروف الآخر.

أو دائن يلحّ على المدين بالتسديد وهو في حرج وصعوبة وقد يضطر لبيع داره أو حاجاته الشخصية فهذا من سوء الحساب ومخالف لسيرة المعصومين (عليه السلام) وأصحابهم البررة كمحمد بن أبي عمير وهو من أجلاء أصحاب الإمام الكاظم والرضا والجواد (عليهم السلام) وقد أُلّف عشرات الكتب وكان عالماً عاملاً مخلصاً، وعرض عليه هارون العباسي منصب القضاء فرفضه فأمر الطاغية بحبسه وتعذيبه ف قضى سبعة عشر عاماً في السجن لاقى فيها صنوف التعذيب والوحشية، وكان قبل أن يسجن تاجراً ثرياً وخرج من السجن في عوز شديد وقد أنهكته الأمراض، وكان أحد زبائنه مديناً له بعشرة آلاف درهم فرأى من الوفاء أن يرد إليه دينه ولكنه لا يملك هذا المقدار فباع داره وجاء بالمبلغ إلى ابن أبي عمير، فسأله ابن أبي عمير عن كيفية تدبيره هذا المبلغ الكبير هل وهبه له أحد أو ورثه من قريب له؟ فأجاب الرجل بالنفي وأنه باع داره ليقضي بئمنها دينه فرفض ابن أبي عمير قبضها وقال: ((حدثني ذريح المحاربي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال:

(لا يُخْرِجَ الرجل من مسقط رأسه بالدين)^(١)، ارفعها فلا حاجة لي فيها، والله إني محتاج في وقتي هذا إلى درهم، وما يدخل ملكي منها درهم)^(٢).

سوء الحساب له مراتب:

ومما تقدم يظهر أن سوء الحساب له مراتب فبعضه حقيقي في أدنى مراتبه كالذي أعد للمعرضين عن الله تعالى، وبعضه نسبي بلحاظ درجات الكمال، فإن البعض يرى أن مجرد إيقافهم للحساب، أو لمجرد معاتبتهم على شيء أنه من سوء الحساب.

روى في مجمع البيان حديثاً فيه (من نوقش في الحساب عُذِبَ)^(٣) بغض النظر عن أي عقوبة فبمجرد مناقشة الشخص وتعريضه للحساب والمساءلة تعذيب وفي مصباح الشريعة قال الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (لو لم يكن للحساب مهولة إلا حياء العرض على الله وفضيحة هتك الستر على المخفيات لحقَّ للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال ولا يأوي إلى عمران ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار متصل بالتلف)^(٤).

ولذا فإن أهل المعرفة لا يركنون إلى طاعة ويرون أن حسابهم سيئ لو عاملهم الله تعالى بعدله وحاسبهم كما هم أهلهم وليس بما هو أهلهم من الفضل

(١) أي لا يجوز إجبار المدين على بيع دار سكنه من أجل تسديد الدين.

(٢) بحار الأنوار: ٢٧٣/٤٩، تأريخ الإمام الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، عن علل الشرائع: باب ٣١٣، ح ٢.

(٣) مجمع البيان - الشيخ الطبرسي: ٣١/٦.

(٤) بحار الأنوار - المجلسي: ٢٦٥/٦.

والكرم والرحمة (فاني لم آتك ثقةً بعملٍ صالحٍ عملته)^(١)، ويعدون طاعتهم سيئات يطلبون الإقالة منها بلحاظ ما يليق برب العزة والجلال، تأمل في ما ورد في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة (إلهي كم من طاعة بنيتها وحالة سيّدتها هدم اعتمادي عليها عدلك بل أقلني منها فضلك)^(٢).

فهذه المراتب كلها يخافونها ويعدون هذا الحساب سيئاً بالنسبة لهم وهم يطمحون إلى أن يكونوا من الذين لا يرون حساباً أصلاً ويدخلهم الله تعالى في رضوانه بغير حساب، كعدة اصناف ورد في حقهم ذلك (منهم) الصابرون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

(ومنهم) الذين يحبون الله تبارك وتعالى ويحببونه الى خلقه ويرضون بقضائه روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (اني لأعرف ناساً ما هم أنبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء بمنزلتهم يوم القيامة: الذين يُحِبُّون الله ويحببونه الى خلقه يأمرونهم بطاعة الله فإذا أطاعوا الله أحبهم الله)^(٣) وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون كيف شاؤوا فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم حساباً؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فيقولون: هل جزتم على الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فيقولون لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد (صلى الله عليه وآله)، فيقولون: نشدناكم

(١) مصابيح الجنان: ٦١٩، من ادعية ليلة الجمعة وليلة عرفة وأوله (اللهم من تهياً وتعباً....).

(٢) مفاتيح الجنان: ٣١٥.

(٣) مجمع الزوائد للهيتمي: ١/ ١٢٦، وللتفصيل أكثر راجع خطاب المرحلة: ٦/ ١٥١-١٦٥.

الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلغنا الله هذه المنزلة بفضلته ورحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا^(١).

(ومنهم) الشهداء فإن الله تعالى يُسقط كل حق له وفي الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (كل ذنب يكفره القتل في سبيل الله عز وجل إلا الدين لا كفارة له إلا أدائه، أو يقضي صاحبه أو يعفو الذي له الحق)^(٢)، فإن الدين من حقوق الناس ولا بد من ادائه اليهم أو استرضائهم، قد روي أن الإمام الحسين (عليه السلام) لم يأذن بالقتال معه لمن كان عليه دين إلا ان يوصي بقضائه^(٣).

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، المعروف بمجموعة ورّام: ٢٣٠/١.

(٢) الكافي: ٩٤/٥، ح ٦.

(٣) موسوعة كلمات الإمام الحسين (عليه السلام): ٥٠٥.

القيس/٩٩

سورة إبراهيم: ﴿٥﴾

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾

هذا المقطع جزء من الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ﴿٥﴾) وهو يبين إحدى وظائف الأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) والقادة الدينيين ومن سار على نهجهم، وهو تذكير الناس بأيام الله تعالى عسى أن يكون سبباً لهدايتهم وصلاحهم وتكاملهم وخروجهم من الظلمات الى النور.

إن الأيام كلها لله كما أن كل شيء في الوجود لله تعالى ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة: ﴿٢٥٥﴾) ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النحل: ﴿٥٤﴾) ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (الأعراف: ﴿٥٤﴾) وإنما أضيفت أيام مخصوصة إلى الله تبارك وتعالى تشريفاً لها وتعظيماً، لأن فيها إلفاتاً إلى الله تعالى وتنبهها من الغفلة عنه سبحانه، إما لإفاضة نعمة عظيمة فيها او لدفع نقمة مروعة (فكم من موهبة عظيمة قد أعطاني، وعظيمة مخوفة قد كفاني، وبهجة موقنة قد أراني)^(١)، أو لتجلي أسمائه وصفاته سبحانه فيها كالأيام التي تظهر هيئته على خلقة وجريان أمره فيهم ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ﴿١٤﴾) أو الأيام التي

(١) مفاتيح الجنان: ٣٢٣، من دعاء الافتتاح في ليالي شهر رمضان، التهذيب، للشيخ الطوسي: ١٠٨/٣.

ينجز تبارك وتعالى فيها وعده للمؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾
(الجاتية: ١٤).

وكذا الأيام التي دعي فيها الانسان ليزيد ذكر الله تعالى ويعود الى كنفه، فإنَّ الله تعالى عَلِمَ أن الإنسان يغفل وينهمك في تفاصيل حياته، فينشغل عن مراجعة علاقته بربه، فيحتاج إلى محطات لتزويده بالطاقة المعنوية وإزالة ما علق بقلبه من الرين وإيقاظه من الغفلة، وهذه المحطات قد تكون زمانية أو مكانية أو فعلية تجدد هذه العلاقة وتعطيها زخماً وحيوية جديدة، فجعل أياماً كأيام شهر رمضان والحج ويوم الجمعة، وساعات كالزوال وآخر ساعة من يوم الجمعة، وجعل أمكنة كالمساجد والعتبات المقدسة، وجعل مشاعر كالمسجد الحرام والمسجد النبوي، وجعل شعائر كزيارة المعصومين (عليهم السلام) وصلاة الجمعة والجماعة، وأحوالاً كنزول المطر وكسوف الشمس وخسوف القمر، لتحقيق المزيد من القرب لربه والالتفات إلى قضيته الكبرى وهي نيل رضوان الله تعالى.

والله تعالى لم يغب عن عباده وعن خلقه (متى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ)^(١) لكنهم هم الذين يغفلون عنه ويحرمون أنفسهم من التشرف بالمثل بين يديه (وأَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَحْتَجِبُ عَنْ خَلْقِكَ إِلَّا أَنْ تَحْجِبَهُمُ الْأَعْمَالُ دُونَكَ)^(٢).

وهذه سيرة تعلّمها العالم المتحضر فجعل أياماً لقضايا المهمة، فيوم للأُم ويوم للمرأة وآخر للعامل والبيئة ومكافحة التدخين والمخدرات والأيدز ونحو

(١) مفاتيح الجنان: دعاء الامام الحسين يوم عرفه.

(٢) مفاتيح الجنان: دعاء أبي حمزة الثمالي.

ذلك، لتجديد الاهتمام بهذه القضايا وإجراء مراجعة لطبيعة العلاقة معها، وإلا فإن الاهتمام بهذه القضايا مطلوب على الدوام.

وبشيء من التوضيح والامثلة نقول: إن الخصوصية في هذه الأيام التي جعلتها من أيام الله هي أنها شهدت بعض تجليات الله تعالى لخلقه بصفاته الحسنی.

ففي يوم ميلاد النبي (ﷺ) وبعثته تجلت رحمة الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وقد بانَت الرحمة من خلال النقلة الكبيرة في حياة الأمة من اعراب الجاهلية الى خير الامم ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ (يونس: ٥٨).

وفي يوم الغدير تجلت حكمة الله تعالى وشفقته على عباده.

وفي يوم عاشوراء تجلت عظمة الله تعالى حينما يهون الإمام الحسين (عليه السلام) التضحيات التي قدمها لله تعالى، وتجلّى حلم الله تعالى إذ لم ينزل نقمته وبأسه على الأشرار الذين ارتكبوا أفظع الجرائم، وتجلّى ما يمنّ الله تعالى به على عباده المصطفين من التوحيد الخالص والفناء في محبة الله تعالى كالذي حصل للأمام الحسين (عليه السلام).

وفي يوم بدر والأحزاب وفتح مكة يتجلّى نصر الله وفتحته على عباده المؤمنين.

وفي يوم الظهور المبارك للحجة القائم (عليه السلام) يتجلّى تحقق وعد الله تعالى لعباده المؤمنين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم

فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ (النور).

وفي أي يوم تحقق البشرية إنجازاً علمياً يسعد الناس ويرفقه حياتهم ويخلصهم من معاناتهم من الفقر أو المرض أو الخوف وغيرها: تتجلى شفقة الله تعالى وكرمه وحسن صنيعه وقدرته، إذ زود البشرية بهذا العقل المبدع وما يتفتق عنه من علوم، حتى أُلّف مجموعة من علماء الغرب كتاب (الله يتجلى في عصر العلم)^(١).

وحيثما أغرق فرعون وجنوده وأهلك عاد وثمود وصدّام تجلّت عدالة الله تعالى وانتقامه من الظالمين المعتدين المستكبرين.

وإذا مات إنسان تجلّت صفة (القهار) كما في الدعاء (الحمد لله الذي قهر عباده بالموت والنفاء)^(٢)، وتجلّت صفة (الباقي) لله تعالى (فإن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون)^(٣) بحسب المروي عن الإمام الحسين (عليه السلام).
فالاحتفال بهذه الأيام واستذكار ما جرى فيها إنما هو امتثال لهذه الآية الشريفة وتجديد لذكر الله تعالى، وليس بدعة كما يدعي بعض المتحجّرين.

(١) كتاب: (الله يتجلى في عصر العلم) لمجموعة من كبار العلماء الأمريكيين في تخصصات علمية مختلفة في علوم الكون والحياة من كيمياء وفيزياء وتشريح وأحياء، تذكر كلها أنواعاً من الأدلة العلمية على وجود الله.

(٢) مفاتيح الجنان: ٩٥، آخر دعاء الصباح.

(٣) الإرشاد للشيخ المفيد: ٩٤ / ٢.

وقد وردت عدة روايات في تفسير هذه الآية بمعاني متعددة إشارة إلى هذه المناسئ المتعددة لتسمية الأيام بأيام الله تعالى، فقد روي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (أيام الله نعمائوه وبلاؤه وهي مُثَلَّاتُه^(١) سبحانه)^(٢) أقول: بقية الآية ونهايتها تشعر بهذا المعنى قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥٠)، فالصبر على البلاء، والشكر على النعماء.

وروي في الخصال بسنده عن مثنى الحنات عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: (أيام الله عز وجل ثلاثة: يوم يقوم القائم، ويوم الكرة - أي الرجعة - ويوم القيامة) لأنها من أيام تجلياته وانتباه الناس من غفلتهم عنه، وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: (ذكرهم بنعم الله سبحانه في سائر أيامه)^(٣).

وقد يضيف الله تعالى بعض الأيام إلى نفسه ليزيد فيها من عطائه الخاص على عباده، فيدعوهم إلى ذكره ودعائه ليدكرهم برحمته وكرمه وعفوه ومغفرته ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٥) كموسم الحج ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة: ٢٠٣) ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ (الحج: ١٨) وشهر رمضان.

ومنها هذه الأيام التي أطلت علينا مع حلول شهر رجب المرجو لكل خير كما في الدعاء المستحب فيه يومياً (يا من أرجوه لكل خير)، فقد شرف الله تعالى

(١) من قوله تعالى ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثَلَّاتُ﴾ (الرعد: ٦١) أي النعمات التي تجعل من تنزل به مثلاً يرتدع به الآخرون.

(٢) الأماي للشيخ الطوسي: ٤٩١.

(٣) تفسير البرهان: ٥/٢٣٣، نور الثقلين: ٢/٥٢٦ عن الخصال.

هذه الأيام وبارك فيها من أطفاه ودعاهم إلى التعرض لنفحاته (إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها، لعله أن يصيبكم نفحة منها، فلا تشقون بعدها أبداً)^(١)، أي تعرضوا لأسبابها من الأزمنة والأمكنة والأحوال المختلفة لأن نفس النفحات من الغيب الإلهي ولا يعلمها العباد فكيف يتعرضون لها؟.

فكل أيام هذه الأشهر الثلاثة (رجب وشعبان ورمضان) هي من أيام الله تعالى، وإن السنة المعنوية^(٢) عند أهل المعرفة تبدأ من شهر رجب، لاحظ مثلاً كتاب مفاتيح الجنان يبدأ أعمال ومستحبات أشهر السنة، أما السنة التقويمية فتبدأ من محرم - بحسب ما هي عليه عادة العرب قبل الإسلام - بعد انقضاء موسم الحج وعودة الحجاج إلى ديارهم، والسنة الهجرية بدأت عند بعض قدامى المؤرخين من ربيع الأول لأنه شهد بداية التأريخ بهجرة النبي (ﷺ).

فالأيام التي تطل علينا شريفة ومباركة، وقد سمّي شهر رجب في بعض الروايات بأنه (شهر الله)، وقد فسّرت ذلك بوجوه^(٣)، أحدها أنه شهر معرفة الله تعالى، ومن علائم ذلك أدعيته التي تطفح بالمعارف الإلهية كدعاء (يا من أرجوه لكل خير، وآمنُ سخطه عند كل شرٍّ يا من يعطي الكثير بالقليل، يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمه) فهذا هو ربُّنا فليتخذوا مما يشاؤون ارباباً تذلّهم وتحلّهم دار البوار، وكذا دعاء (خاب

(١) انظر ملحق قبس قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (آل عمران: ١٣٦) في تفسير

من نور القرآن.

(٢) راجع كلمة بعنوان (رجب بداية السنة المعنوية) في موسوعة خطاب المرحلة: ٧/ ٧٦.

(٣) راجع كلمة بعنوان (رجب شهر الله) في موسوعة خطاب المرحلة: ٩/ ٢٧٣.

الوافدون على غيرك وخسر المتعرضون إلا لك..) إلى أن يقول: (ورزقك مبسوط لمن عصاك وحلمك معترض لمن ناواك، عادتك الإحسان إلى المسيئين وسبيلك الإبقاء على المعتدين)^(١).

وقد سنّ الأئمة المعصومون (عليهم السلام) لهذه الأيام أعمالاً مستحبة كثيرة، وتتألاً خلالها أيام أشد نوراً وعطاءً، ومنها اليوم الأول من رجب وليلته، في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه عن علي (عليه السلام) قال: (كان يعجبه أن يفرغ نفسه أربع ليالٍ في السنة، وهي أول ليلة من رجب وليلة النصف من شعبان وليلة الفطر وليلة النحر)^(٢).

وفي الختام نقول إن الآية الكريمة تدعو جميع المؤمنين الرساليين أن يتأسوا بالأنبياء العظام والأئمة الكرام (صلوات الله عليهم أجمعين) فيذكروا الناس بأيام الله تعالى، تلك الأيام التي تربطهم بالله تعالى وتزيد معرفتهم به وتوثق علاقتهم بربهم.

(١) تجد هذه الأدعية في مفاتيح الجنان، أعمال شهر رجب.

(٢) مفاتيح الجنان: ١٧٦ أعمال الليلة الأولى من رجب.

﴿الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾

يرجون وعده ويخشون عذابه:

من آداب تلاوة القرآن الكريم أن نقف عند كل آية عذاب وتحذير وتخويف وتهديد لتوقع استحقاقنا لها، وأن نقف عند كل آية وعد وترغيب وتكريم ونعيم لندرج أن نكون مشمولين بها، ولا نتصور أننا في مأمن ومنأى من آيات التخويف والتهديد، ورد في وصف سيرة الإمام الرضا (عليه السلام) إنه كان (يكثُر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن فإذا مرَّ بآية فيها ذكر جنة أو نار بكى وسأل الله الجنة وتعوذ من النار)^(١) وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في صفة الذين يتلون حَق تلاوته قال (عليه السلام) (ويرجون وعده ويخشون عذابه)^(٢) ولناخذ ذلك مثلاً قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْجَوَارِ﴾ (إبراهيم: ﴿٢٨﴾).

كم من منعم عليه وهو لا يعلم

يتصور أكثر الناس أن النعمة هي المال والحياة المرفهة، وهذا لا شك مصداق مهم للنعمة لكن مصدايقها أوسع من ذلك بكثير مما لا يلتفت إليه أغلب

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/ ١٨٢/ ٥ ح.

(٢) تنبيه الخواطر: ٢/ ٢٣٦.

الناس، عن رسول الله (ﷺ) قال (الصحة والفراغ نعمتان مكفورتان) ^(١)، وعنه (ﷺ) (نعمتان مكفورتان: الأمن والعافية) ^(٢) وعنه (ﷺ) (نعمتان مفتون فيهما كثير من الناس: الفراغ والصحة).

وكل نعمة من هذه النعم تتحلل إلى ما لا يعد ولا يحصى من النعم، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (النحل: ١٨) وقد شرحنا في بعض خطبنا السابقة أمثلة على ذلك، ولكن الإنسان يغفل عنها غالباً، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (كم من مُنعم عليه وهو لا يعلم) ولا يحس بقيمتها إلا إذا فقدها لا سامح الله، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من كان في النعمة جهل قدر البلية) وعن الإمام الحسن (عليه السلام) قال (تجهل النعم ما أقامت، فإذا ولّت عُرفت)، وإن كان في غنى عن الوصول إلى هذه المرحلة، إذ يكفي تذكرها والانتفات إليها أو تخيل أضرارها لمعرفة قيمتها، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (إنما يُعرف قدر النعم بمقاساة ضدها).

نعمة الإيمان بالله ورسوله وولاية أهل البيت (عليهم السلام):

ولا بد أن نلتفت إلى أن الأهم من النعم المادية المذكورة النعم المعنوية، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إن من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب) وعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (لا نعمة كالعافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق).

(١) الفقيه - الشيخ الصدوق: ٤ / ٣٨١ ح ٥٨٢٩.

(٢) وما بعده، الخصال - الشيخ الصدوق: ٥٤ ح ٥، ح ٧.

ومن النعم المعنوية اجتماع الكلمة على الإيمان بالله تعالى وبرسوله وولاية أهل البيت (عليه السلام) كما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذْ كُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ (آل عمران: ١٠٣) قالت الصديقة الزهراء (عليها السلام) في خطبتها^(١) (فأنقذكم الله بأبي محمد (صلى الله عليه وآله)) وروى العياشي في تفسيره قال: كان أبو عبد الله (عليه السلام) إذا ذكر النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (بأبي وأمي ونفسي وقومي وعترتي عجبٌ للعرب كيف لا تحملنا على رؤوسها والله يقول في كتابه) (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) فبرسول الله (صلى الله عليه وآله) والله أنقذوا^(٢) ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠) (أما ما ظهر فالإسلام وما سوى الله من خلقك، وما أفاض عليك من الرزق، وأما ما بطن فستر مساوئ عملك ولم يفضحك به)^(٣)، وعن الإمام الباقر (عليه السلام) (النعمة الظاهرة النبي (صلى الله عليه وآله) وما جاء به النبي من معرفة الله عز وجل وتوحيده، وأما النعمة الباطنة ولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (ما أنعم الله على عبد أجل من أن لا يكون في قلبه مع الله عز وجل غيره)^(٤) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) (إن من النعمة تعذر المعاصي)^(٥)، وعن الإمام

(١) الإحتجاج - الطبرسي: ١٠٠/١.

(٢) تفسير العياشي: ١/٢١٨/ح ١٢٦.

(٣) مجمع البيان - الطبرسي: ٨٨/٨.

(٤) بحار الأنوار - المجلسي: ١٩٨/٦٧.

(٥) عيون الحكم والمواعظ - الليثي: ١٤٩.

الكاظم (عليه السلام) (النعمة الظاهرة الإمام الظاهر، والباطنة الإمام الغائب) (١).

كيفية الحفاظ على النعمة:

وبعد الاطلاع على سعة النعمة وتنوعها وأهميتها يفتح السؤال عن كيفية الحفاظ عليها وإدامتها لأنها معرضة للزوال - والعياذ بالله - فلا بد من الحذر، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (أحسنوا مجاورة النعم، لا تملّوها ولا تنفروها، فإنها قلما نفرت من قوم فعادت إليهم) (٢) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (أحسنوا صحبة النعم قبل فراقها، فإنها تزول وتشهد على صاحبها بما عمل فيها) (٣).

شكر النعمة:

والذي يوجب بقاء النعمة ودوامها ويمنع من نفورها شكر النعمة، والذي يوجب نفور النعمة وزوالها كفر النعمة، وهما معنيان متضادان يعرف معنى كل منهما بعكس معنى الآخر عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (أحسن الناس حالا في النعم من استدام حاضرها بالشكر وارتجع فائتها بالصبر) (٤) وعنه (عليه السلام) (إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر) (٥) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (لا تدوم النعم إلا بثلاث: معرفة بما يلزم لله سبحانه فيها، وأداء شكرها، والتعب

(١) كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق: ٣٩٦/١.

(٢) مستدرک الوسائل - المحدث النوري: ٣٦٩/١٢.

(٣) علل الشرائع - الشيخ الصدوق: ٤٦٤/٢.

(٤) غرر الحكم للآمدي: ٢١١/٢١١.

(٥) وسائل الشيعة (آل البيت): ٣٢٨/١٦.

فيها^(١) وعن الإمام الهادي (عليه السلام) (القوا النعم بحسن مجاورتها والتمسوا الزيادة فيها بالشكر عليها)^(٢).

أشكال الشكر والكفر بالنعمة:

إن كفر النعمة وما يقابله من شكرها له معانٍ وأشكال عديدة:

١- عدم استعمالها في طاعة الله تعالى كما مرّ في الأحاديث الشريفة التي وصفت الفراغ والصحة والأمن بأنها نعم مكفورة لأنها لم تُستثمر في طاعة الله تعالى، والأسوأ أن تستخدم في معاصيه، عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أقل ما يلزمكم لله ألا تستعينوا بنعمه على معاصيه)^(٣) وعنه (عليه السلام) قال (استتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته، والمجانبة لمعصيته)^(٤).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (إن أردت أن يُختم بخير عملك حتى تُقبض وأنت في أفضل الأعمال فعظم لله حقّه أن لا تبذل نعماءه في معاصيه)^(٥).

٢- عدم أداء حقوق النعمة كمن لا يؤدي ما بذمته من الحقوق الشرعية أو يهمل أداء فريضة الحج وهو مستطيع أو لا يصوم شهر رمضان وهو قادر وهكذا، وفي ذلك قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتّخذ البخل بحقّ

(١) تحف العقول - ابن شعبة الحراني: ٣١٨.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ٣٧٠/٧٥.

(٣) نهج البلاغة: ٧٨/٤.

(٤) مستدرک الوسائل - المحدث النوري: ٣٦٩/١٢.

(٥) بحار الأنوار - المجلسي: ٣٥١/٧٠.

الله وفرا^(١) ومحل الشاهد تطبيق الإمام الآية بالنص على من لم يؤدي حقوق الله تعالى في أمواله، وعنه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (يا أيها الناس: إنَّ الله في كلِّ نعمة حقًّا، فمن أداهُ زاده، ومن قصرَّ عنه خاطر بزوال النعمة وتعجّل العقوبة، فليراكم الله من النعمة وجلين كما يراكم من الذنوب فرقين)^(٢) ويشرحها الإمام الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بقوله: (إنَّ صاحب النعمة على خطر، إنه يجب عليه حقوق الله فيها، والله إنَّه لتكون عليَّ النعم من الله عزَّ وجلَّ فما أزال منها على وجل - وحرَّك يده - حتَّى أخرج من الحقوق التي تجب لله عليَّ فيها)^(٣).

فكلُّ نعمة تستوجب حقًّا، الوالدان نعمة ولهم حقوق، والمرجعية المخلصة العاملة نعمة ولها حقوق، والجاه والموقع نعمة وعلى صاحبه حقوق، عن الإمام الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (استعمال العدل والإحسان مؤذن بدوام النعم)^(٤)، وهكذا.

ومن كفر النعمة التقصير باستعمال ما أنعم الله تعالى عليه في خدمة الناس وقضاء حوائجهم وإدخال السرور عليهم، عن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال (إنَّ الله عبادةً اختصهم بالنعم يُقرّها فيهم ما بذلوا للناس فإذا منعوها حولها منهم إلى غيرهم)^(٥) وعن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال (من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام لله فيها بما يجب فيها عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٩ في ذكر المكايل والموازن.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ٤٣/٧٥.

(٣) بحار الأنوار - المجلسي: ١٠٥/٤٩.

(٤) عيون أخبار الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) - الصدوق: ٢٦/١.

(٥) عوالي اللئالي - الأحسائي: ٣٧٢/١.

عرّضها للزوال والفناء^(١).

فالذي يمكنه الله تعالى في الأرض ويضع تحت تصرفه موارد الدولة والشعب وهو يسخرها لمصالحه الشخصية والحزبية فهو ممن بدلّ نعمة الله كفراً، والذي يستعمل الوسائل العلمية الحديثة التي أنعم الله تعالى بها على عباده في غير مرضاة الله فهو ممن بدلّ نعمة الله كفراً وهكذا.

٣- عدم التحديث بها ونشرها قال تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

(الضحى: ١١) روي عن رسول الله (ﷺ) قوله (إنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)^(٢) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (إذا أنعم الله على عبده بنعمة فظهرت عليه سُمِّي حبيب الله محدثاً بنعمة الله، وإذا أنعم الله على عبده بنعمة فلم تظهر عليه سُمِّي بغيض الله مكذباً بنعمة الله)^(٣) فاعتباره مكذباً بنعمة الله مبعوضاً عند الله تعالى لأنه لم يحدث بنعمة الله ولم يظهرها، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إنّي لأكره للرجل أن يكون عليه نعمة من الله فلا يظهرها)^(٤).

كمال النعمة وتمامها:

وإنّ أعظم النعم على الإطلاق الإسلام كما دلّت عليه الروايات الشريفة عن الإمام الحسين (عليه السلام) في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١) قال (عليه السلام) (أمره أن يحدث بما أنعم الله به عليه في دينه)، وتمام هذه النعمة التي

(١) نهج البلاغة: ٤/٨٨/ح ٣٧٢.

(٢) سنن الترمذي: ٥/١٢٣/ح ٢٨١٩.

(٣) الكافي للكليني: ٦/٤٣٨/ح ١.

(٤) الكافي للكليني: ٦/٤٣٩/ح ٩.

كُمّل بها الإسلام نعمة ولاية أهل البيت (عليهم السلام) ^(١) بدلالة النصوص القرآنية ومنها الآية الشريفة التي نزلت في واقعة الغدير وتنصيب أمير المؤمنين (عليه السلام) إماماً وهادياً للأمة وخليفة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فنزل قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (المائدة: ٣) وما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨) من حديث الإمام الصادق (عليه السلام) مع أبي حنيفة قال: (نحن - أهل البيت - النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين وبنا أَلَّفَ الله بين قلوبهم وجعلهم اخواناً بعد أن كانوا أعداءً وبنا هداهم الله إلى الإسلام وهي النعمة التي لا تنقطع، والله سألهم عن حق النعيم الذي أنعم الله به عليهم وهو النبي (صلى الله عليه وآله) وعترته ^(٢) فأهل البيت ليسوا نعمة فقط بل نعمة باقية ثابتة مقيمة فتكون كثيرة مباركة لذا وصفهم بالنعيم.

ومن مجموع هذه المقدمات نصل إلى نتيجة: أن أوضح مصاديق تبديل نعمة الله كفرةً هم الذين لم يؤمنوا بالإسلام وأشركوا بالله تعالى وأنكروا نبوة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله).

الإعراض عن ولاية أهل البيت (عليهم السلام):

وممن تنطبق عليهم الآية كلٌّ من أعرض عن ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ولم يلتزم بوصية النبي (صلى الله عليه وآله) فضلاً عمّن ظلم أهل البيت (عليهم السلام) ونصب لهم

(١) تحف العقول - ابن شعبة الحراني: ٢٤٦.

(٢) راجع الروايات في تفسير البرهان: ٢٣٠/١٠.

العداوة والبغضاء فهو ممن بدّل نعمة الله كفراً.

وهذه النتيجة مذكورة نصّاً في القرآن الكريم بلفظ الانقلاب الذي هو معنى آخر لتبديل النعمة كفراً قال تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤) فالألفاظ المستعملة نفسها وهي الانقلاب المرادف للتبديل والشكر المقابل للكفر.

ووردت في ذلك روايات عديدة ففي الكافي بسنده عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (ما بال أقوام غيروا سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعدلوا عن وصيه لا يتخوفون أن ينزل بهم العذاب) ثم تلا هذه الآية ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۗ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ (إبراهيم: ٢٨-٢٩) ثم قال (نحن النعمة التي أنعم الله بها على عباده، وبنا يفوز من فاز) (١).

وعلينا أن نتذكر أن من كفر النعمة عدم إظهارها والتحديث بها وعدم القيام بحقوقها كما دلّت عليه الروايات المتقدمة، فمن قصر في إظهار نعمة ولاية أهل البيت (عليهم السلام) ولم يتحرك لإقناع الناس بها بأي وسيلة خصوصاً مع توسّع وسائل تبادل المعلومات ونقلها، أو لم يحفظ حرمة أهل البيت (عليهم السلام) في سلوكه وصفاته فهو ممن لم يشكر هذه النعمة وربّما انطبقت عليه الآية بمعنى من المعاني. فليتنفّه كل شيعة أهل البيت (عليهم السلام) في دينهم وليطلعوا على سيرة أهل

(١) الكافي: ١/١٦٩/ح ١.

البيت (عليه السلام) ومناقبهم وفضائلهم ومحاسن كلامهم ليوصلوها إلى البشرية جمعاء إذا أردنا أن نكون من الشاكرين على هذه النعمة، وحتى نكون صادقين مع الله تعالى ومع أنفسنا حينما نتبادل التهاني والتبريكات في مثل هذه الأيام ونحمد الله تعالى على التشرف بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ومباهلة النبي (صلى الله عليه وآله) ونزول سورة هل أتى والتصديق بالخاتم وغيرها من المناقب الكثيرة.

وعلينا أن نُحيي أمر أهل البيت (عليهم السلام) خصوصاً الشعائر الفاطمية والحسينية شكراً لله تعالى على نعمة مودّتهم وولايتهم وقد كثرت الروايات عنهم (عليهم السلام) أنّهم هم النعمة التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم وبهم يفوز من فاز، وقد مرّ في الأحاديث الشريفة أن شكر النعمة يتحقق بإظهارها والتحدّث بها.

القبس/ ١٠١

سورة إبراهيم: ﴿٣٦﴾

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾

موضوع القبس: شرف الانتماء ومسؤوليته

الآية الكريمة تبين على لسان النبي إبراهيم (عليه السلام) المقياس الحقيقي للانتساب إلى النبي أو الامام أو القائد ورئيس الجماعة بشكل عام وانه يتحقق بالطاعة والاتباع في الأقوال والأفعال وليس بادعاء الانتساب أو اللحمة النسبية، لذلك يرد الله تبارك وتعالى في آية أخرى على اليهود والنصارى الذين ادعوا انهم السائرون على دين إبراهيم (عليه السلام) والحافظون له، وثبت حقيقة الانتساب، قال تعالى ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٦٨) بعد أن نفى في الآية السابقة دعواهم ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: ٦٧).

والآية الكريمة تفيد حقيقتين:

فهي من جهة: تمنح الملتزمين بنهج النبي (صلى الله عليه وآله) وآله الكرام (عليهم السلام) وساماً تكريمياً من أعلى الدرجات بأن تجعلهم منهم (صلوات الله عليهم أجمعين) وتدلل على الطريق الذي يوصلك الى أن تكون من أهل البيت (عليهم السلام) وكفى بذلك شرفاً وكرامة، وقد صرح المعصومون (عليهم السلام) لبعض أصحابهم بنيل هذا الوسام مثل سلمان الفارسي (رضوان الله تعالى عليه) حيث قال الإمام أبو جعفر

الباقر (عَلَيْهِ السَّلَامُ): لا تقولوا سلمان الفارسي، ولكن قولوا سلمان المحمّدي، ذلك رجلٌ منّا أهل البيت^(١) و قال رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (وإنما صار سلمان من العلماء لأنه امرؤ منّا أهل البيت فلذلك نسبه إلينا)^(٢).

وروى ربعي بن عبدالله، قال (حدثني غاسل الفضيل بن يسار، قال: اني لأغسل الفضيل بن يسار وأن يده لتسبقني إلى عورته، فخبرت بذلك أبا عبدالله (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فقال لي: رحم الله الفضيل بن يسار، وهو منّا أهل البيت)^(٣).

وروى عمر بن يزيد قال (قال لي أبو عبدالله (عَلَيْهِ السَّلَامُ): يا بن يزيد أنت والله منّا أهل البيت، قلت له: جعلت فداك من آل محمد؟ قال: أي والله من أنفسهم، قلت: من أنفسهم؟ قال: أي والله من أنفسهم يا عمر، أما تقرأ كتاب الله عزوجل ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

وروى يونس بن يعقوب قال (كنت بالمدينة فاستقبل جعفر بن محمد عليهما السلام في بعض أزقتها، قال، فقال: اذهب يا يونس فان بالباب رجلاً منّا أهل البيت. قال: فجئت إلى الباب فإذا عيسى بن عبدالله القمي جالس، قال: فقلت له من أنت؟ فقال له: أنا رجل من أهل قم، قال: فلم يكن بأسرع من أن أقبل أبو عبدالله (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، قال: فدخل على الحمار الدار، ثم التفت إلينا فقال: أدخلنا. ثم قال:

(١) اختيار معرفة الرجال للشيخ الطوسي: ١٢.

(٢) بحار الأنوار: ٤٦٢/٢ ح ٢٥/باب ٢٦.

(٣) اختيار معرفة الرجال: ج ٢/ص ٤٧٣.

(٤) رجال الكشي: ٦٢٣/٢.

يا يونس بن يعقوب أحسبك أنكرت قولي لك أن عيسى بن عبدالله منا أهل البيت! قال قلت: أي والله جعلت فداك لأن عيسى بن عبدالله رجل من أهل قم، فقال يا يونس عيسى بن عبدالله هو منا حي وهو منا ميت^(١).

وروى يونس مثل هذا القول عن الإمام الصادق (عليه السلام) في عيسى بن عبدالله القمي.

وروى الشيخ المفيد في كتاب الاختصاص عن أبي حمزة قال (دخل سعد بن عبد الملك وكان أبو جعفر (عليه السلام) يسميه سعد الخير وهو من ولد عبد العزيز بن مروان على أبي جعفر (عليه السلام) فيينا ينشج كما تنشج النساء قال: فقال له أبو جعفر (عليه السلام): ما يبكيك يا سعد؟ قال وكيف لا أبكي وأنا من الشجرة الملعونة في القرآن، فقال له: لست منهم أنت أموي منا أهل البيت أما سمعت قول الله عز وجل يحكي عن إبراهيم: (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)^(٢).

وترقى هذه المنزلة إلى ما ورد في بكير بن أعين أخي زرارة من (أن أبا عبدالله (عليه السلام) لما بلغه وفاة بكير بن أعين قال: اما والله لقد انزله الله بين رسوله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما)^(٣).

ومن جهة أخرى: تبين شرط هذا الانتماء، وإن هذه الأوسمة ليست تشرifaً مجرداً من دون استحقاق وتحمل للمسؤولية التي يوجبها الانتماء والانتساب إلى الجهة أية جهة، فلاسلامك حق عليك ولولايتك لأهل البيت (عليهم السلام) حقوق

(١) رجال الكشي: ٦٢٤/٢.

(٢) الاختصاص - الشيخ المفيد: ٨٥.

(٣) رجال الكشي: ٤٥٦/١ رقم الترجمة ٧١.

ولارتباطك بمرجعية معينة استحقاقات وكذا لانتسابك لبلد معين كالعراق أو لمدينة معينة كالنجف الأشرف أو لأسرة معينة وهكذا تكون لكل جهة تنتسب إليها مسؤولية الانتماء.

روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (إن أولى الناس بالأنبياء عملهم بما جاؤوا به، ثم تلا ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (آل عمران: ٦٨) وقال: إن ولي محمد (صلى الله عليه وآله) من اطاع الله وإن بعدت لحمته وإن عدو محمد (صلى الله عليه وآله) من عصى الله وإن قربت قرابته^(١).

وروى في الدر المنثور عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله (يا معشر قريش أن أولى الناس بالنبي المتقون فكونوا أنتم بسبيل ذلك فانظروا لا يلقاني الناس يحملون الاعمال وتلقوني بالدنيا تحملونها فاصدُّ عنكم بوجهي) ثم تلا الآية^(٢).

وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (من اتقى منكم وأصلح فهو منا أهل البيت، قيل له: منكم يا بن رسول الله؟ قال: نعم، منا، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وقول إبراهيم (عليه السلام) ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾^(٣).

اذن فالفرصة مفتوحة أمام الجميع ليكونوا من أهل البيت (عليه السلام) وليس فقط من أصحابهم أو مرديهم وذلك ما نطقت به الآية الشريفة فإنها ظاهرة في كلا

(١) نهج البلاغة: ٢١/٤ ح ٩٦.

(٢) الدر المنثور: ٤٣/٢.

(٣) دعائم الإسلام: ج ١ ص ٦٢.

المعنيين: امتياز المتبع والمطيع للأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) بأن يكون منهم وبنفس الوقت تتضمن معنى اشتراط الاتباع والطاعة.

إن الارتباط النسبي بالنبي والأئمة المعصومين وكذا الانتماء إلى قومية معينة أو جنس أو لغة أو لون خارج عن اختيار الانسان فلا يمكن ان يكون سبباً للتفاضل بين الناس ومثل هذه الدعوات لتفوق بعض البشر على بعض عصبية جاهلية، وإنما المقياس الحقيقي للانتماء هو الطاعة والاتباع، ولذا يؤدّب الله تعالى نساء النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن لا يتخذن هذا العنوان سبباً للتفاخر وإن تميزهن الحقيقي بالعمل الصالح ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنُنٌ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا﴾ (سورة الأحزاب: مقاطع من الآيات: ٣٢-٣٩).

وكان الرد من الله تعالى حازماً في ابن النبي نوح لما عصى أباه، قال تعالى ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود: ٦١).

وقد بيّن المعصومون (عليهم السلام) في احاديث مفصّلة صفات المنتسب لهذه الجماعة المباركة وحرصوا على بيان مسؤوليات الانتماء لهم (عليهم السلام) وجمع الأصحاب هذه الروايات في كتبهم ومنها (صفات الشيعة) للشيخ الصدوق ومن تلك الروايات ما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس، قيل هذا جعفري،

فيسرني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان علي غير ذلك دخل علي بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر^(١).

وروى زيد الشحام عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (يا زيد خالقوا الناس بأخلاقهم صلّوا في مساجدهم وعودوا مرضاهم واشهدوا جنازتهم - هذا مع العامة من غير الموالين ونحن نرى اليوم من يقاطع المسجد اذا كان إمام الجماعة يقلّد مرجعاً آخر -، وان استطعتم ان تكونوا الأئمة والمؤذنين فافعلوا، فانكم اذا فعلتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، رحم الله جعفرأ، ما كان أحسن ما يؤدب أصحابه، واذا تركتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، فعل الله بجعفر، ما كان اسوأ ما يؤدب أصحابه)^(٢).

وكانوا يحثون اصحابهم والمنتمين اليهم أن يكونوا بمستوى المسؤولية ولا يرى الناس منهم الا خيرا ليكونوا صورة مشرقة عن أئمتهم ومنها وصيتهم العامة (معاشر الشيعة، كونوا لنا زينا ولا تكونوا علينا شيئا، قولوا للناس حسنا، احفظوا ألسنتكم وكفّوها عن الفضول وقبيح القول)^(٣).

وفي رواية معتبرة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (مالكم تسؤون رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فقال له رجل كيف نسوؤه؟ فقال: أما تعلمون أن أعمالكم تعرض عليه، فإذا رأى معصية ساءه ذلك، فلا تسوؤوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسرّوه)^(٤).

(١) الكافي: ج ٢/ص ٦٣٦.

(٢) وسائل الشيعة: ٤٣٠/٨، كتاب الصلاة، أبواب الصلاة الجماعة، باب ١٧٥/ح ١.

(٣) امالي الصدوق: ٤٨٤.

(٤) الكافي: ١٧١/١/ح ٣.

فالانتماء والهوية ليست امرأ بيدك فقط حتى تفعل ما تشاء من دون مراعاة
لاستحقاقاتها بل لها طرف آخر يطالب بتحمّل مسؤولية هذه الهوية وهذا الانتماء
لأن أي شيء حسن أو سيء والعياذ بالله يرجع على من تنتسب إليه.
ويُحسن أن نشير باختصار إلى موقف لمن يشعر بمسؤولية الانتماء، فقد
حكى ان شخصاً عثر على مال نفيس في السوق فاحتفظ به وراح يسأل عن صاحبه
ليعيده إليه فقيل له ان صاحبه يهودي وليس عليك أن ترجعه له وانت احوج إليه،
فقال: هل تريدون ان يشعر رسول الله (ﷺ) بالخجل يوم القيامة بسببي؟ قيل
وكيف ذلك؟ قال لأن نبي صاحب المال وهو موسى (عليه السلام) سيقول لنبينا محمد
(ﷺ) ان رجلاً من امتك أخذ مال رجل من امتي بدون رضاه؟

القيس/١٠٢

سورة إبراهيم: ﴿٤٢﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾

موضوع القيس: عاقبة الظلم

الظلم هو تجاوز الحد والحق وعدم وضع الشيء في موضعه وقد يقع الظلم بين الانسان وربّه بالمعصية فانها تجاوزت على حقوق الربوبية وحدود العبودية واشده الكفر والشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، والثاني بين الانسان واخيه الانسان عندما يتجاوز حدوده ويعتدي على حقوق الاخرين المادية والمعنوية ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ (الشورى: ٤١)، والثالث بينه وبين نفسه ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ (فاطر: ٣٢) والآخر موجود في الاولين فانه اول ما يظلم يظلم نفسه حينما يتجاوز الحدود مع ربّه او يعتدي على حقوق الناس ويجرّ بذلك على نفسه العاقبة السيئة ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧).

فالآية محل البحث تحذّر من كل اشكال الظلم خصوصاً ظلم الناس لانه (الذنب الذي لا يغفر)^(١)، كما في بعض الاحاديث الشريفة الا انه يغفره من وقع عليه الظلم اما الاخران فيمكن ان يُغفرا بالتوبة الصادقة، وتؤكد للناس حقيقة ان الله تعالى لا يغفل عن هذه المظالم ويسجلها صغيرة كانت او كبيرة ويحاسب عليها ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر: ١٤) فليتقي الانسان ربّه وليراقب نفسه ويدقق

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤٤٣.

في أعماله.

روى الإمام الباقر (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال لما حضر علي بن الحسين (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) الوفاة ضمّني إلى صدره ثم قال (يا بني أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة وبما ذكر أن أباه أوصاه به قال: يا بني إياك وظلم من لا يجد عليك ناصرًا إلا الله) ^(١) وقد روي الحديث عن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وعن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فعن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال (يقول الله عز وجل: اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد ناصرًا غيري) ^(٢)، أي ظلم من لا يمتلك القوة والنفوذ لاسترداد حقّه إمّا لضعفه كالمراة واليتيم والمستضعف أو لغيبته وعدم علمه أو لترفعه عن ردّ الإساءة بمثلها.

وتكتسب هذه الوصية أهمية كبيرة من جهة كونها الوصية الأخيرة في الحياة وعادة ما تتضمن مثل هذه الوصية أهم ما يريد أن يقوله الموصي، ومن جهة تواتر الوصية بها من معصوم الى معصوم (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ)، وهم أبعد ما يكونون عن الظلم مطلقاً، وهو ما دلت عليه الآية الشريفة ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤) فبلوغهم مقام الإمامة يعني انهم منزهون عن الظلم، وإنما أريد من التأكيد على هذه الوصية ترسيخها في ذهن الأمة حتى تصبح لهم شعاراً في حياتهم.

(١) الكافي: ٢ / ٣٣١ ح ٥.

(٢) ميزان الحكمة: ٣٠٤/٥، عن عدة مصادر.

تجنب الظلم الأخلاقي: من أخلاق أهل البيت (عليهم السلام):

وكانوا (صلوات الله عليهم أجمعين) ينزهون أنفسهم عن الظلم بكل أشكاله ومستوياته حتى إذا لم يصل الى مستوى المخالفة الشرعية لكنه لا يليق بأخلاقهم العظيمة، روى الإمام الباقر (عليه السلام) عن أبيه السجاد (عليه السلام) قوله (إني حججتُ على ناقتي هذه عشرين حجة لم أقرعها بسوط) (١).

هذا هو ديدن الأئمة في الترفع عن الظلم مهما كان ضئيلاً وفي أي مستوى من مستوياته، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) (والله لأن أبيتَ على حسك السعدان مسهّداً، أو أجرّ في الأغلال مصفّداً أحبُّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرعُ إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها) (٢) وذكر (عليه السلام) حادثته مع أخيه عقيل عندما أحسى له حديدة، ثم قال (عليه السلام) (والله لو أعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبها جُلب شعيرة ما فعلته) (٣).

وكان الإمام السجاد (عليه السلام) يترفع عن الانتقام ومقابلة من ظلمه بالمثل لأنه يرى المقابلة بالمثل ومعاقبة المسيء سيئةً وان الأليق بخصاله الكريمة العفو والصفح والإحسان إلى المسيء، تأديباً بقوله تعالى ﴿ادْفَعِ بِالتِّهْمِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٦) وقوله تعالى ﴿ادْفَعِ بِالتِّهْمِ الَّتِي هِيَ

(١) المحاسن للبرقي: ٦٣٥/٢.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٢٢١. بيان: الحسك: الشوك، والسعدان نبت ترعاه الإبل له شوك، والمسهدّ: السهران، والمصفّد: المقيد، والقفول: الرجوع، وجلب الشعيرة: غطاؤها.

(٣) المصدر نفسه.

أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿١٤﴾ (فصلت: ١٤) وقوله تعالى ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: ٢٢) فالذي يرجو عفو الله تعالى وإحسانه وفضله وكرمه لا بد أن يتعامل مع الناس على هذا الأساس.

روي: إن مولى لعلي بن الحسين (عليه السلام) يتولى عمارة ضيعة له، فجاء ليطلعها فأصاب فيها فسادا وتضييعا كثيرا غاضه من ذلك ما رآه وغمه، ففرع المولى بسوط كان في يده، وندم على ذلك، فلما انصرف إلى منزله أرسل في طلب المولى، فأتاه فوجده كاشفاً عن ظهره والسوط بين يديه، فظن أنه يريد عقوبته، فاشتد خوفه

فأخذ علي بن الحسين السوط ومد يده إليه وقال: يا هذا قد كان مني إليك ما لم يتقدم مني مثله، وكانت هفوة وزلة فدونك السوط واقتص مني. فقال: يا مولاي، والله لقد ظننت أنك تريد عقوبتي، وأنا مستحق للعقوبة، فكيف أقتص منك؟! قال: (ويحك اقتص).

فقال: معاذ الله، أنت في حل وسعة، فكرر ذلك عليه مرارا، والمولى كل ذلك يتعاضم قوله ويجلله، فلما لم يره يقتص، فقال (عليه السلام) له: أما إذا أبيت فالضيعة صدقة عليك، وأعطاه إياها^(١).

وفي رواية الطبقات الكبرى لابن سعد، ان عبد الله بن علي بن الحسين

(عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (لما عزل الوليد بن عبد الملك هشام بن إسماعيل عن ولاية المدينة وأوقفه الوليد إلى الناس ليققتصوا منه، وكان يسيء إلى أبي، جمعنا أبي علي بن الحسين وقال: إن هذا الرجل قد عزل وقد أوقفه الوليد للناس فلا يتعرض له أحد بسوء، فقلت يا أبت، والله إن أثره عندنا لسيء وما كنا نطلب إلا مثل هذا اليوم. قال: يا بني نكله إلى الله، فوالله ما تعرض أحد بسوء من آل الحسين حتى تصرم أمره)^(١).

وروي في ذلك عن رسول الله (ﷺ) قوله (أوحى الله إلى نبي من أنبيائه إذا ظلمتَ بمظلمةٍ فارضِ بانتصاري لك فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك)^(٢).

وعن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال (لا يكبرنَّ عليك ظلم من ظلمك فانه يسعى في مضرته ونفعك وليس جزاء من سرَّك أن تسوءه)^(٣).

التغاضي هو بلحاظ المظالم الشخصية لا الحقوق العامة:

ولابد أن نلتفت إلى أن هذا التغاضي وعدم الرد فيما يتعلق بالمظالم الشخصية، أما إذا كان الظلم يتعلق بالحقوق العامة خصوصاً إذا انتهكت محارم الله تعالى فالنهي عنه واجب والسكوت قبيح، روى في كنز العمال عن عائشة قالت: (ما رأيت رسول الله (ﷺ) منتصراً من ظلامة ظلمها قطّ إلا أن يُنتهك من محارم

(١) موسوعة المصطفى العترة ٦٤/٧، عن عدة مصادر ذكرها.

(٢) بحار الأنوار: ٧٥ / ٣٢١ / ح ٥٠.

(٣) تحف العقول - ابن شعبة الحراني: ٨٢

الله شيء، فإذا أنتهك من محارم الله شيء كان أشدَّهم في ذلك^(١).

في ذم الظلم:

والأحاديث الواردة في ذم الظلم والتحذير منه كثيرة فعن النبي (ﷺ) قال (إياكم والظلم، فإن الظلم عند الله هو الظلمات يوم القيامة) وعنه (ﷺ) قال (لا تظلم أحداً، تُحشر يوم القيامة في النور)^(٢)، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) (الظلم في الدنيا بوار وفي الآخرة دمار)، وعنه (عليه السلام) قال (من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده) وعنه (عليه السلام) (بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد) وعنه (عليه السلام) (إياك والظلم فإنه أكبر المعاصي)، وعنه (عليه السلام) قال (ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر، وظلم لا يُترك، وظلم مغفور لا يُطلب، فأما الظلم الذي لا يُغفر فالشرك بالله... وأما الظلم الذي يُغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات، وأما الظلم الذي لا يُترك فظلم العباد بعضهم بعضاً)^(٣).

عاقبة الظلم:

وروي عن النبي (ﷺ) في بيان عاقبة الظالم قال: (إنه ليأتي العبد يوم القيامة وقد سرته حسناته، فيجيء الرجل فيقول: يا رب ظلمني هذا، فيؤخذ من حسناته فيجعل في حسنات الذي سأله، فما يزال كذلك حتى ما يبقى له حسنة، فإذا جاء من يسأله نظر إلى سيئاته فجعلت مع سيئات الرجل، فلا يزال يستوفى منه

(١) ميزان الحكمة: ٣٠٨/٥ عن كنز العمال: ١٨٧١٦.

(٢) هذه المجموعة من الروايات وغيرها في ميزان الحكمة: ٢٩٩/٧ وما بعدها.

(٣) نهج البلاغة: ١/ ٢٥٥.

حتى يدخل النار^(١). وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (من ظلم قِصم عمره)، وقال (عليه السلام) (بالظلم تزول النعم).

مديات الظلم:

ويتضح من الروايات التي ذكرنا جملة منها إن مديات الظلم واسعة لا ينجو منها أحد إلا من عصم الله تبارك وتعالى، لان الظلم هو عدم الوفاء بتمام الحق، وأول حق لا نستطيع الوفاء به ونقصر فيه حق الله تعالى في طاعته وعبادته مخلصين له الدين ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

ومن الظلم ظلم النفس باتباع هواها وعدم مسك زمامها فتوقعه في المعاصي وتتمرد على الطاعات وهو مفتاح الظلم للآخرين، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (من ظلم نفسه كان لغيره أظلم) فيقع في ظلم الأهل وعموم الناس سواء في تعامله معهم أو خلال تقصيره في المسؤوليات المناطة به كالطبيب الذي لا يلتزم بشرف مهنته في المستشفى ليراجعوه في العيادة الخاصة، أو المدرّس الذي يقصر في المدرسة حتى يلتحقوا بدروسه الخصوصية والموظف الذي لا يعمل بمهنية ونزاهة، والأم التي تقصر في تربية أولادها وحفظ بيتها وشرف زوجها، أو السياسي في الحكومة والبرلمان الذي لا يبذل كل جهده في خدمة الشعب الذي ائتمنه على هذه المواقع والأمثلة تطول، فهذا كله ظلم.

حتى إن الظلم يمكن أن يقع في أمور بسيطة لا نتصورها كالتحكيم بين كتابتين أو رسمين أيهما أجمل إذا لم يكن منصفاً في حكمه كما ورد في الرواية

(١) البداية والنهاية - ابن كثير: ج ٢٠ / ص ٣٤.

عن الإمام الصادق (عليه السلام) (إن أمير المؤمنين (عليه السلام) ألقى صبيان الكتاب ألواحهم بين يديه ليُخَيَّرَ بينهم، فقال: أما إنها حكومة والجور فيها كالجور في الحكم)^(١).

سبيل التخلص من الظلم:

ولا سبيل إلى التخلص منها جميعاً إلا بالطلب من الله تعالى أن يرضي الخصماء عنه ويتولى ذلك بنفسه لأنه ولي الخلق جميعاً، ورد عنه (عليه السلام) في دعاء يوم الاثنين (وَأَسْأَلُكَ فِي مَظَالِمِ عِبَادِكَ عِنْدِي، فَإَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِكَ أَوْ أَمَةٍ مِنْ إِمَائِكَ كَانَتْ لَهُ قِبَلِي مَظْلَمَةٌ ظَلَمْتُهَا إِيَّاهُ، فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي عِرْضِهِ أَوْ فِي مَالِهِ، أَوْ فِي أَهْلِهِ وَوَالِدِهِ، أَوْ غِيْبَةٌ اغْتَبْتُهُ بِهَا، أَوْ تَحَامُلٌ عَلَيْهِ بِمَيْلٍ أَوْ هَوَىٍّ، أَوْ أَنْفَةٌ أَوْ حَمِيَّةٌ أَوْ رِيَاءٌ أَوْ عَصِيَّةٌ. غَائِباً كَانَ أَوْ شَاهِداً، وَحَيّاً كَانَ أَوْ مَيِّتاً، فَقَصُرَتْ يَدِي وَضَاقَ وَسْعِي عَنْ رَدِّهَا إِلَيْهِ وَالتَّحَلُّلِ مِنْهُ، فَأَسْأَلُكَ يَا مَنْ يَمْلِكُ الْحَاجَاتِ، وَهِيَ مُسْتَجِيبَةٌ لِمَشِيئَتِهِ وَمُسْرَعَةٌ إِلَى إِرَادَتِهِ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ تُرْضِيَهُ عَنِّي بِمَا شِئْتُ، وَتَهَبَ لِي مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً، إِنَّهُ لَا تَنْقُصُكَ الْمَغْفِرَةُ وَلَا تَضُرُّكَ الْمَوْهَبَةُ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ)^(٢).

ومن دعاء له (عليه السلام) (اللهم اني اعتذر اليك من مظلومٍ ظلم بحضرتي فلم أنصره)^(٣).

ومن دعائه (عليه السلام) (اللهم فكما كرهت إلي أن أظلم، فقني من أن أظلم)^(٤).

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحدود والتعزيرات، أبواب بقية الحدود، باب ٨، ح ٢.

(٢) الصحيفة السجادية: دعاء يوم الاثنين.

(٣) الصحيفة السجادية: الدعاء ٣٨.

(٤) الصحيفة السجادية: دعاؤه (عليه السلام) (إذا اعتدي عليه أو رأى من الظالمين ما لا يجب) ص ٩٥.

القبس/١٠٣

سورة الحجر: ﴿٩٢﴾-﴿٩٣﴾

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ • عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

موضوع القبس: تنمية الشعور بالمسؤولية

يقسم الله تبارك وتعالى لرسوله (ﷺ) ويختار للقسم اسماً ذا مغزى من اسمائه وهو (الرب) الذي تولى تربيته ورعايته والعناية به على اتم وجه وهي العناية التي لمسها رسول الله (ﷺ) في كل حياته واستشعر رفقتها وحنانها وحبها، فالقسم بهذا الاسم يكون ادعى للاذعان والتسليم بهذه الحقيقة.

وهو سبحانه لا يحتاج الى قسم لتصديق كلامه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء: ١٣٣) وإنما يقسم تعالى لتأكيد القضية، وجلب المزيد من الاهتمام بها وإيقاظ المخاطبين من غفلتهم عن جدية هذا الأمر وواقعته، وزاد في التأكيد باستعمال اللام ونون التوكيد.

﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكل البشر سيقفون للسؤال والحساب أمام الله تعالى بلا استثناء ﴿وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (الصفات: ٢٤) وهو تبارك وتعالى لا يسأل للاستفهام وطلب التعرف لأنه تعالى ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: ١٣) ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: ٦١) ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (طه: ٩٨) وإنما السؤال للإقرار والتبكيك وإلزام المسؤل نفسه وكشفه ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وهذا بذاته فيه الكثير مما يسمى بـ(وخز الضمير) والشعور بالخجل لظهور ما كان يخفيه الانسان من القبائح والتقصيرات ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (الطارق:٩) وكان عليه أن يلتفت حينما كان في الحياة الدنيا الى هذه الحقيقة ويعمل على أساسها بحذر وانتباه لا أن يضيع نفسه بسبب الغفلة وإتباع الاهواء والشهوات ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (فصلت:٣٢).

وفي قوله تعالى ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عموم لكل ما عمل الإنسان، فالسؤال سيكون شاملاً لكل تفاصيل الحياة التي ستكون حاضرة وماثلة ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية:٢٩) ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ (الكهف:٤٩) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا﴾ (آل عمران:٣٠) وسيكون الجزاء - مثوبة وعقوبة - بحسب العمل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٧-٨).

والسؤال والاستفهام ما دام إقرارياً تبكيتياً فإنه قد لا يكون بتوجيه الكلام الى المسؤول كما هو المتعارف بل باستنطاق جوارحه واعضائه الشاهدة على أفعاله والحاضرة فيها ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور:٢٤).

وهذا الفهم يقدم وجهاً لحل الاشكال بين الآية التي نحن فيها وقوله تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمن:٣٩) وهنا السؤال متحقق لكن بالاستنطاق المذكور ولا يحتاج الى أن يسأل الانس والجنان لفظياً عن

أعمالهم لأنها ستكون حاضرة مع شهودها ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس:١٥) ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالتَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (الرحمن:١١).

أمام هذه الحقائق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (فاطر:٥) يكون حرياً بنا أن نستشعر هذه المسؤولية وان تكون حية في وجداننا وحاضرة في أذهاننا عند كل قول أو فعل وفي أي حال من أحوال النفس، فهذا الشعور بالمسؤولية هو أول ثمرة واستجابة لهذه الآية الكريمة تلبية لنداء الرب الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤)، والآية تؤسس لحقل مهم من حقول علم التنمية البشرية الذي يحظى باهتمام واسع اليوم وهو الشعور بالمسؤولية.

وفي الخطوة التالية علينا أن نعي هذه المسؤولية ونتعرف على تفاصيلها ومجالاتها، لأن المعرفة أساس كل شيء، وإنما أخرج الانسان الى هذه الدنيا ليحصل هذه المعرفة ففي تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦) نقل عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن الإمام الحسين (عليه السلام) قال (خرج الحسين بن علي عليه السلام على أصحابه فقال: أيها الناس ان الله جل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه)^(١) ولذا اكتسب العقل أعلى قيمة بين العبادات في

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق: باب ٩ علة خلق الخلق.

الحديث (مَا عُبِدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ)^(١).

والمسؤوليات الملقاة على عاتقنا في هذه الدنيا واسعة ومتشعبة وبتجاهات عديدة، سئل الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) (كيف أصبحت يا ابن رسول الله؟ قال أصبحت مطلوباً بثمان خصال: الله تعالى يطلبني بالفرائض، والنبى (صلى الله عليه وآله) بالسنة، والعيال بالقوت، والنفس بالشهوة، والشيطان بالمعصية، والحافظان بصدق العمل، وملك الموت بالروح، والقبر بالجسد، فأنا بين هذه الخصال مطلوب)^(٢) فالحديث يحمل معاني الاشفاق والقلق والعطف على من يعيش هذه التجاذبات وعليه ان يؤدي هذه الاستحقاقات التي لا يعرف صعوبة النجاح فيها والخروج من عهدتها بالشكل الكامل الا مثل الإمام السجاد (عليه السلام)، فما حال الناس الغافلين والمقصرين!؟

وهذه الاستحقاقات الثمانية تمثل الحد المشترك بين الناس والمسؤولية الشخصية لكل أحد، وتوجد بإزائها المسؤوليات العامة التي تضاف الى الانسان بحسب الموقع الذي يشغله والعنوان الذي يكتسبه فهي تختلف من شخص لآخر، فمثلاً حضراتكم أساتذة في^(٣) الجامعات يتربى على أيديكم في كل سنة المئات من الطلبة الشباب فعليكم مسؤولية علمية في تزويدهم بكل ما ينفعهم من العلوم

(١) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١٨٧ ح ٢٠٢٣٩.

(٢) بحار الأنوار: ١٥/٣٧.

(٣) تحدّث سماحة المرجع الشيخ محمد يعقوبي (دام ظله) بهذا القبس في ملتقى أساتذة الجامعات العراقية مساء يوم الخميس ١٦ شوال ١٤٣٧هـ - الموافق ٢١-٧-٢٠١٦م وقد استضاف مركز عين للبحوث والدراسات المعاصرة أكثر من ستين أستاذاً واستاذة جامعية على مدى ثلاثة أيام لمناقشة التحديات المعاصرة.

والمعارف ليكونوا متقنين للعلم الذي تخصصوا فيه وهذه المسؤولية تلزمكم بتقييمهم بدقة وعدم بخس حق أحد او تفضيل أحد على آخر بغير حق، عن أبي عبد الله (عليه السلام) إن أمير المؤمنين (عليه السلام) ألقى صبيان الكتاب ألواحهم بين يديه ليخير بينهم، فقال: أما أنها حكومة والجور فيها كالجور في الحكم، أبلغوا معلمكم إن ضربكم فوق ثلاث ضربات في الأدب أقتص منه (١).

وعليكم مسؤولية أخلاقية وفكرية وثقافية في توعية هذا الجيل وهم خام في مستقبل العمر وفي مرحلة تكوين شخصيتهم ورسم ملامح رؤيتهم للحياة، وليس عندهم في عائلتهم او بيئتهم التي جاؤوا منها ما يساعدهم على ذلك، وانتم لكم من الهوية والرمزية والتأثير على الطلبة اكثر من أي شخص مؤثر اخر، فعليكم ترشيدهم وتوجيههم وتصحيح سلوكياتهم وعقائدهم وتحصينهم من التيارات الوافدة تحت عناوين مختلفة وهي جميعاً تهدف الى تجريد الشباب من هويتهم الاصلية، فلا بد من اعطائهم الجرعات المضادة لهذه الأوبئة والامراض الفتاكة.

فالمسؤولية اذن شاقة ومعقدة وقد تقولون إن هذا صعب أن يفى الإنسان بكل هذه الالتزامات مع الاستحقاقات الثمانية التي وردت في حديث الإمام السجاد (عليه السلام) وأنا أشاطركم هذا الشعور، لكن هذه الصعوبة تذوب بالإخلاص لله تبارك وتعالى وبالتسامي عن الأنانية الشخصية والفتوية وبالهمة العالية والتفاني في العمل، واعلموا أن الألفاظ الإلهية والنفحات المعنوية تختصر لكم الطريق وتطوي المسافة وتقرب البعيد وتذلل العسير قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ

(١) وسائل الشيعة (آل البيت): ٣٧٢/٢٨ ح ٢.

مُخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۞،
 ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ
 وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ (الطلاق: ١-٢-٣-٤-٥).

وهكذا فقد تكفل الله تعالى بتيسير سبل طاعته والمعونة عليها كما في
 الآيات والروايات الكثيرة ومنها قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ
 وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ
 الرَّاشِدُونَ﴾ (الحجرات: ٧) قال تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾
 (الذاريات: ٢٢) وقال تعالى ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (الإسراء: ٣١).

وتوجد رواية تهديكم إلى الكثير من الحلول لمشاكلكم وتفتح لكم آفاق
 المخرج من التعقيدات التي تواجهكم، خصوصاً في الساحة العراقية التي غاصت
 في وحلها أرجل الكبار والصغار، فقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (ما
 من عبد أحبنا وزاد في حبنا وأخلص في معرفتنا وسئل مسألة إلا ونفتنا في روعه
 جواباً لتلك المسألة)^(١).

فلا يكفي إذن ان يتبوأ الانسان موقعاً مهماً بل عليه أن يفي باستحقاقه
 ويؤدي التزاماته أمام الله تعالى، استمع الى أمير المؤمنين (عليه السلام) يتحدث عن هذه
 المسؤولية حينما رجعت اليه الأمة بعد إعراض (أقنع من نفسي بأن يقال أمير
 المؤمنين ولا أشاركم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة

(١) شرح الخطبة التطنجية لكاظم الحسيني الرشتي: ج ٢.

العيش^(١).

وإذا عجز الإنسان عن القيام بالمسؤوليات الملقاة على عاتقه في موقع معين - خصوصاً على مستوى الزعامة الدينية والسياسية - فليتجنب الموقع وليترك الفرصة لغيره، فإن حركة البشرية نحو التكامل لا تتوقف لموت أحد أو انسحابه من العمل ولا حاجة إلى أن يتمادى في جهله وظلمه لنفسه فيتمقص موقعاً ليس من أهله ويكفيه ما قال فيه خالقه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

وقد يشعر الإنسان بالرضا عن نفسه أحياناً ويكونه ناجحاً في عمله ومؤدياً لواجباته عكس ما ينظر إليه الآخرون فلا يفهم سبب اعتراض الآخرين أو توبيخهم، وما ذلك - في بعض وجوهه - إلا لفقدانه القدرة على قياس درجة النجاح وضياع المعايير الصحيحة للتقييم عنده لأنه غافل عن ما يجب عليه الوفاء به من استحقاقات، ولو التفت إليها لعرف حجم تقصيره ولكنه ينظر إلى جهةٍ واحدة ويرى نفسه ناجحاً فيها ويعمم النتيجة.

أيها الإخوة والأخوات:

إن الله تعالى خلقكم في زمان يغطكم عليه أهل الأجيال الأخرى كما نغبط نحن جيل الصحابة الذين عاشوا مع رسول الله (ﷺ) وبنوا بقيادته الحكيمة صرح الإسلام العظيم، فكان لهم بكل من اهتدى بنور الإسلام صدقة جارية

(١) نهج البلاغة ص ١٤٦، من كتاب له (عليه السلام) إلى عثمان بن حنيف الأنصاري.

توجب لهم المزيد من الأجر.

ونغبط أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) لأنهم صنعوا مستقبل الأمة إلى نهاية التاريخ وأرجعوا مسيرة الأمة إلى اتجاهها الصحيح وصانوها من الانحراف والتزييف فلهم على كل مسلم فضل ومنة بموقف وقفوه عدة ساعات من النهار.

فعلينا أن نلتفت الى ان الله تعالى خلقنا في هذا المفصل التاريخي العظيم الذي قُدِّر له أن يرسم المستقبل ليس للعراق فقط بل للمنطقة وللعالم، ولا تؤثر عليه المعاناة والمصائب والفجائع التي يدبرها لنا اعداؤنا، فعلينا أن نحسن الأداء ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٤) وأن نؤدي وظائفنا المطلوبة على أكمل وجه في هذا اليوم الذي له ما وراءه كما كانت تقول العرب وأن نشكر الله تعالى على هذه الفرصة الثمينة ونحسن استثمارها.

ومن قبل نشكر الله تعالى انه خلقنا في زمان الإسلام والهدى، هذه النعمة التي سجّلها الإمام الحسين (عليه السلام) في دعائه يوم عرفة (لم تخرجني لرأفتك بي ولطفك لي وإحسانك إليّ في دولة أئمة الكفر الذين نقضوا عهدك وكذبوا رسلك لكنك أخرجتني للذي سبق لي من الهدى الذي له يسرتني وفيه أنشأتني)^(١).

تصوّروا لو أن الله تعالى خلق أحدنا في زمان الجاهلية فما هي فرصة الهداية في ذلك المجتمع الذي كان يعكف على عبادة الأصنام والزنا وشرب الخمر وقتل النفس المحترمة، بحيث أن جعفر بن أبي طالب يشار إليه بامتياز عن المجتمع المكّي بأنه ممن حرّم على نفسه الخمر في الجاهلية لندرة هذه الحالة، ويوصف الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) بأنه (كرم الله وجهه) لأنه لم يسجد لصنم في

(١) مفاتيح الجنان: ٣٢٩.

الجاهلية^(١) ومن هذه الأمثلة النادرة تعلموا حال الآخرين^(٢).

أقول: ما فرصة هداية الإنسان في مثل ذلك المجتمع وكم واحدٍ يمكن أن يكون مثل سلمان الفارسي الذي^(٣) ولد بأرض الفرس فلما بلغ عرف ضلال قومه فراح يجوب البلدان بحثاً عن الحقيقة في بلاد الفرس والروم وأرض العرب حتى اهتدى إلى رسول الله (ﷺ).

فهذه النعمة التي نرفل بها تضاف إلى نعمة عظيمة أن الله تبارك وتعالى اختارنا بلطفه وعطائه الابتدائي من بين الأجيال لنكون من هذا الجيل الذي كلفه برسم معالم المستقبل، كما اختار من قبل أصحاب رسول الله (ﷺ) وأصحاب الحسين (عليه السلام) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦)، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام: ١١٤).

(١) الأمالي - الشيخ الطوسي: ٣٧٩.

(٢) أنظر: علل الشرائع - الشيخ الصدوق: ٥٥٨/٢.

(٣) بحار الأنوار - المجلسي: ٣٥٥/٢٢.

﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾

موضوع القبس: إعلان الهوية

التماهي في الذوبان:

من مظاهر تقصيرنا الذي تحوّل إلى مشكلة تعيق تقدّم العمل الإسلامي الرسالي هو عدم إبراز هويتنا اما ضعفاً أو مجاملة أو مداهنة أو خوفاً على بعض المصالح والامتيازات أو لأي سبب آخر، ونقصد بهويتنا كل الانتماءات التي تشكل عناصر هذه الهوية، فنحن مسلمون ننتمي للإسلام، ونحن من الموالين لأهل البيت (عليه السلام)، ونحن نتبع المرجعية الفلانية ونقلدها.

فعلى صعيد الهوية الإسلامية نجد أن بعض المسلمين - في بعض المجتمعات المتمدنة كما يزعمون- قد يترك الصلاة بين زملائه في العمل أو في الجامعة حتى لا يعرف انه مسلم، أو المرأة تضعف عن لبس الحجاب العفيف لأنها لا تستطيع أن تواجه تعليقات الآخرين، أو يجلس شخص على مائدة الشراب أو يسمع الغناء حتى لا يقال عنه انه (معقد) أو (متخلف)، أو يجاري الآخرين في لبسه ومظهره الخارجي واندماجه معهم في سلوكهم المنحرف حتى يقال عنه أنه متمدن متحضر مثلهم.

وعلى صعيد الهوية الشيعية نجد من يترك المشاركة في إحياء الشعائر الحسينية المهذبة المسنونة شرعاً، أو يعرض عن قضية فاطمة الزهراء (عليها السلام) وما

جرى بعد رسول الله (ﷺ)، أو يخفي شهادته لأمير المؤمنين (عليه السلام) بالولاية، أو السجود على التربة ونحوها.

والذي يقلد المرجعية المعينة لا يصرح بذلك ويحاول التمويه والابتعاد عن انتسابه إليها ونحوها من الأمثلة على التخلي عن الهوية وما تقتضيه انتماءاته لتلك الهوية من التزامات.

الضعف في إبراز الهوية:

إن هذا الضعف عن إبراز الهوية لا يضر فقط في دينه وآخرفته ويسقطه من عين الآخرين لاتهامه بالنفاق، بل انه يضر بكل المشروع الذي ينتمي إليه لأنه يؤدي إلى تمييع الهوية وتضييعها، ولأنه إذا لم يعلن انتماءه ويبين نقاط القوة فيه ودواعي تبنيه له، فكيف سيدعو الآخرين إليه ويقنعهم به؟، وكيف سيتقدم المشروع الرسالي؟ ولو أن السلف الصالح لم يقم بواجبه تجاه هويته ويبنونها بوضوح ويدافعوا عنها بالحجج الدامغة لما وصلت إلينا بهذه القوة والثبات والمناعة مضمخة بدماء الشهداء ومداد العلماء.

التعايش مع الآخر لا يعني التنازل عن المبادئ:

فإن الوحدة والتقارب والتعايش مع الطوائف الإسلامية أو مع الديانات الأخرى، أو مع الشرائع المتنوعة لا تستلزم التنازل عن المبادئ والمعتقدات التي ثبتت صحتها، فليعمل كلُّ بما ثبت عنده صحته بالحجة والبرهان، وإذا كان غير مثبت من معتقداته وانتماءاته فيجب عليه إعادة النظر فيها ومراجعتها وطلب الدليل عليها، وليس اخفاؤها والمجاملة فيها.

الآية الكريمة تصر على تحمل مسؤولية الانتماء:

لقد كان من أوائل الأوامر التي وجهها الله تبارك وتعالى إلى رسوله الكريم (ﷺ) في بداية الدعوة الإسلامية قوله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۗ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر: ٩٤-٩٥) والصدع هو إحداث الشق في الاجسام الصلبة كالحديد والشق واستعير لفصل الأمور وقطعها فصنع النبي (ﷺ) بدعوته في مواجهة طواغيت قريش وسدنة الأصنام التي بلغ تعدادها (٣٦٠) صنماً حولوها إلى كيانات لمصالحهم وامتيازاتهم الواسعة، ولم يكن مع النبي (ﷺ) إلا أمير المؤمنين (عليه السلام) وخديجة بنت خويلد، وأصر على تحمل المسؤولية حتى فتح الله تعالى على يديه، ولا نزيل بالشواهد من سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام) وفاطمة الزهراء (عليها السلام) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام).

وعلى هذا النهج سار الصلحاء من اتباع أهل البيت (عليهم السلام)، فيقف أبو ذر الغفاري (رضوان الله تعالى عليه) في عقر ديار معاوية ويقول: سمعت حبيبي رسول الله (ﷺ) باذني هاتين وإلا صُممتا يقول، ثم يذكر فضائل علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وانظر إلى موقف الصحابة الاثني عشر الذين احاطوا بمنبر الأول حينما تقمص الخلافة بعد رسول الله (ﷺ) وادلوا بشهادتهم وحججهم وقد ذكرها الطبرسي في كتاب الاحتجاج^(١).

لنتحدث عما يجب فعله لا ما فعلوه بنا:

روينا لكم في حديث سابق اننا في موسم الحج عام (١٤٢٤هـ) وجهنا إلى

(١) الاحتجاج - الطبرسي: ٧٠/١.

أن نرفع أصواتنا بشكل جماعي اثناء الطواف حول الكعبة بدعاء الفرج (اللهم كن لوليك الحجة ابن الحسن.....)^(١) ليلتفت المسلمون القادمون من حوالي (١٨٠) دولة في العالم إلى إمامهم الحق ويسألوا عنه ويتعرفوا عليه ويهتدوا إلى نوره، وكنا على ثقة بأنه سيتجاوب معنا الموالون، وهذا ما حصل وكان له وقع واثر ولم يستطع المناوؤن منعه واستمرت هذه السُنَّة إلى اليوم ونسأل الله تعالى أن تبقى وتستمر وتتسع حتى يأذن الله لوليه بالظهور المبارك.

إننا كثيراً ما نتحدث عن مؤامرات الأعداء واستهدافنا وانهم يفعلون كذا وكذا، ولا نتحدث إلا القليل عمّا يجب أن نفعله نحن في مواجهتهم والقيام بمسؤولياتنا، ومنها هذا التكليف بالاصحار والاعلان عن عناصر الهوية.

ويجب الالتفات إلى أن يكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر الله تبارك وتعالى، وأوصى نبيّه الكليم وأخاه هارون وهما يتوجهان إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد ﴿أذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه: ٤٣-٤٤).

﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْتَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾

موضوع القيس: القرآن الكريم يخفف آلام العاملين الرساليين

من السنن الجارية في الأمم عبر التاريخ تعرض المصلحين والعاملين الرساليين وعلى رأسهم الأنبياء والرسل والأئمة المعصومون (صلوات الله عليهم أجمعين) إلى الإيذاء المادي والمعنوي من قبل المتسلطين والطواغيت وأصحاب النفوذ (الذين يسميهم القرآن بالملأ) وأتباعهم من الجهلة والمنتفعين والغوغاء ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (فصلت: ﴿٤٣﴾) ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ (آل عمران: ﴿١٨٦﴾)، مما يسبب لهم المأ وحزناً لتضيق به صدورهم وييدي الله تبارك وتعالى على لسان أوليائه الحسرة والألم والتفجع لهذا الموقف السلبي ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (يس: ﴿٣٠﴾)، فيخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية بانه تعالى يعلم ما يحل به ويجري عليه ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ﴿٤٨﴾) ورعايتنا مستمرة ودائمة ويعلمه الاجراء الذي يتخذه لتحصيل الطمأنينة وتخفيف هذه الآلام، قال تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ﴿٩٨-٩٩﴾).

ويحكي القرآن الكريم فصولاً عديدة من هذه المواجهة تضمنت أقسى ألوان البطش والقسوة والانحطاط من قبل المعسكر الآخر وأسمى ألوان الصبر

والمصابرة والجهاد والرحمة والشفقة من أولياء الله وعباده الصالحين، ورغم أن الإيذاء المادي المشتمل على القتل والتشريد والتعذيب الجسدي والسجن والتجويد وغيرها كان قاسيا إلا أن ما يؤلم الصالحين أكثر هو الإيذاء المعنوي بالإعراض عن الاستماع إلى الحق وإتباعه وخلط الأوراق على الناس بالافتراء والكذب وقتل الشخصية بالتسقيط والتشويه لان الثاني هو الذي يحول دون نجاح مشروعاتهم الرسالي ويضع الحواجز بينهم - أي المصلحين - وبين الناس فيؤلمهم ابتعاد الناس وعدم اهتمامهم إلى الحق وتنعّمهم بالرحمة التي جاؤوهم بها من ربهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٧)، أما الأول فإنه يؤدي إلى التعاطف معهم والالتفات إليهم واعتناق مبادئهم ولو بعد حين للشعور بمظلوميته.

ومما يزيد في شدة وطأة الإيذاء المعنوي أن أتباع نفس الرسل والمصلحين يساهمون فيه عن علم وعمد أو عن جهل وغرور وأناية بسوء تصرفهم وبعضياتهم وعدم الالتزام بتعاليم قادتهم وبضعفهم وتشتتهم والخلافات بينهم ونحوها، بينما لا يتوقع صدور النوع الأول من الأتباع والموالين.

وكان الإيذاء المعنوي أشد على قلب رسول الله (ﷺ) الذي وصفه الله تبارك وتعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، لذا كان ربّه الكريم الرحيم يسلي قلبه ويخفف عن آلامه ويطيّب خاطره ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٢٧)، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ

الْيَقِينُ ﴿(الحجر: ٨٧-٨٩)﴾.

بل إن سوراً كاملة نزلت لهذا الغرض كسورتي القصص ويوسف (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ)، فالأولى تصف حالة الاستضعاف التي كان عليها قوم موسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) حيث كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم وفي ذلك البلاء العظيم ولد موسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فكان من لطف الله به وتدييره له أن يأخذه فرعون الطاغية نفسه ويرعاه حتى أصبح رجلاً رافضاً لما عليه فرعون وقومه ثم غادر مصر خوفاً من القتل حتى ورد ماء مدين وتزوج هناك ثم عاد نبياً رسولاً كليماً لله تبارك وتعالى بمعجزة عظيمة يدعو فرعون إلى عبادة الله تبارك وتعالى واستطاع أن يهدي بمعاجزه سحرة فرعون وآمن به من آمن حتى عبأ له فرعون من الجيوش ما لا قبل لموسى والمؤمنين بهم ففلق الله تبارك وتعالى لموسى البحر وأنجاه ومن معه وأغرق فرعون وجنوده لينتصر موسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ويقيم الحق والعدل وقد عبّر الله تبارك وتعالى عن هذا التدبير بتعبير رقيق ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ (طه: ٣٦)، أي لتصنع هذه القيادة الفذة برعاية وتدبير مباشرين من الله تبارك وتعالى، وفي نهايتها تصل السورة إلى الهدف وهو تطيب قلب رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) والتخفيف عن آلامه التي اشتدت في السنين الأخيرة من وجوده المبارك في مكة حيث حوصر ثلاث سنين في الشعب حتى فقد ناصرته خديجة وأبا طالب ثم أمر بالهجرة ومغادرة مكة التي تعلق بها قلبه فوعده الله تبارك وتعالى بأنه عائدٌ إليها ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥)، وما مرت إلا ثمان سنوات - وهي ليست كثيرة في عمر الزمن - حتى تحقق الوعد الإلهي بفتح مكة.

وتتحدث سورة يوسف عن ذلك الغلام الصغير الذي حسده أخوته فالتوه في الجب ليهلك ولم يكن هناك أمل بنجاته لكن التدبير الإلهي أتاه بقافلة لتسقي فخرج مع الدلو وباعوه في مصر إلى عزيزها الذي رباه واعتنى به ثم قرّبه لما وجد عنده علماً وحكمة وتديراً وأمانة وصار بيد النبي الكريم مقاليد أمور الولاية بعد وفاة عزيزها وجاء نفس أخوته الذين كادوا له معترفين بجريمتهم طالين العفو والصفح فتعامل معهم بسمو الأخلاق.

هكذا يلطف الله تعالى بعباده وهكذا يصنع أوليائه ويدبر شؤونهم، وهكذا يخيب كيد الباغين والحاسدين والمنافقين والكافرين ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣).

إن ما يمرّ بنا اليوم من بلاء وما مرّ بنا أيام صدام وغيره من الطواغيت لا يستحق أن يذكر في جنب ما أصاب أولياء الله الصالحين في الأمم السالفة حيث ورد في الروايات أنهم نشروا بالمناشير وقرضوا بالمقاريض وحفرت لهم أخاديد النار والقوا فيها فقصوا حرقاً (سورة البروج) والمتوقع من المتهاكين على السلطة وحب الدنيا أن يفعلوا ما هو أسوأ لولا لطف الله تبارك وتعالى، فخير ما يسليكم ويطمئن قلوبكم وينور بصائركم ويثبت أقدامكم هو القرآن الكريم فاتخذوه قائداً وهادياً. وقد عشت مثل هذه التجربة مع القرآن ولا زلت أعيش لذة الأيام التي قضيتها في كنفه في ثمانينات القرن الماضي حينما كنت حبيساً في الدار لا ادري في أي لحظة يقبض عليّ الطغاة ويعدمونني الحياة.

وإن مما يخفف الآلام والمصاعب ويدفعنا إلى بذل المزيد من الجهود هو أن نلتفت إلى النعمة التي منحنا الله تبارك وتعالى إياها في هذا الزمن حيث تتوفر

أعظم فرصة لبناء المستقبل الزاهر لامتنا ونبفض غبار السبات الذي أصابها منذ أكثر من ألف عام، ونمهدّ لدولة الحق والعدل ببناء أنفسنا ومجتمعنا ومؤسساتنا على أسس الإخلاص والتقوى والعمل الصالح بعيداً عن المتصارعين على الدنيا الفانية الزائلة. لقد كان أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) يتسابقون إلى الموت فرحين مسرورين لان الإمام (عليه السلام) كشف لهم عن بصائرهم فرأوا منازلهم في الجنة أي رأوا نتائج تضحياتهم والمستقبل العظيم لما يقومون به فصغر في أعينهم ما يلاقون من ألم الجراح وهذا التفسير منسجم مع ما نعتقده من تجسّم الأعمال. وإذا كانت تلك التضحيات لإبقاء الحياة وجزوة الضمير والايامن في جسد الأمة فإن تضحيات اليوم ستؤدي إلى بعثها من جديد وحركتها نحو بناء دولة الحق والعدل.

الحمد لله رب العالمين
منصراً

الفهرس

- القبس / ٦٩ ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ سورة الأنفال: ٣٦ ٥
 موضوع القبس: من لا يقدم ما عليه في طاعة الله تعالى يعطي أكثر منه في معصيته
 ٥
- القبس / ٧٠ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ سورة الأنفال: ٤١.. ١٣
 موضوع القبس: إخراج الحقوق الشرعية: الوجوب والإشكالات ١٣
- القبس / ٧١ ﴿يَوْمَ أَلْفُرْقَانَ﴾ سورة الأنفال: ٤١ ٤٣
 موضوع القبس: يوم بدر كان فرقاناً بين الحق والباطل ٤٣
- القبس / ٧٢ ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة الأنفال: ٤٥ ٥٠
 أهم قضاياها: أن نستحضر الله تعالى في وجداننا ٥٠
- القبس / ٧٣ ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فِتْفَشَلُوا﴾ سورة الأنفال: ٤٦ ٥٤
 موضوع القبس: التنازع يؤدي الى الفشل ٥٤
- القبس / ٧٤ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ﴾ سورة الأنفال: ٦٠ ٦١
 موضوع القبس: إعداد القوة في السيرة النبوية المباركة ٦١
- القبس / ٧٥ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ سورة
 التوبة: ١٨ ٧٣
 موضوع القبس: مسؤولية المؤمنين عن إعمار المساجد ٧٣
- القبس / ٧٦ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُ
 وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ سورة التوبة: ٣٢ ٩٠

- موضوع القبس: لتكن لنا مشاركة في تحقيق الهدف الإلهي العظيم ٩٠
- القبس/ ٧٧ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ سورة التوبة: ٤٦..... ٩٦
- موضوع القبس: الإعداد للعمل علامة على صدق الراغب فيه..... ٩٦
- القبس/ ٧٨ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ اعْزَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ سورة التوبة: ٤٩..... ١٠٧
- موضوع القبس: فتنة توظيف العناوين الدينية لأهواء شخصية..... ١٠٧
- القبس/ ٧٩ ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ سورة التوبة: ٩٨..... ١١٦
- موضوع القبس: العطاء في سبيل الله تعالى غنيمة وليس خسارة ١١٦
- القبس/ ٨٠ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ سورة التوبة: ١٠٨..... ١٢١
- موضوع القبس: الفوائد النفسية والاجتماعية في التردد على المساجد ١٢١
- القبس/ ٨١ ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ سورة التوبة: ١٠٩..... ١٣١
- موضوع القبس: تأسيس بناء الإنسان على التقوى ١٣١
- القبس/ ٨٢ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ سورة التوبة: ١١٩..... ١٤٠
- القبس/ ٨٣ ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ سورة التوبة: ١٢٢..... ١٥٧
- موضوع القبس: وجوب التحاق النخب بالحوزات العلمية..... ١٥٧

- القبس / ٨٤ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ سورة التوبة: ١٢٨ ١٧٢
- القبس / ٨٥ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ سورة يونس: ٥٨..... ١٧٨
- موضوع القبس: موجبات الفرح الحقيقي ١٧٨
- القبس / ٨٦ ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ سورة يونس: ٦١..... ١٨٣
- موضوع القبس: لنستشعر الرقابة الإلهية ١٨٣
- القبس / ٨٧ ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَّةً آمَنْتُمْ فَتَفَعَّلَهَا إِيْمَانُهَا﴾ سورة يونس: ٩٨..... ١٨٧
- موضوع القبس: من البلاء ما نستطيع دفعه ١٨٧
- القبس / ٨٨ ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ سورة هود: ٧..... ١٩٣
- موضوع القبس: تمام حسن العمل بإتقانه والمداومة عليه^(١) ١٩٣
- القبس / ٨٩ ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ سورة هود: ٦١..... ١٩٨
- موضوع القبس: الإسلام وإعمار الحياة ١٩٨
- القبس / ٩٠ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ سورة هود: ٨٨..... ٢٠٧
- موضوع القبس: الإصلاح رسالة الأنبياء ٢٠٧
- القبس / ٩١ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ سورة هود: ١٠٨..... ٢١٤
- موضوع القبس: حقيقة السعادة ٢١٤
- القبس / ٩٢ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ سورة هود: ١١٤ ٢٣٠
- القبس / ٩٣ ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ سورة يوسف: ٢٤..... ٢٤٣
- موضوع القبس: درس من عفاف النبي يوسف (عليه السلام) ٢٤٣
- القبس / ٩٤ ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ سورة يوسف: ٣٢..... ٢٥٤

- موضوع القبس: كيفية ضبط الغرائز والشهوات ٢٥٤
- القبس/٩٥ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ سورة يوسف: ١٠٨ ٢٧٢
- موضوع القبس: البصيرة بوصلة السلوك الإنساني ٢٧٢
- القبس/٩٦ ﴿لَهُوَ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ سورة الرعد: ١١ ٢٨٥
- موضوع القبس: الملائكة الحارسة ٢٨٥
- القبس/٩٧ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ سورة الرعد: ١١ ٢٩٤
- موضوع القبس: التغيير يبدأ من داخل الانسان والمجتمع ٢٩٤
- ملحق: كيفية تغيير الواقع الفاسد ٢٩٧
- القبس/٩٨ ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ سورة الرعد: ٢١ ٣٠٥
- موضوع القبس: لا يدقق بعضكم في محاسبة البعض الاخر ٣٠٥
- القبس/٩٩ ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ سورة إبراهيم: ٥ ٣١٥
- القبس/١٠٠ ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ سورة إبراهيم: ٢٨ ٣٢٢
- القبس/١٠١ ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ سورة إبراهيم: ٣٦ ٣٣٢
- موضوع القبس: شرف الانتماء ومسئوليته ٣٣٢
- القبس/١٠٢ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ سورة إبراهيم: ٤٢ ٣٣٩

